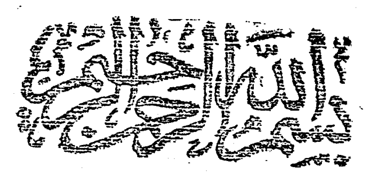
نور اليقين

فى تاريخ الراشيدن

الجزء الأول

تأليف
أ.د / محسن سعد عبد الله
أستاذ التاريخ الإسلامي
بكلية اللغة العربية بالمنصورة



الفصل الأول

الخلافة والبيعة عند علماء النظم

يحسن بنا قبل أن نعرض لتاريخ الخلفاء الراشدين ذكر لمحة موجزة عن مفهوم الخلافة في اللغة والإصطلاح وما قاله علماء النظم من شروط لابد من توافرها في الشخص الذي يتربع إلى أريكة الحكم في الدولة الإسلامية .

مفهوم الخلافة في اللغة والإصطلاح :

ورد لفظ خليفة في القرآن الكريم أكثر من مرة في سور عدة مثل قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم « وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون »[١] وقال تعالى « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق »[٢].

وقد ورد هذا اللفظ مجموعا فقال تعالى «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات »[٣].

وإذا نظرنا في الآيات الكريمة وجدنا أن لفظ الخلافة قد دل على عدة معان منها جعل الله آدم خليفة في الأرض بدلا من الملائكة وعهد إليه هو وذريته عمرانها واستخراج كنوزها وبهذا يكون لفظ الخلافة قد أطلق وأريد

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .
(٢) قرآن كريم سورة ص آية رقم ٢٦ .
(٣) قرآن كريم سورة الأنعام آية ١٦٥ .

به لغة « النيابة » مع ملاحظة أن الشخص المستخلف وهو آدم قد عهد إليه بأمر العمران مع وجود الملائكة .

ومن ثم يمكن القول بأن النيابة المرادة من لفظ الخلافة المذكور فى الآية لا يعنى غيبة المخلوف عنه فى إدارة الأمر .

وأما الآية الثانية فإن لفظ خليفة الوارد بها يعنى أن الله قد جعل داود عليه السلام خليفة له فى الأرض ليحكم بين الناس بناء على الشريعة المنزلة عليه من عند ربه وعلى هذا فإن لفظ الخلافة فى الآية يعنى النيابة مع وجود المستخلف وهو الله سبحانه وتعالى .

فإذا ما نظرنا إلى الآية الثالثة وجدنا فيها لفظ الخليفة قد جاء جمعا وقد خوطبت به أمة النبى محمد ﷺ على أساس أنها خلفت الامم السالفة فى حمل شريعة الله إلى أن تقوم الساعة كما يقول بعض العلماء[1].

وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض معانى لفظ الخلافة فى القرآن الكريم فإنه لابد لنا من الوقوف على ما قاله علماء اللغة من معان له فقد قال ابن منظور « الخليفة الذى يستخلف ممن قبله والجمع خلائف جاءوا به على الأصل مثل كريم وكرائم وهو الخليف والجمع خلفاء . . . . والخلافة الإمارة وهى الخليفى وأنه خليفة بين الخلافة والخليفى وفى حديث عمر رضى الله عنه لولا الخليفى لأذنت وفى رواية : لو أطقت الأذان مع الخليفى بالكسر والتشديد والقصر — الخلافة وهو وأمثاله من الأبنية كالرميا والدليلى مصدر يدل على معنى الكثرة يريد به كثرة اجتهاده فى ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنتها ... » والخليفة السلطان الأعظم وقد يؤنث وأنشد الفراء :

---

(١) ابن منظور لسان العرب مادة خلف ص ١٢٣٥ .

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قال ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة والوجه أن يكون ولده آخر »[1].

وأما مفهوم الخلافة اصطلاحا فان علماء النظم ذكروا له أكثر من تعريف غير أن هذه التعريفات الكثيرة أتفقت فيما بينها على أن متولى منصب الخلافة عليه القيام برعاية أمور الدين والدنيا للأمة التى يحكمها .

فالماوردى[2] يقول « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

والذى يمعن النظر فى هذا التعريف يجد أن صاحبه أراد إبراز أمور هامة منها .

١ — أن الخليفة ينوب عن النبى محمد فى قيادة الرعية بالنسبة لأمور دينهم ودنياهم .

٢ — إن الإسلام دين ودولة .

٣ — إن الخليفة لا يجوز له إدعاء حق تبديل أمر شرعي لأنه ما جاء إلا حارسا على الأمور الشرعية التى انتهى أمر التبديل والتغير فيها بوفاة النبى محمد ﷺ [3]

وأما ابن خلدون « فإنه عرف الخلافة بأنها « حمل الكافة على مقتضى

---

(١) ابن منظور لسان العرب مادة خلف ص ١٢٣٥
وحسن إبراهيم حسن ، على إبراهيم حسن (النظم الإسلامية) ص ٢ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٣ مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ.

(٣) د . محمد ضياء الدين الريس (النظريات السياسية الإسلامية) الطبعة السابقة ص ١٢١ .

النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها . إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا[١].

ونحن نرى أن هذا التعريف لا يختلف كثيرا عن سابقه فهو يقرر ما فهم من تعريف الماوردي بيد أنه قد زاد الأمر تفصيلا عنه حين بين أن الخليفة يجب عليه استخدام جميع السبل التي تكفل له سياسة الرعية سياسة فيها الصلاح لدنياهم وأخراهم لأن أحوال الناس في الآخرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بأمورهم في دنياهم .

وفي تعريف آخر للخلافة أنها « رئاسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبي ﷺ »[٢]

والناظر في هذا التعريف يجد أنه كسابقيه سوى أنه استبدل الرياسة بالإمامة فيكون قد بعد بهذا المنصب عن المفهوم الذي يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة عند سماع كلمة خليفة أو إمام ذلك أن كلمة الرئاسة فيها ما فيها من أمور ارستقراطية للحاكم وأبهة الملك .

ولم يكن لقب خليفة هو اللقب الوحيد الذي أطلق على الجالس في دست الحكم في الدولة الإسلامية فإن المصادر الأصيلة في التاريخ الإسلامي ذكرت لنا أن الخليفة قد لقب بعد بلقبين آخرين هما الأمير والإمام .

أما اللقب الأول فإنه قد عرف لدى العرب من قبل إطلاقه على الخليفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩١ الطبعة الأولى دار العلم بيروت .
(٢) محمد رشيد رضا : الخلافة ص ١٠ .

وآية ذلك ما قاله الحباب[١] بن المنذر فى السقيفة حين احتدم النقاش بين المهاجرين والأنصار كما سنبينه (منا أمير ومنكم أمير) .

وكثيراً ما كانت هذه الكلمة تطلق على قائد الجيش كما كانوا يلقبون سعد بن أبى وقاص[٢] بأمير المؤمنين لقيادته جيش القادسية .

---

(١) ابن الجموح الأنصارى السلمى الخزرجى أبو عمرو صحابى من الشجعان كان يقال له (ذو الرأى) وكانت له آراء مشهورة فى الجاهلية شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ .

وهو الذى قال يوم السقيفة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير .

ابن حجر « الإصابة » ج — ص ٣٠٢ .

(٢) — واسم أبى وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، الزهرى القرشى .

— كان من المتقدمين فى الإسلام ، مجاب الدعوة .

— شهد سائر المشاهد .

— أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، ويلقب بفارس الإسلام .

— تولى قتال فارس أيام عمر بن الخطاب وفتح الله على يده أكثرها كان له فتح القادسية وبفتحها فتحت أبواب العراق وفارس أمام العرب .

— كان أميراً على الكوفة وعزله عنها عمر لما شكاه أهلها بالباطل ودعا على شاكيه واستجاب الله لدعائه فنكبوا .

— لم يشترك فيما حدث من فتنة بعد مقتل عثمان ؛ ولم يحضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم .

=

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول مبدأ إطلاق هذا اللقب على عمر ابن الخطاب فبعضهم يقول إن عامل البريد حين قدم إلى المدينة طفق يسأل عن عمر بن الخطاب بقوله أين أمير المؤمنين ومنذ ذلك الوقت أطلق اللقب على الخليفة .

وآخرون يقولون إن أحد الصحابة أطلق هذا اللقب على عمر بن الخطاب وهو جالس معهم فاستحسنوه ومن ثم أطلقوه عليه مؤثرين إياه على لقب خليفة حتى لا يؤدى ذلك للتكرار حيث كان عمر يلقب قبل هذا الوقت خليفة خليفة رسول الله[١] .

وأما لقب الإمام فإنه أطلق على الخلفاء وكان استعماله أكثر من استعمال اللقب السابق وهو مشعر بما لوظيفة الخليفة الدينية من أهمية بخلاف لقب الأمير الذى يشعر بتقديم الوظائف الدنيوية على غيرها .

وقد ورد لفظ إمام في القرآن الكريم مفردا وجمعا قال سبحانه « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما »[٢] .

= — مات فى قصره بالعقيق و (على عشرة أميال من المدينة) ودفن بالبقيع .

بن سعد الطبقات الكبرى ج ٦ - ص ٦ .

(١) المقدمة ص ١٨٩

النظم الإسلامية حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن ص ٤

النظم الإسلامية حسين الحاج حسن ص ١٥٦

(٢) البقرة الآية ١٢٤.

وقال عز وجل (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)[1] .

كما وردت بصيغة للفرد لكنها تفيد الجمع قال سبحانه (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)[2] .

وإذا كان لقب خليفة وإمام يشعران بالإهتمام بالأمور الدينية المنوطة بالحاكم فى الدولة الإسلامية فإن علماء الشيعة وغيرهم دأبوا على إبراز الفروق بين لقبي خليفة وإمام فالتفتازانى « يقول إن الشيعة كانوا يذهبون إلى أن الإمامة أخص من الخلافة ومعنى ذلك أنها أكثر فالإمام عندهم لا يعنى إلا صاحب الحق الشرعي سواء أكان متوليا السلطة بالفعل أولا . أما « خليفة » فيدل أولا على صاحب السلطة الواقعة وقد يكون غير ذى حق أو يؤيد الحق مركزه الواقعى ففى هذه الحالة يتساوى مع الإمام .

ومن أجل هذا فإن الشيعة كانوا يسمون ولاة الأمر غير المعترف بهم منهم « خلفاء » لا أئمة .

وكانوا أيضا يدعون قادتهم « أئمة » مادام أمرهم غير ظاهر فإذا استولوا على الدولة أضافوا إلى النعت السابق لقبى « خليفة » وأمير المؤمنين « وذلك كما حدث لعبد الله السفاح[3] أول خليفة عباسى إذ خلف أخاه

---

(١) القصص الآية ٥ .

(٢) الفرقان آية ٧٤ .

(١) عرف السفاح لقوله فى آخر الخطبة التى ألقاها عند البيعة وفيها (أنا السفاح المبيح والثائر المبيد) .

إبراهيم[1] الإمام ، وكما حدث لعبيد الله المهدى أيضا أول خلفاء الدولة الفاطمية حين قال بالأمر خلفا لمن سبقه من أئمة الشيعة الاسماعيلية »[2].

وعلى أية حال فإن الجالس على أريكه الحكم فى الدولة الإسلامية لابد له من شروط تتوفر فيه تحدث عنها العديد من علماء النظم .

شروط الخلافة :

لما كان منصب الخليفة أرفع المناصب فى الدولة الإسلامية فإن علماء النظم فى مختلف الأزمنة ذكروا شروطا فى المتولى له منها ما هو خلقى ومنها

وكان يدعى بابن العربيه لكون أمة عربية الأصل .

ابن الأثير (الكامل) جـ٥ / ص ٥٧ ،

(١) بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى القرشى.

زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها .

كان يسكن الحميمة ، وكانت منازل بنى العباس بها .

أوصى له أبوه بالإمامة ، فكان شيعتهم يختلفون إليه ويكاتبونه من خراسان وغيرها وتأتيه رسائلهم .

ظهر أمر إبراهيم وعلم به مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى الشام . فقبض عليه وزجه فى السجن ، ثم قتله فكانت البيعة سرا لأخيه عبد الله أبى العباس السفاح بعهد منه .

كان إبراهيم فصيح اللسان ، راجع العقل ؛ يروى الحديث والأدب .

المسعودى — مروج الذهب جـ٢ / ص ٢٠٣ .

(٢) النظريات السياسية الإسلامية ص ١١٩ د . محمد ضياء الدين الريس الطبعة السابقة .

بما هو خلقي وقد أجملها ابن خلدون فقال «أما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والكفاية والعدالة وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي.

فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذا لأحكام الله تعالى إذا كان عالما بها. وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهدا. لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.

وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه. ولا خلاف في إنتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها، وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف.

وأما الكفاية فهو أن يكون جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها، كفيلا بحمل الناس، عارفا بالعصبية، وأحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصم والخرس وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه. وإن كان إنما يشين في المنظر فقط كفقد إحدى هذه الأعضاء فشرط السلام منه شرط كمال»[1].

وأما شرط النسب القرشي فإن العلماء قد اختلفوا فيه بين مثبت له

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣.

ومنكر فالمثبتون له أعتمدوا على قول النبي ﷺ « الأئمة من قريش وما قاله المهاجرون في السقيفة للأنصار من أنه لو كان الأمر في غير قريش ما أوصانا رسول الله ﷺ بكم[1] فنزول الانصار على هذا يدل على ضرورة أشتراط النسب القرشي في الخليفة .

وأما الذين قالوا بعدم أشتراط هذا الشرط فانهم أستدلوا بقول النبي محمد ﷺ « أسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشي ذو ذبيبة » وواضح من هذا أن شرط القرشية غير موجود في الذي يلي الأمر .

وأستدلوا أيضا بقول عمر بن الخطاب « لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته أو لما دخلتني فيه الظنه »[2] .

ومن أشهر الفرق التي أنكرت هذا الشرط فرقة الخوارج الذين نادوا بجعل الخلافة حق لجميع أبناء المسلمين سواء كانوا عربا أم عجما عبيدا أم أحرارا الأمر الذي أدى إلى التفاف الكثيرين من العبيد والأعاجم حولهم وشهروا السلاح في وجه الدولة الاسلامية وكلفوها كثيرا من الأموال والرجال[3] .

أما فرقة الشيعة فانها وافقت الجمهرة القائلة بأشتراط النسب القرشي على أن يكون المتولى عليا بن أبي طالب ثم أبناءه وأحفاده من فاطمة وقد أقاموا مذهبهم هذا على أدلة كثيرة أولوها وأخرجوها عن حقيقتها وأوهموا الناس بصحة تفسيراتهم لها ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه الأدلة كلها بيد أننا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٤

(٢) مقدمه ابن خلدون ص ١٩٤

(٣) مروج الذهب ٢ ــ ص ١١٠ ، ١١١

نشير إلى أبرزها لنرى أن هذه التأويلات امن لوهن بدرجة تجعلها لا تقوى على مناقشتها .

ومن هذه الادلة قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[1] فروى مسلم والترمذى رضوان الله عليهما أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن على عليه السلام فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء على فأدخله ثم قال « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[2] .

ونحن نرى أن هذا الدليل لا ينص من قريب أو بعيد على أحقية على وأبنائه فى الخلافة دون غيرهم من سائر المسلمين لأن الآية تفيد والله أعلم أن أهل البيت قد من الله عليهم بإذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من كل دنس حتى يظهروا أمام الناس فى درجة من الكمال لانتمائهم إلى النبى محمد ﷺ

والذى تسكن النفس إليه هو ما قاله ابن خلدون فى شأن اشتراط النسب القرشى وخلاصته أن الرسول ﷺ حين قال الأئمة من قريش لم يكن يعنى شرط النسب لعينه وإنما أراد أن يكون الخليفة قوى الشكيمة يصعب النيل منه لعصبيته فى قومه كى تستقيم أمور الأمة .

« ويرتفع الخلاف والفرقة بوجود العصبية لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلوجعل

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣

(٢) الترمذى ج ٤ ــ ٤ ص ٣٠٤

الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة . والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم فإذا أثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب علمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهى وجود العصبية فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية » [١] .

وقد كانت هناك هيئة يوكل إليها معرفة مدى انطباق الشروط المذكورة على المرشح لتولى هذا المنصب الرفيع تعرف اصطلاحا بأهل الحل والعقد وهؤلاء وضع لهم « الماوردى » شروطا ثلاثة حتى تركن الأمة إلى رأيهم وهى :

أولا : العدالة الجامعة لشروطها .

ثانيا : العلم الذى يتوصل به إلى معرفة مستحق الامامة على الشروط المعتبرة فيها .

ثالثا : الرأى والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للأمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوى وأعرف [٢] .

فاذا ما وجدوا شخصا استوفى الشروط عرضوه على الرعية حتى يبايعوه شخصيا إن كانوا من سكان حاضرة الدولة أو بايعوا أوليائه من قاطنى الاقاليم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٥ ، ١٩٦ دار القلم بيروت لبنان

(٢) الاحكام السلطانية ص ٤ .

النائية عن العاصمة وقد بين لنا ابن خلدون حقيقة البيعة وكيفيتها وما آلت إليه بعد عصر الراشدين فقال «كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الإيمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفتى مالك[1] رضى الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها على الولاة عليه ورأوها قادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الادب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيها حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة أيدي الناس »[2].

وقد عقب جورجي زيدان على ما أسلفناه من شروط الخلافة والبيعة

---

(١) بن مالك بن أبي عامر : ينتمي نسبه إلى ذى أصبح من اليمن . قدم أحد أجداده إلى المدينة وسكنها ، وجده أبو عامر من أصحاب رسول الله ﷺ شهد معه المغازي كلها خلا بدرا .

أحد الأئمة الاربعة عند أهل السنة واليه تنسب المالكية . أخذ العلم عن نافع مولى ابن عمر وأخذه عن ابن شهاب الزهري ، وأما شيخه في الفقه فهو ربيعة ابن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي .

أقام مالك بالمدينة ولم يرحل منها إلى بلد آخر ، وقد وجه اليه الرشيد ليأتيه فيحدثه ، فقال : العلم يؤتى .

الزركلي — الاعلام ج ٦ / ص ١٢٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩

فقال « طريقة الخلفاء الراشدين فى انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المجتهدين حتى الآن وهى جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى. أما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين .

وهى شورية : لأن الانتخاب يكون بالشورى .

وهى مطلقة : لأن الخليفة إذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف - فى حدود الشرع طبعا - فلما أضافت إلى ذلك شروطها الأربعة التى ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الإطلاق لأن الحاكم المطلق إذا كان عادلا مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه هذا إلى جانب ما فى طريقتهم هذه من أدلة التقوى والزهد فى الدنيا »(١) .

ومهما يكن من أمر فإن بيعة الخليفة إثر وفاة من يخلفه أو استقالته من الأمور الواجبة على الرعية وعلى حد قول السواد الأعظم من علماء النظم بخلاف عدد قليل من علماء الشيعة وغيرهم حيث قالوا بأن تنصيب الامام من قبيل الجواز لا الوجوب ولكل فريق منها أدلة أقام عليها مذهبه نعرض لها فيما يلى :

القائلون بوجوب تنصيب الإمام :

ذهب أهل السنة ومن دار فى فلكهم إلى أن تنصيب الامام من الأمور الواجبة على الأمة عندما يكون للمنصب شاغرا واستدلوا على ذلك بما فعله صحابة رسول الله ﷺ فور وفاته من التشاور فى السقيفة حول من يخلف رسول الله ﷺ فى الأمة ففعلهم هذا ولما يمضى على وفاة النبى إلا قليلا من الوقت

(١) عبد المتعال محمد الجبرى « نظام الحكم فى الاسلام » ص ٤٢ ، ٤٤٣

يدل بلا ريب على أن تنصيب الامام من الأمور الواجبة وجوبا شرعيا وعقليا حيث أن فعل الصحابة يعد مصدرا من مصادر التشريع ناهيك عن كون العقل لا يستسيغ أن يترك الناس فوضى دون مرجع يرجعون اليه كلما شجر بينهم خلاف .

يضاف إلى هذا كله أن حراسة الدين والذب عن الوطن لحمايته من الأعداء لا يتحقق إلا بوجوب من يرتب الجيوش ويسهر على القيام بحاجتها وهذا لا يكون إلا بإمام أجمعت الأمة على بيعته [١] .

القائلون بجواز تنصيب الامام :

ذهب عدد قليل من العلماء إلى أن الأمة حرة فى تنصيب الامام من عدمه حيث أنه من قبيل الأمور الجائزة فذكر الشهرستانى أن النجدات من الخوارج وجماعة من القدرية قال (أن الأمامة غير واجبه فى الشرع وجوبا لو امتنعت الأمة عن ذلك أستحقوا اللوم والعقاب بل هى مبنية على معاملات الناس فان تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى وأشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكاليفه أستغنوا عن الامام ومتابعته) [٢] .

ووافقهم على ذلك من العلماء ابو بكر الاصم وهشام القوطى وحجتهما فى ذلك أن كل واحد من أفراد الرعية لو حرص على أداء ما عليه من واجبات وأخذ ما له من حقوق دون تعد أو معصية عاش الجميع فى أمن ومن ثم لا يحتاج إلى امام .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩١
دكتور ضياء الدين الريس النظريات السياسية الاسلامية ١٣٢ : ١٣٤

(٢) نهاية الاقدام : ص ٤٨١

ونحن إذا أمعنا النظر فى دليل الفريقين وجدنا أن رأى الفريق الأول راجح والثانى مرجوح لأن الشرع يؤيد وجوب الإمامة قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ». [1] فقد تضمنت الآية أمراً بالطاعة لأولى الأمر مما يدلنا على أن تنصيب الامام واجب. ليس هذا فحسب بل إن الناس ليسوا على مستوى واحد فى احترام القانون لذا فإنه لابد من حاكم يحفظ للقانون هيبته بين الرعية وإلا ضاع الدين فى ظل تزيين الملحدين الفساد للعامة. والمحافظة على الدين أمر واجب وبالتالى فالوسيلة التى تعين على المحافظة واجبة وهى تنصيب الإمام.

والذى تجدر الاشارة إليه هنا أن نظام الخلافة ليس نظاما تقليديا جاء به المسلمين من أنظمة الحكم فى الامم المجاورة لهم إنما هو نظام أوجدته طبيعة الاسلام، وحتى تنبلج أمامنا هذه الحقيقة لابد من ابراز الفروق بين نظام الخلافة وأشهر نظم الحكم فى الأمم المجاورة.

الفرق بين نظام الخلافة ونظم الحكم عند غير المسلمين : —

ذكر كثيراً من علماء النظم فروقا بين نظام الخلافة الاسلامية والبابوية عند النصارى فقالوا إن الخليفة فى الاسلام قد جمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية بخلاف البابا فإنه قد غدا صاحب السلطة الروحية العليا فى الديانة المسيحية. هذه واحدة وأما الثانية فهى أن الخليفة فى الاسلام لم يدع لنفسه حق الوساطة بين الله والخلق ولا يملك غفران الذنوب لأى من أفراد شعبه بينما نجد البابا يتمتع بهذا كله وأخرى لاسبيل إلى اغفالها وهى أن الخليفة رجل عادى له ما لغيره من الحقوق والواجبات قبل أن يتولى المنصب بخلاف البابا

(١) سورة الانفال : آية .

فأنه يعد قسيسا أعظم فى الكنيسة المسيحية [1] .

أما الفرق بين الخلافة والنظامين الكسروى والقيصرى فيتلخص فى أن النظامين المذكورين قاما على أساس ليس للعامة فيه أختيار ولو شكلى وأن علاقة الرعية بهما كانت علاقة بغض وقد شاع ذلك بين العامة والخاصة فى الاقاليم المجاورة للدولتين ومن ثم فان أى قائد من قواد المسلمين كان يبدو عليه أى مظهر من مظاهر القيصرية أو الكسروية يقابل بأنكار شديد . وآية ذلك أن رسول الله ﷺ قال لرجل أرتعد فى حضرته « هون عليك . . . فما أنا . . . بملك . . . ولا جبار [2] . وهو الذى أراده عمر حين أستنكر ما رآه من معاوية وقد قدم عليه فى ابهة الملك وزيه من العديد والعدة : فقال له غاضبا : « أ كسروية يا معاوية » [3] .

والخلاصة أن الاسلام أراد أن يكون الخليفة على درجة كبيرة من التواضع تجعله محببا للرعية وأنه يجب عليه أن ينأى بنفسه عن ظلم أحد منهم أعتمادا على المنصب الذى يتولاه .

وبعد فكانت تلك اللمعة موجزة عن الأسس التى قام عليها نظام الخلافة فى الاسلام ويحسن بنا بعد هـذا أن نتحدث عن الظروف والملابسات التى صاحبت بيعة للخليفة الأول وهذا ما نتناوله إن شاء الله فى الفصل الثانى .

---

(١) د . حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن « النظام الاسلامية » ص ٢ ، ٣

د عبد المتعال محمد الجبرى « نظام الحكم فى الاسلام » ص ٣٦ ، ٣٧

(٢) د . محمد ضياء الدين الريس « النظريات السياسية الاسلامية ص ١١٥

(٣) ابن خلدون . المقدمة ص ١٦٩

الفصل الثانى

خلافة الصديق

أولا : الظروف التى واكبت اعتلائه أريكه الحكم :

ظل رسول الله ﷺ حريصا على الصلاة بالمسلمين فى الفرائض كلها . بمسجده بالمدينة المنورة هذا إذا كان مقيما فيها .

أما إن كان على سفر للجهاد أو غيره فإنه كان يصلى بمن معه وينيب عنه فى المدينة من يصلى بالناس فيها ، ومن ثم وقر فى فؤاد المسلمين أن الصلاة بالناس هى من اختصاصات الرسول او من ينيبه عنه فى الصلاة بهم .

ولما مرض صلوات الله وسلامه عليه مرض الوفاة كان أول شىء فكر فيه وأولاه عظيم عنايته هو أمر الصلاة بالناس فوقع اختياره صلوات الله وسلامه عليه على أبى بكر الصديق ليصلى بالناس .

فتروى عائشة أنه لما أذن بلال الصلاة قال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فقالت عائشة : أنه رجل رقيق وأنه متى يقوم مقامك لا يطيق ذلك فقال : مروا أبا بكر فيصلى بالناس ، فقلت مثل ذلك ، فغضب ، وقال : أنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر يصلى بالناس فتقدم أبو بكر فلما دخل فى الصلاة وجد رسول الله ﷺ خفة فخرج بين رجلين فلما دنا من أبى بكر تأخر أبو بكر فأشار أن قم مقامك ، وقعد رسول الله ﷺ يصلى إلى جنب أبى بكر جالسا ، فكان أبو بكر يصلى بصلاة النبى والناس يصلون بصلاة أبى بكر »[1] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ ٢ ص ٣٢٢ .

من هذا نرى أن الرسول ﷺ على الرغم من مرضه الشديد وأمره الصديق الصلاة بالناس، خرج فصلى معهم جالسا .

الأمر الذى يؤكد لنا بلا ريب مدى عناية النبي محمد ﷺ بهذا الأمر .

ومما يؤكد هذا أيضا أنه صلوات الله وسلامه عليه لما منعه المرض أياما من رؤيا المسلمين وهم يصلون وحين وجد فى نفسه قوة تمكنه من إلقاء نظرة عليهم وهم فى صلاتهم خلف الصديق خرج عليهم فى يوم وفاته فكاد المسلمون حين رأوه يختل نظامهم فى الصلاة فيروى أنس «أن أبا بكر كان يصلى لهم فى وجع النبي ﷺ الذى توفى فيه إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر وتوفى من يومه ﷺ»[1] .

وقد ظل الصديق يصلى بالناس فى مرض رسول الله ﷺ سبع عشرة صلاة على قول وثلاثة أيام على قول آخر[2] .

كان المسلمون أثناء تلك المدة يتوافدون على بيت النبي ﷺ لعيادته وهو فى مرضه الذى ابتداه فى أواخر صفر فى بيت زينب[3] بنت جحش وكان

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية المجلد الخامس ص ٢٣٥ .

(٢) ابن رئاب الأسدية .

(٣) تزوجها زيد بن حارثة وكان اسمها (برة) وطلقها فتزوجها النبي ﷺ وسماها (زينب) أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هشام أم المؤمنين وإحدى=

يدور على نسائه حتى أشتد عليه في بيت ميمونة[١] فجمع نسائه فاستأذنهن أن يتمرض في بيت عائشة[٢] وروى البيهقي عن سليمان بن طرخان التيمي قال: أن رسول الله ﷺ مرض لإثنتين وعشرين ليله من صفر وبدأ وجعه عند وليدة له يقال لها ريحانه[٣] كانت من سبي اليهود وكان أول مرض فيه يوم السبت[٤] وقد حفظت لنا المصادر القديمة في التاريخ الاسلامي ما كان يدور من أحاديث بين النبي وصحبه أثناء مدة مرضه مما يعيننا على تصور مدى قوة المرض الذي ألم به صلوات الله وسلامه عليه .

فيروى الإمام أحمد بسنده إلى عبدالله بن مسعود قال : دخلت على

= شهيرات النساء في صدر الاسلام كانت من أجل النساء وبسببها نزلت آية الحجاب

ابن عبد البر - الاستيعاب جـ ٤ / ص ١٨٤٩ .

(١) بنت الحارس بن حزن الهلالية . هي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب . كان اسمها (برة) فسماها النبي ﷺ ميمونة تزوجها النبي ﷺ وكانت قبله عند حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس . وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وفيها نزلت آية (وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي) .

النويري - نهاية الارب جـ ١٨ / ص ٩٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٣ / ص ٣١٧

(٣) بنت زيد عمرو بن خناقة ، من بني النضير ، سبيت وأسلمت سنة ٦ للهجرة فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها ، وكان معجبا بأدبها وبيانها ، وكانت لا تسأله حاجة إلا قضاها ولم تزل عنده حتى ماتت وهو عائد من حجة الوداع ، توفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع .

ابن حجر - الاصابة جـ ٤ / ص ٣٠٢ .

(٤) ابن كثير ، بداية ونهاية ، جـ ٤ / ص ٢٥٥ .

النبي ﷺ وهو يوعك فمسسته فقلت يارسول الله أنك لتوعك وعكا شديدا قال أجل أني أوعك كما يوعك الرجلان منكم قلت : أن ذلك آجرين قال : نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى مرض فى سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها» ويروى عن أبي سعيد الخدرى أنه وضع يده على النبي ﷺ فقال والله ما أطيق أن أضع يدى عليك من شدة حماك فقال النبي ﷺ « إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر إن كان النبي من الأنبياء ليبتلي بالقمل حتى يقتله وإن كان الرجل ليبتلى بالعرى حتى يأخذ العباءة فيجوبها وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء »(١) .

وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :

أجمعت المصادر القديمة للتاريخ الاسلامى أن روح النبي ﷺ قد فاضت إلى ربها وهو فى بيت عائشة رضوان الله عليها . التى تروي أن رسول الله مات وهو بين حاقنتيها وذاقنتها وقالت لا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي ﷺ »(٢) .

غير أن هذه المصادر اختلفت فيما بينهما فى اليوم الذى توفى فيه صلوات الله وسلامه عليه فيروى الطبرى عن فقهاء الحجاز أنهم قالوا : قبض رسول الله ﷺ نصف النهار يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة بينما يذكر الواقدى أن النبي قد لحق بالرفيق الأعلى فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ووافقه على هذا السواد

---

(١) ابن كثير « بداية ونهاية » حـ ٤ / ص ٢٣٧ .
(٢) ابن كثير « بداية ونهاية » حـ ٥ / ص ٢٣٧ .

الأعظم : من رواة التاريخ في المصادر القديمة[1] .

وتطالعنا روايات أخرى تجعل الوفاة في شهر ربيع الأول دون ذكر يوم معين لحدوثها فقد روى « أبو جعفر عن ابن عمر أن النبي ﷺ استعمل أبا بكر على الحج سنة تسع فأراهم مناسكهم فلما كان العام المقبل حج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر وصدر إلى المدينة وقبض في ربيع الأول »[2] .

ومهما يكن من أمر فإن الذي تسكن إليه النفس هو جعل الثاني عشر من ربيع الأول يوما لوفاة الرسول ﷺ والذي يدعم ما ذهبنا إليه ما جزم به ابن كثير بأن آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ كانت صلاة صبح الاثنين والثاني عشر من ربيع الأول وأن ذلك كان في بيته بعيدا عن الجماعة كما أسلفنا[3] .

وأما ما رواه فقهاء الحجاز عن تاريخ وفاة النبي ﷺ فهو مردود بروايات الصحابة المقيمين بالمدينة إلى جوار النبي ﷺ ولئن قال قائل أن أحد الصحابة بالمدينة قد روى أن النبي توفي ربيع الأول دون تحديد يوم فكيف يتوافق ذلك مع ما قررناه بالنسبة للقرب من النبي محمد ﷺ . قلنا له لعل هذا الصحابي كان بعيدا عن المدينة وقتذاك أو لأنه شغل عن تدوين تاريخ الوفاة حين حدوثها لعظم المصيبة التي حلت بالمسلمين وقد جعله هذا يذكر ما هو متأكد منه ونعني به كون الوفاة قد وقعت في ربيع الأول تاركا ما فيه شك وهو

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٣ / ص ٢٠٠ .
(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ / ص ٢١٧ .
(٣) ابن كثير ، بداية ونهاية ، ج ٥ / ص ٢٣٤ .

تحديد اليوم حتى لا يقع فى المحظور وهو الاخبار عن أمر غير مستيقن منه .

وسواء أصح هذا أو لم يصح فإن الذى لا مراء فيه أن وفاة الرسول قد كانت على المسلمين بمثابة صاعقة نزلت عليهم دون توقع لها . ذلك أن مرض رسول الله ﷺ وأن استغرق أياما لم يكن كفيلا بجعل الكثيرين منهم يتأكد بأنه سينتهى بوفاته صلوات الله عليه وسلامه والذى يدل على ذلك ما كان من عمر بن الخطاب حين علم أن النبى محمدا قد لحق بالرفيق الأعلى .

فقد روى ابن حميد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال « لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى وأن رسول الله والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات قال وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ورسول مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال على رسلك يا عمر فأنصت فأبى إلا يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا

فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية بسم الله الرحمن الرحيم « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين »[١] .

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ قال : وأخذها الناس عن أبى بكر فإنما هى فى أفواههم »[٢] .

ومن المؤرخين القدامى من يبرر موقف عمر بن الخطاب من وفاة النبى محمد ﷺ نقلا عن عمر نفسه فيقول إنه ظن أن رسول الله ﷺ سيبقى فى أمته حتى يشهد عليها آخر أعمالها وأن الذى دفعه لهذا التفكير تعلق قوله تعالى فى ذهنه بسم الله الرحمن الرحيم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »[٣] .

وإذا كانت تلك بعض أصداء وفاة النبى محمد ﷺ بالمدينة فإن مكة حين وصلتها أنباء وفاته ﷺ بادر عاملها من قبل النبى محمد ﷺ .

---

(١) قران كريمة سورة آل عمران اية رقم ١٤٤ .

(١) الطبرى . تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ص ٣٢٣ . ٣٢٤ .

الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ٢ ص ٢ .

(٢) قران كريم سورة البقرة اية رقم (١٤٣) ، ابن هشام سيرة النبى جـ٤ / ص ٤٥٨ .

عتاب بن أسيد[1] بن أبي العاص بن أمية إلى الاحتجاب عن أعين الناس فلم يعرف له مكان وارتجت مكه وكاد أهلها يرتدون ، فقام سهيل ابن عمرو[2] على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال « يأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ ، فلقد رأيته قائما مقامي هذا وحده وهو يقول : قولوا معي لا إله إلا الله تدن لكم العرب وتؤد إليكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله فمن بين مستهزيء ومصدق فكان ما رأيتم والله ليكونن الباقى فامتنع الناس من الردة[3] .

---

(١) ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الرحمن .

أسلم يوم فتح مكة واستعمله النبي ﷺ عليها حين خروجه إلى حنين وأقره أبو بكر إلى أن مات يوم أبو بكر .

من المؤرخين من ذكر أنه عاش واليا على مكة إلى أواخر أيام عمر بن الخطاب ، فتكون وفاته فى أوائل سنة ٢٣ هـ ٦٤٢ م ابن قتيبة (والمعارف) ص ٢٨٣ .

الطبرى تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٤١٨ .

ابن حجر « الاصابة » ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٢) ابن عبد شمس القرشى العامرى .

خطيب قريش وأحد سادتها فى الجاهلية .

أسره المسلمون يوم بدر وأفتدى نفسه وأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكة فأسلم وسكن المدينة هو الذى تولى أمر الصلح فى الحديبية ممثلا لقريش مات بالطاعون فى الشام .

ابن عبد البر الاستيعاب ج ٢ ص ٦٦٨ .

(٣) ابن الأثير « الكامل » ج ٢ ص ٣٢٤ .

وقد امتثل المسلمون لوصية النبي محمد ﷺ في تغسيله والصلاة عليه .

فقد روى ابن الأثير عن الفضل ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج إلى المسجد وهو في بداية مرضه وألقى في صحابته خطبة ذكرهم فيها بالأجل وطالبهم بالإنتصاف منه إن كان لأحدهم حقوق لديه وأن ذلك لا يغضبه وإنما يسره ثم قال « إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ما عنده » ففهم بعض الصحابة أن الرسول قد دنا فطفق هذا البعض يسأله عدة أسئلة وهو يجيب عليها فما قالوا : متى أجلك ؟ قال : دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى فقلنا : من يغسلك ؟ قال : أهلي قلنا : فيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي أو في بياض قلنا : فمن يصلي عليك ؟ قال : مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا فبكينا وبكي ثم قال : ضعوني على سريري على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة ليصلي علي جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا علي فوجا فوجا فصلوا علي ولا تؤذوني بتزكية ولا رنة اقرئوا أنفسكم مني السلام ومن غاب من أصحابي فاقرئوه مني السلام ومن تابعكم على ديني فاقرئوه السلام[1] .

فلما توفي صلوات الله وسلامه عليه قام بتغسيله علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب[2] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٢) ابن هشام بن عبد مناف أبو الفضل من أكابر قريش في الجاهلية الاسلام كانت له عمارة الكعبة والسقاية في الجاهلية .
جد الخلفاء العباسيين .

والفضل [١] بن العباس وقثم [٢] بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ فأسند علي بن أبي طالب الرسول إلى صدره وكان العباس والفضل وقثم هم الذين يقلبونه معه وكان أسامة بن زيد وشقران مولياه هما اللذان يصبان الماء [٣] .

ولما فرغت الجماعة التي غسلت الرسول ﷺ وضعوه على سريره ووقع بين المسلمين خلاف حول المكان الذي يدفن فيه صلوات الله وسلامه عليه فمن قائل يدفنه في مسجده وآخر يقول يدفن مع أصحابه فبينما هم كذلك

= أسلم قبل الهجرة وحسن إسلامه وأقام بمكة يكتب لرسول الله ﷺ أخبار المشركين .

شهد وقعة حنين وكان ممن ثبت حين انهزم الناس توفي بالمدينة .

الزركلي ، الأعلام ، ج ٤ ص ٣٥ .

(١) ابن عبد المطلب الهاشمي القرشي أبو محمد كان أسن أولاد العباس ، وكان من الصحابة الشجعان ووجوههم .

خرج بعد وفاة الرسول ﷺ مجاهدا إلى الشام فاستشهد في وقعة أجنادين وقيل مات في طاعون عمواس .

ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٣٧ - ابن حجر الاصابة ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عبد المطلب الهاشمي .

أدرك صدر الاسلام في طفولته ومر به النبي ﷺ وهو يلعب فحمله .

استشهد في معركة سمرقند ودفن فيها ، وكان في جيش سعيد بن عثمان .

كان يشبه رسول الله ﷺ وليس له عقب

ابن قتيبة (المعارف) ص ١٢٢ .

الزركلي ، الأعلام ، ج ٦ ص ٢٩ .

(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢١٢

إذا بالصديق يبادر إلى حسم الأمر فيقول سمعت رسول الله ﷺ قال « ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض » (ومن ثم استقر رأى الجميع على دفنه ببيت عائشة رضوان الله عليها وسمح المسلمين بإلقاء نظرة وداع على النبي محمد ﷺ قبل أن يوارى قبره فدخل الناس أرسالا يصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ الرجال أدخلت النساء ثم الصبية فالعبيد ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد)[1].

وأما عن وقت نزوله إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه فإن الرواة اختلفوا فيما بينهم حول اليوم الذي قبر فيه صلوات الله عليه وسلامه.

فيروى الواقدى « أن النبي محمد ﷺ دفن في الغد من وفاته حين زاغت شمس الثلاثاء ».

بينما تذكر عائشة رضوان الله عليها رواية غير هذه فتقول « ما علمنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى في جوف ليلة الأربعاء ».

ثم رواية ثالثة تلمح فيها أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يدفن إلا بعد ثلاثة أيام فقد روى ابن حميد قال (لما قبض النبي ﷺ كان أبو بكر غائبا فجاء ثلاث ولم يجترئ أحد أن يكشف عن وجهه وقبل بين عينيه ثم قال بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا)[2]

والذي يمعن النظر في هذه الروايات يجد أن رواية الواقدى أكثر الروايات

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ٢٧ .

قبولا ذلك أنها تتوافق مع الإجماع الذى كاد ينعقد على أن الانصار اجتمعوا بسقيفتهم عقب الوفاة يوم الاثنين وأن الصديق قد بويع البيعة العامة فى اليوم التالى لاجتماعهم وأن الجميع توجهوا عقب ذلك إلى إتمام تجهيز النبى ﷺ ودفنه فالمعقول إذن أن يكون وقت غروب شمس الثلاثاء هو الوقت الذى وضع فيه الجسد الشريف فى قبره .

وأما رواية ابن حميد فإنها أضعف الروايات التى أسلفناها فى هذا الصدد حيث إن العقل لا يستسيغ كون الصديق قد غاب عن المدينة فى هذا الوقت العصيب أياما ثلاثة وهو يعلم أن النبى محمدا فى مرض شديد لما بينهما من حب عظيم .

يضاف إلى هذا كله أن الرسول ﷺ قد عهد إلى أبى بكر الصديق بأمر الصلاة كما أومأنا إلى ذلك فكيف يتأتى له القيام بهذا مع غيابه ناهيك عن كون المصادر القديمة لتاريخ الإسلامى قد أجمعت على أن الصديق وعمر وأبا عبيدة قد ذهبوا إلى سقيفة بنى ساعدة فى اليوم الذى توفى فيه النبى محمد ﷺ ومن ثم فإننا نجزم بطرح هذه الرواية وعدم الأخذ بما فيها بالنسبة لتحديد وقت الدفن .

وعلى أية حال فإن الذى تجدر الإشارة إليه أن رسول الله ﷺ لم يدفن ألا وقد ولى المسلمون الصديق عليهم خليفة بعد رسول الله ﷺ .

بيعة الصديق :

لما علم الأنصار أن رسول الله ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى تنادوا وبادروا

إلى عقد إجتماع لهم فى سقيفة بنى ساعدة [١] لنتشاور فى اختيار أحد منهم يخلف رسول الله ﷺ فى المسلمين ويقوم على حراسة الدين والدنيا .

وقد تباينت الروايات المنقولة فى المصادر القديمة للتاريخ الاسلامى فيما بينها حول ما دار فى السقيفة فمنها من تجاهل وجود نزاع عنيف بين الأنصار الذين ولوا سعدا وبين المهاجرين الذين نازعوهم هذا الأمر ومنها من أسهب فى إيراد تفاصيل نزاع طويل دار بين طائفتى المهاجرين والأنصار حتى أن من يقرأ هذه الروايات يتخيلها معركة كلامية حامية تكاد تصل إلى تحكيم الحسام بين الفريقين لحسم هذا النزاع .

وحتى نكون على بينة من أمرنا ونحن نحكم على صحة هذه الروايات أو تلك يجدر بنا ذكر بعض الروايات التى تمثل الاتجاهين المذكورين .

---

(١) سقيفة بنى ساعدة أشهر السقائف ذكرا فى التاريخ الاسلامى وهى سقيفة كانت بالمدينة عندما هاجر إليها الرسول وكان عليه السلام يستظل بها فى بعض الأحيان وقد جاء فى كتاب «التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة» ما ذكره ابن زبالة أنه ﷺ صلى فى مسجد بنى ساعدة من الخزرج وحط سعد ابن عبادة رجلس فى السقيفة وتنسب السقيفة إلى ساعدة بن كعب الخزرجى وهو جد جاهلى من سلالته الصحابى سعد بن عبادة وليس لهذه السقيفة وجود بالمدينة فى هذا الوقت الحاضر ولكن الباحثين فى تاريخ المدينة اتفق أكثرهم على أنها كانت تقع فى خارج سور المدينة بالقرب من بئر قضاعة أى أن مكانها اليوم عند الباب الشامى من أبواب المدينة بالقرب مع ملتقى الطريق الذاهب إلى الشام بالطريق إلى جبل أحد .

، أحمد عطية الله ، القاموس الاسلامى ج ٣ ص ٣٩٣ .

محمد عبد الحليم العدوى ، الخلافة والخلفاء ص ٥٤ .

(أ) الروايات التي تنفي وجود النزاع الشديد :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال « لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير فأتاهم عمر فقال : يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر » .

وذكر ابن عباس عن عمر أنه قال (قلت يامعشر المسلمين أن أولى الناس بأمر نبي الله ثاني اثنين اذ هما في الغار وأبو بكر السباق المسن ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ثم ضربت على يده وتتابع الناس) .

ورواية ثالثة رواها أبو سعيد الخدري وفيها أنه (لما قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر قال فقام خطيب الأنصار فقال . أتعلمون رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين ونحن كنا أنصار رسول الله ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره قال فقام عمر بن الخطاب فقال : صدق قائلكم أما لو قلتم على غير هذا لم نبايعكم وأخذ بيد أبي بكر وقال : هذا صاحبكم فبايعوه فبايعه عمر وبايعه المهاجرون والأنصار)[1] .

(ب) الروايات التي ذكرت وجود نزاع :

تطالعنا أكثر من رواية مطولة تتحدث عن وجود نزاع بين المهاجرين

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ ٥ ص ٢٤٦ : ٢٤٧ : ٢٤٩ .
السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٨ .

والأنصار وباستقرائنا لها جميعا وجدنا أنه لا يوجد بينها كبير خلاف ومن ثم فإننا نضرب ذكرا عن الكثير منها مع الإكتفاء بذكر واحدة أخرى من خلالها تصوير الخلاف الذى كان بين الطائفتين .

روى أبو عمرو الانصارى أن الانصار اجتمعوا فى السقيفة وولوا عليهم سعد بن عبادة الذى خطب فيهم وقال بعد أن حمد الله « يامعشر الانصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب . إن محمدا ﷺ لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على اعزاز دينه ولا على دفع ضيم ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد للقيادة صاغرا فدانت لرسوله بأسيافكم العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدلوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم » . . . . . . فراق للأنصار الأخذ برأى سعد وقالوا إن صمم المهاجرون على جعل واحد منهم فى الحكم قال منا أمير ومنهم أمير فلما ترامت الأنباء باجتماع الأنصار إلى عمر أسرع إلى الصديق فأخذه معه وأصطحب أبا عبيدة معهما ودخلوا على الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فقام أبو بكر خطيبا فى الناس وحمد الله وقال :

« إن الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب نعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف

زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، فهم أول من عبدالله في هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلا ظالم وأنتم يامعشر الأنصار من لاينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور) .

فقام حباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولا يصدروا إلا عن رأيكم أنتم أهل العزو أولوا العدد والمنعة وذوو البأس وإنما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنكم أمير .

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن الله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته .

فقال الحباب بن المنذر : يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل في عرينه الأسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة .

فقال عمر : إذا ليقتلك الله فقال : بل إياك يقتل .

فقال أبوعبيدة : يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد[1] أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار إنا والله وإن كنا أولي فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ماأردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به الدنيا إلا أن محمدا ﷺ من قريش وقومه أولى به وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيده فإن شئتم فبايعوا فقالوا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ فى الصلاة وهى أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر عقتك عقاق أنفست على ابن عمك الإمارة فقال . لا والله ولكنى كرهت أن أنازع القوم حقهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيبا : والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب) [2]

.وقف العديد من الباحثين المحدثين موقف المحلل لما دار فى السقيفة بناءا

---

(١) ابن ثعلبة الخزرجى الأنصارى أبو النعمان شهد بيعة العقبة وشهد بدرا والمشاهد بعدها قتل وهو مع خالد بن الوليد بعين التمر .

ابن حجر ، الاصابة ، جـ ١ ص ١٦٢ .

(٢) البلاذرى (أنساب الأشراف) جـ ١ ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

على الرواية الأخيرة التي أسلفناها فعزى أحدهم هزيمة سعد بن عبادة إلى وهن إرادة الأنصار في الذب عن رأيهم في توليه سعد الخلافة . وأستدل على ذلك بقولهم أمير من المهاجرين إلى جانب آخر من الأنصار درء الباب النزاع[1] .

ونحن لا نميل إلى الأخذ بهذا التبرير حيث إن الأنصار لم يتخلوا عن سعد بسبب ضعف إرادتهم كما زعم هذا المؤرخ الكبير إنما نزلوا على قول صحيح للنبي محمد ألقاه الصديق على مسامعهم فهل كان يتصور هذا المؤرخ الكبير أن يضرب الأنصار عرض الحائط بأقوال النبي محمد ﷺ ويتمسكون بسعد ابن عبادة حتى لا يوسموا بضعف الإرادة ؟ الجواب بالتأكيد كلا فهم الذين آووا ونصروا ومات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض .

ومن المؤرخين المحدثين من قال إن انتصار الصديق على سعد مرده إلى تفكك الجبهة الداخلية لدى الأنصار في مقابل إتحاد كلمة أولئك النفر من المهاجرين الذين تمسكوا بالأسانيد التي ساقوها[2] .

ونحن لا نسلم لهذا المؤرخ بكل ما قاله فإن لنا على بعضه تحفظا ، لأن مسألة النظر في مصلحة الأمة الإسلامية واختيار من يتولى منصب خلافة رسول الله ﷺ ربأ به عن تلك المنازعات التي تعزى إلى العصبية التي هي السبب في تفكك الجبهة الداخلية الذي أشار إليه .

يؤيد ما ذهبنا إليه ما قاله بشير بن سعد حين دعا القوم إلى مبايعة الصديق .

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
(أ) السامي (الخلفاء الراشدون) ص ١٧ .
(٢) أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز في الحياة السياسية العامة) ص ١١٢ .

وقد أبى أحد المؤرخين المحدثين الأخذ بما تضمنته الرواية الأخيرة بخصوص أن الذين حضروا من المهاجرين إلى السقيفة ثلاثة دون بقيتهم فقال « إن يوم السقيفة كان جامعا لكل أهل المدينة مهاجريها وأنصارها ولا يتوهم أنه لم يكن من المهاجرين غير الثلاثة الذين خصتهم الروايات بالذكر وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فمجرى الخبر يثبت أن المهاجرين كانوا موجودين باغلبيتهم كما كان هنالك غيرهم من مهاجرة القبائل ولم يتخلف عن الحضور إلا أهل النبي لما كانوا مشغولين به من إعداده وتجهيزه ، ولولا ذلك لحضروا الإجتماع وما تخلفوا وإنما ذكر الثلاثة لأنهم الذين مثلوا جانب المهاجرين في يوم السقيفة وكانوا من أعظم الصحابة وأكفأ أولى الرأى فى المهاجرين[1] .

ونحن نرتاب فى الأخذ بما جزم به المورخ الكبير ذلك أنه اعتمد فيما ذهب إليه على رواية الزهرى دون غيرها من الروايات الكثيرة ولم يبرر لنا تبريرا واحدا يجعله يأخذ بها دون غيرها وفيها أن « عمر قال في خطبته وإن عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا وتخلفت الأنصار عنا بأسرها فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فبينما نحن فى منزل رسول الله ﷺ إذا رجل ينادي من وراء الجدار : أخرج يابن الخطاب فخرجت فقال : إن الأنصار قد اجتمعوا فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمرا يكون بيننا وبينهم فيه حرب وقال فى الحديث: وتابعه المهاجرون والأنصار فنزونا على سعد بن عبادة فقال قائل : قتلتم سعدا ، قال عمر : فقلت وأنا مغضب : قتل الله سعد فإنه صاحب فتنة وشر »[1]

(١) أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ١١٦ .

(٢) الذهبى (تاريخ الاسلام) ج ٣ ص ٦ .

ونحن نتسائل إذا كان المهاجرون والأنصار جميعا باستثناء أهل النبي محمد ﷺ قد اجتمعوا بالسقيفة ودار ما دار بينهم وانتهى الأمر ببيعة الصديق فلما كانت البيعة العامة له في اليوم التالي . مع أن جميع الروايات تكاد تجمع على أن كل من بالسقيفة أقبل على الصديق فبايعه وعلى الرغم من هذا فإننا لا نمنع وجود غير واحد من المهاجرين مع الثلاثة الذين ذهبوا إلى السقيفة إلا أن هذا العدد لم يكن يمثل نسبة ذات بال من عدد المهاجرين حتى يمكن القول ولو على سبيل التجاوز إن جميع المهاجرين حضروا .

وإن كان لنا من ترجيح رواية على أخرى من الروايات التي أسلفناها في شأن ما دار في السقيفة فإن الذي نكاد نميل إلى الأخذ به أن بيعة الصديق بالسقيفة لم تكن عقب هذه الحرب الكلامية التي تضمنتها رواية أبي عمرة الأنصاري لأن العقل لا يستسيغ قبول ما وقع بين الصحابة من كلام ينم عن التقاتل في سبيل الدنيا وإعلان شأن العصبية القبلية على غيرها من تعاليم الدين إذ كيف يقبل ما قاله الحباب بن المنذر في الإجتماع ومحاولته إثارة حفيظة الأنصار على المهاجرين اعتمادا على الكثرة العددية للأنصار . وهو الذي قام بما قام به من أعمال نبيلة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية فحسبنا في هذا الصدد التذكير بما أشار به على النبي محمد ﷺ في غزوة بدر حين طلب من النبي النزول في منزل آخر غير الذي نزل فيه رسول الله ﷺ .

يضاف إلى هذا كله أن هذه الرواية تصور لنا عمر بن الخطاب تصوير الباطش بسعد بن عبادة منافس المهاجرين على حد قول الرواية وهذا بينما لا يتصور من عمر الذي حول الإسلام غلظته التي عرف بها في الجاهلية إلى رقة وحب للمؤمنين . وسعت حتى أولئك الذين ارتدوا بذلك على هذا ما كان بينه وبين الصديق من تباين في موقفهما من المرتدين – كما سنوضحه فيما بعد – فإن الخليفة وقف موقف القوي منهم المصمم على قتالهم ، بينما كان عمر

ابن الخطاب يود مصالحتهم حتى يثوبوا إلى رشدهم فكيف نوفق بين الموقفين لكلا الرجلين مع ما بينهما من فروق شاسعة .

إذن فالمرجح الأخذ بما تضمنته رواية ابن عباس عن موقف عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه في السقيفة .

ومما يزيد من وهن رواية أبي عمرة الأنصاري أنها ألمحت إلى أن ما قام به بشير بن سعد زعيم الأوس من مبايعة الصديق في السقيفة بعد ما قال الأنصار ما قال يعزى إلى أن الأوس قد نفست على الخزرج أيلولة خلافة رسول الله إليهم فإننا لو سلمنا جدلا بهذا من قبل الأوسيين فكيف نفسر إقبال الخزرجيين على مبايعة الصديق على الرغم من أن سعد بن عبادة زعيمهم اللهم إلا أن يكون هذا عن رضى كامل من الجميع ودون هذه الحرب الكلامية المزعومة التي صورتها لنا الرواية .

ومما يدعم ما ذهبنا إليه ما ذكرته بعض الروايات عن مبايعة سعد ابن عبادة للصديق

موقف سعد بن عبادة من بيعة الصديق : ــ

إختلفت الروايات حول موقف سعد بن عبادة زعيم الخزرج من بيعة خليفة رسول الله ﷺ فرواية تقول إنه لم يبايع الخليفة وأخرى ذهبت إلى النقيض من هذا فجزمت بمبايعته لأبي بكر حرصاً منه على جمع الكلمة والتئام الصف الإسلامي .

فمن الأولى ما رواه أبو مخنف « أن الناس أقبلوا من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطئون سعد بن عبادة فقال ناس من أصحاب سعد : إتقوا سعدا لا تطئوه ، فقال عمر : إقتلوه قتله الله ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر[1] رعضك ، فأخذ سعد بلحية عمر ، فقال : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة[2] فقال أبو بكر : مهلا

(١) تزال عن موضعها ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ندر .

(٢) الاسنان التي تبدو الضحك ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة وضح .

يا عمر الرفق ها هنا أبلغ فأعرض عنه عمر وقال سعد : أما والله لو أن بي قوة ما ، أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك ، أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع . إحملوني من هذا المكان فحملوه فأدخلوه في داره وترك أياماً ثم بعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك فقال : أما والله حتى أريكم بما في كنانتي وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي فلا أفعل وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم حسابي : فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر : لا تدعه حتى يبايع فقال له بشير بن سعد : انه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم إنما هو رجل واحد فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدا لهم منه فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله .

ومن الثانية ما رواه جابر قال : « قال سعد بن عبادة يومئذ لأبي بكر : إنكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة وإنك وقومي أجبرتموني على البيعة ، فقالوا : إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة ، ولكنا أجبرنا على الجماعة فلا إقالة فيها ، لئن نزعت يداً من طاعة ، أو فرقت جماعة ، لنضربن الذي فيه عيناك »[1] .

وقد ذكر أحد المؤرخين المحدثين بعد أن عرض الروايتين المذكورتين

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

فى شأن موقف سعد أنه يرجح الأخذ بالرواية الثانية دون الأولى فقال « نحن نميل إلى الرأى الأخير نظراً لما عرف عن سعد بن عبادة من عقل راجح وخضوعه للحق وانصياعه للجماعة ومواقفه المعتدلة فى مناصرة الدعوة الإسلامية ، ثم إنه كان زعيم الخزرج وقد أعطت الخزرج البيعة لأبى بكر فأصبح مرغماً ـ ولو من الناحيـــة المعنوية ـ على إعطاء البيعة هو الآخر ليحتفظ بزعامته ـ ولو من الناحية الشكلية ـ على قبيلته ، وحتى لا يبدو فى نظر أهله ومواطنيه أنه انسلخ عنهم »[1] .

ونحن نضيف إلى ما ذهب إليه المؤرخ أن الرواية الأولى زعمت أن سعدا لم يصلى مع جماعة من المسلمين وأنه اعتزلهم فى حجم وهذا يجعل سعدا خارجا على قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » .

وقد أسلمت الأمة القيادة لخليفة رسول الله فلا يتصور من سعد بن عبادة وهو من هو فى كفاحه وجهاده فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية أن يقف موقف المفرق للجماعة مع يقيننا أنه كان دراية بالعواقب التى قد تترتب على فعله هذا . ومن ثم فإننا نوافق المؤلف فيما ذهب إليه من ترجيح الرواية الثانية على الأولى ، إلا أننا نأبى على سعد مخاطبته المهاجرين بأنهم حسدوه على الإمارة فالذى لامراء فيه أن سعداً وقبيلته بايعوا أبا بكر ، لما ثبت للجميع أن المهاجرين أحق بالخلافة بناء على الأحاديث التى قالها رسول الله ﷺ ، وبالتالى ، فإن بيعته للصديق كانت عن رضى دون إكراه من أحد .

وعلى أية حال فإن أبا بكر ما خرج من السقيفة إلا وقد بويع البيعة الخاصة التى أعقبتها فى اليوم التالى البيعة العامة .

---

(١) د / أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

البيعة العامة :

كانت البيعة العامة فى الغد من بيعة السقيفة ولنا أن نتساءل عن الأسباب التى أخرت هذه البيعة إلى اليوم التالى لاجتماع السقيفة والجواب أن هذا التأخير ربما يعزى إلى رغبة القوم إعطاء الأنفس فترة تهدأ فيها بعد أن نزلت عليها مصيبة وفاة النبى ﷺ . فتأتى فى غدها لتبايع ما يتفق عليه القوم فى السقيفة .

وسبب آخر لا سبيل إلى إغفاله وهو أن الناس الذين لم يحضروا إجتماع السقيفة لابد وأن تكون أخبار هذا الاجتماع قد وصلت إليهم .

وحتى يعطوا فرصة للحكم على ما اتفق عليه القوم فى السقيفة أخرت البيعة لليوم التالى .

ويضاف إلى هذا سبب ثالث وهو أن القوم الذين كانوا بالسقيفة هم أولى الرأى من المهاجرين والأنصار . وبناء على ما رجحناه فإنه لم يوجد بينهم طامع فى إثارة القلاقل فى وجه الخليفة المختار إذا أن الجميع ما كانوا يبحثون عن دنيا يصيبونها وإنما كان الهدف الذى يتوخاه هذا الجمع هو حراسة الملة بعد أن لحق - صلوات الله وسلامه عليه - بالرفيق الأعلى لذا فإنه لا ضير من تأخير البيعة لليوم التالى لاجتماع السقيفة .

وسواء أصح ما ذهبنا إليه أو لم يصح فإن الناس بالمدينة قد جاءوا إلى المسجد فى اليوم التالى لمبايعة الصديق ولما انعقد جمعهم ارتقى عمر بن الخطاب مراقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس

أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة »[1] ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله »[2] .

وقد عقب أحد المؤرخين المحدثين على هذه الخطبة التي ألقاها الخليفة بعد مبايعة الناس له فبين أنه يمكننا استخلاص ما يلي منها .

١ — طلب عونه إذا أحسن وتقويمه إذا ساء :

٢ — حض على الصدق ، وتحذير من الكذب .

٣ — حث على الجهاد الذي هو مناط العزة والكرامة .

٤ — أعلن تمسكه بالعدل المطلق، فلا يمنعه ضعف المظلوم أن ينتصف له من الظالم ولا تمنعه قوة الظالم أن ينصف المظلوم منه .

٥ — أعلن أنه مستعد للنزول عن الحكم إن هو خالف الكتاب والسنة إذ هما دستوره في حفظ الدين وسياسة الدنيا[3] .

وإذا كانت البيعة العامة قد تمت للصديق بالمسجد في المدينة بالإجماع

---

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٩ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٩ .

(٣) يوسف علي يوسف (الخلافة والخلفاء) ص ٢٨ .

فإن المؤرخين القدامى للتاريخ الإسلامي قد ذكروا روايات متباينة عن موقف عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ من بيعة الصديق . ولكون الشيعة وغيرهم يزعمون أن عليا أحق بالخلافة من غيره ـ لوصية أوصى بها رسول الله ﷺ ـ فانه من اللازم علينا الوقوف وقفة متأنية من هذه الروايات المتعارضة لنرى هل بايع على الصديق أم لا .

موقف عليّ من بيعة الصديق :

اختلفت الروايات فيما بينها حول ما إذا كان على بن أبي طالب قد بايع الصديق مع الناس فى البيعة العامة أو بعدها بيوم أو بستة أشهر على الأكثر. وذهب تبعا لذلك أقلام الباحثين المحدثين مذاهب شتى بين مؤيد بيعه على الصديق فى يوم البيعة العامة وبين منتصر لمبايعة على له إثر وفاة فاطمة بنت محمد ﷺ . لذا فإننا نعرض لهذه الروايات وما قاله المؤرخون القدامى والباحثون المحدثون فى شأنها حتى تكون على جلية من أمر موقف على بن أبي طالب من الصديق .

فمن الأولى ما رواه حبيب بن أبي ثابت « أن علياً كان فى بيته إذ أتى فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج فى قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلا ، كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه » [1] .

وتذكر رواية أخرى أن علياً بن أبي طالب ما جاء إلى المسجد الذى تمت

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٢٠٧ .

فيه البيعة إلا بعد أن أرسل الصديق في طلبه فيروى أبو سعيد الخدرى [١] « أنه لما صعد أبو بكر المنبر فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير قال : فدعا بالزبير [٢] فجاء فقال : قلت ابن عمة رسول الله ﷺ وحوارية أردت أن تشق عصا للمسلمين فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فقام فبايعه ، ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير عليا فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء فقال: قلت ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين قال : لا تثريب

---

(١) ابن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى .

صحابى ، كان من ملازمى النبى ﷺ وكان من الحفاظ والعلماء والعقلاء .

غزا إثنتى عشرة غزوة ، وكان مفتى المدينة ، وفيها توفى سنة ٧٤ هـ .

ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) جـ١ ص ٨١ ، الذركلى (الأعلام) جـ٣ ص ١٣٨ .

(٢) ابن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . أبو عبد الله . أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، ومن زوجاته أسماء بنت أبى بكر . صحابى من الشجعان ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، هو ابن عمة النبى ﷺ ، شاركه فى جميع غزواته . أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب قبل وفاته لاختيار خليفه منهم (الشورى) . كان موسراً كبيراً وخلف ثروة تقدر بأربعين مليون درهم . شهد وقعة الجمل فقاتل فيها ساعة فناداه على بن أبى طالب وذكره بقول الرسول ﷺ (تقاتله وأنت ظالم) فانصرف عن القتال نادما . اغتاله عمير ابن جرموز السعدى وقتله فى وادى السباع على سبع فراسخ من البصرة وجاء بسيفه إلى على فقال له . بشر قاتل ابن صفية بالنار .

ابن قتيبة « المعارف » ص ٢١٩ ، ٢٢٧ .

الذركلى (الأعلام) جـ٣ ص ٧٤ .

يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه »(١) .

ورواية ثالثة تؤكد أن عليا بايع مع الناس كافة فقد روى عن عمرو ابن حريث أنه قال لسعيد بن زيد « أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم » وسأله : هل خالف على الصديق أحد ؟ قال : لا إلا مرتد أو من كاد أن يرتد قال : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم »(٢) .

وذكر ابن واصل أن عليا ما بايع الصديق فى البيعة العامة إلا مكرها فيقول « أن أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ليخرج عليا ومن معه للبيعة وحمل عمر معه شيئا من النار ليضرم به البيت إن رفض على ومن معه الخروج فقابلته فاطمة وقالت له « أجئت لتحرق دارنا ؟ قال : نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة فخرج على حتى أتى أبا بكر فأعطاه البيعة »(٣) .

أما الروايات التى تقول إن عليا لم يبايع إلا بعد ستة أشهر فمنها ما قاله رجل للزهرى « أفلم يبايعه على ستة أشهر قال : لا ولا أحد من بنى هاشم ، حتى بايعه على . فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر فأرسل إلى أبى بكر : أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر ، فقال عمر : لا تأتهم وحدك ، قال أبو بكر ، والله لآتينهم وحدى وما عسى أن يصنعوا بى قال : فانطلق أبو بكر ، فدخل على

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ص ٢٠٧ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، جـ١ ص ١٥٦ .

علي ، وقد جمع بني هاشم عنده ، فقام علي فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبد دتم به علينا ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقهم . فلم يزل علي يقول ذلك حتى بكي أبو بكر .

فلما صمت علي تشهد أبو بكر . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : أما بعد ، فوالله لقرابة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي ، وإني والله ما ألوت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غير الخير ، ولكني سمعت رسول الله يقول : « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد في هذا المال . وإني أعوذ بالله لا أذكر أمراً صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله . ثم قال علي : موعدك العشية للبيعة ، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ، ثم عذر عليا ببعض ما اعتذر ، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر ، وذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه قال « وأقبل الناس إلى علي فقالوا : أصبت وأحسنت ، قال . فكان الناس قريبا إلى علي حين قارب الحق والمعروف[1] .

وقد ذكر بعض المؤرخين القدامى رأيهم في الاختلاف الذي وقع بين الروايات في شأن بيعة علي للصديق ووقت وقوعها فقال ابن الأثير بعد أن عرض لهذه الروايات والصحيح : أن أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد ستة أشهر والله أعلم »[2] .

---

(١) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٢٠٨ .
(٢) (الكامل) ج ٢ ص ٣٢٥ .

أما ابن كثير فإنه أطنب حين ذكر رأيه فى هذا الأمر فقد رجح أن عليا بايع الصديق فى يوم البيعة الخاصة أو فى اليوم التالى لها مع الناس كافة فقال ابن كثير فى معرض التدليل على صحة رأيه هذا « إن عليا بن أبى طالب لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه وخرج معه إلى ذى القصة لما خرج الصديق شاهراً سيفه يريد قتال أهل الردة ولكن لما حصل من فاطمة رضى الله عنها عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ ولم تعلم بما أخبرها به الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح فسألته أن ينظر على فى صدقة الأرض التى بخيبر[1] وفدك[2] فلم يجبها إلى ذلك لأنه رأى أن حقا

---

(١) موضع فى شمال المدينة يقع على خط طول ٤٠ شرقا وهو الذى تقع عليه المدينة نفسها ، وتتألف خيبر من عدة أودية أو واحات متجاورة تمتد إلى اليمين من سكة الحديد الحجازية التى كانت تمتد من المدينة إلى عمان : مارة بتبوك وتبعد خيبر عن المدينة بنحو ٦٠ ميلا كانت تقطعها القوافل فى ثلاثة أيام ومازال حتى اليوم جانب من الطريق إليها لا يصلح للسيارات ، ويروى وديان خيبر عدد من الينابيع والعيون غير أن ماء بعضها له طعم ماحى أو كبريت ومع ذلك ينمو بها أحراش النخيل والحلفاء وكانت بساتينها ومزارعها فى الماضى ذات شهرة فى الجزيرة العربية وبلدة خيبر الحديثة تقع فى وادى الذيدية أكبر وديان خيبر وبها قلعة قديمة تسمى الحسن ويبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة أكثرهم من المولدين . ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) ج ١ ص ٤٩٤ ، أحمد عطية الله (القاموس الإسلامى) ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) بالتحريك ، وآخره كاف : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة أفاءها الله تعالى على رسوله عليه السلام صلحا فيها عين فوارة ونخل . ابن عبد الحق (مراصد الإطلاع) ج ٣ ص ١٠٢ .

عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ وهو الصادق البار الراشد التابع للحق رضي الله عنه فحصل لها وهي امرأة من البشر ليست براجية العصمة - عتب وتغضب ولم تكلم الصديق حتى ماتت واحتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر - رضي الله عنه - وتزيد ذلك صحة قول موسى بن عقبة « خطب أبو بكر واعتذر إلى الناس وقال : ما كنت حريصا على الإمارة يوماً ولا ليلة ، ولا سألتها في سر ولا علانية . فقبل المهاجرون مقالته وقال علي والزبير : ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله أن يصلي بالناس وهو حي »[1] .

ولم يكتف ابن كثير بما ذكره من ردود بل انبرى للرد على أولئك الذين زعموا أن عليا قد غصبت منه الخلافة على يد الصديق بعد أن كان الرسول قد أوصى له بها . قال « لو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة فإنهم كانوا أطوع لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه فيقدموا غير من قدمه ويؤخروا من قدمه بنصه ، حاشا وكلا ولما ومن ظن بالصحابة - رضوان الله عليهم - ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطىء على معاندة الرسول ﷺ ومضادتهم في حكم ونصه ، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام وكفر بإجماع الأئمة الأعلام وإراقة دمه أحل من إراقة المدام ثم لو كان مع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - نص فلم لم يحتج به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم وإمامته لهم فإن لم

(١) (البداية والنهاية) ج ٥ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز والعاجز لا يصلح للإمارة وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن والخائن فاسق مسلوب معزول عن الإمارة وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل ثم وقد عرفه وعلم من بعده هذا محال وافتراء وجهل وضلال وإنما يحسن هذا في أذهان الجهلة الطغام »(١) .

فإذا ما انتقلنا إلى الباحثين المحدثين وجدنا أن لبعضهم آراءاً في بيعة على للصديق أقاموها على رواية من الروايات الكثيرة التى قيلت فى هذا المجال ومنهم صاحب كتاب « الخلفاء الراشدون » الذى رأى أن عليا بن أبى طالب امتنع عن مبايعة الصديق مجاملة لزوجه فاطمة - رضوان الله عليها - دون قناعة عنده بأن الصديق قد غصبه حقه بدليل أنها لما لحقت بالرفيق الأعلى أقبل على على الصديق فبايعه »(٢) .

ومن يجيل النظر فيما أسلفناه من الروايات يجد أن عليا بن أبى طالب قد جاء لمبايعة الصديق غير مكره من قبل أحد الصحابة لأن عليا الذى تربى عند النبي محمد ﷺ كان يجل الصديق ويحرص على تقديم مصلحة الأمة الإسلامية على غيرها من المصالح الشخصية لكائن من كان من صحابة رسول الله ﷺ فلو كان يضمر للصديق مكروها ما خرج معه إلى ذى القصة - لقتال المرتدين - كما ذكر ابن كثير ولا ينبغى لقائل أن يقول إن عليا ما بايع الصديق إلا بعد أن وجد نفسه وحيداً إثر وفاة زوجه حسب زعم بعض الروايات لأن ذلك لا يستقيم مع المنطق لأنه - كرم الله وجهه - ولو أراد طلب هذا الأمر حين رشح القوم فى السقيفة الصديق لوجد الكثيرين من الأنصار يفدون إليه

---

(١) (البداية والنهاية) جـ ٥ ص ٢٥٢ .
(٢) د / أحمد الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٣٨ .

سراعا. وآية ذلك ما جاء فى مصادر التاريخ الإسلامى أن أبا سفيان[١] قال لعلى بعـــد البيعة لأبى بكر « إنى لأرى عجاجه لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس ؟ ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش ؟ ثم قال لعلى : أبسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا . فأبى علي ذلك فتمثل بشعر المتلمس[٢] :

ولن يقيم على خف يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد

هذا على الخسف معكوس برمته وذا يشج فلا تبكي له أحد

فزجره على وقال : والله إنك ما أردت بهذا الا الفتنة وانك والله طالما بغيت الاسلام شراً لا حاجة لنا فى نصحتك »[٣] .

---

(١) صخر بن حرب بن أمية ، أسلم يوم فتح مكة سأل النبى ثلاثة أشياء فأجابه إليها وهى تزويج النبى بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأن يجعل رسول الله معاوية كاتباً له ، أن يأمر النبى أبا سفيان بقتال الكفار كما قاتل المسلمين ؛ فقد أبو سفيان عينيه فى الجهاد الأولى يوم الطائف والثانية يوم اليرموك توفى سنة إحدى وثلاثين أو ثلاث وثلاثين عن عمر يناهز ثمان وثمانين أو تسعين سنة ودفن بالبقيع ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) ج ١ ص ٣٧ .

عبد السلام الترمانينى (أزمنة التاريخ الإسلامى) ج ٣ ص ٦٤١ .

(٢) هو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد بن ربيعة وهو خال طرفه ابن العبد وسمى المتلمس لقوله :

فهذا أوان العرض حى فى ذبابة زنابيره والأزرق المتلمس

ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ص ١٥٦ .

الأصفهانى ، الأغانى ، ج ٢٤ ص ٢٦١ .

(٣) ابن الأثير (الكامل) ج ٢ ص ٣٢٦ .

السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ج ٢ ص ١٦٢ .

والذى يدعم ما ذهبنا إليه بأن علياً لم يكن طامعاً فى منازعة الصديق فى الخلافة .

أن مصادر التاريخ الإسلامى قد خلت من ذكر شىء يدل على أن عليا قام بحركة معارضة فى وجه الصديق وخليفته عمر بن الخطاب .

والذى لا سبيل إلى الشك فيه هو أن الروايات التى ذكرت امتناع على عن البيعة حتى أكره عليها أو قيامه بها بعد موت فاطمة وضعها الواضعون من أجل أغراض سياسية أبطنوها بهدف التقرب إلى حزب من الأحزاب التى تنافست على الحكم بعد عصر الراشدين .

يضاف إلى هذا كله أن الروايات التى تؤكد حدوث البيعة من على مع القوم كافة هى روايات جيدة الإسناد بالنسبة لما عداها فإننا لا نوافق الذين قالوا بتأخير بيعة على للصديق ـ رضوان الله عليهما ـ ستة أشهر والذى نكاد نميل إليه هو أن عليا أكثر من لقائه الصديق بعد وفاة فاطمة ـ رضوان الله عليهما ـ .

وإن سلمنا جدلا بصحة الرواية التى تقول إن عليا بايع بعد ستة أشهر يكون ذلك قد حمل على تجديد البيعة دون ابتدائه إياها .

وعلى أية حال فإن بيعة الصديق التى تمت بإجماع المسلمين قد جعلت المغرضين من المستشرقين يقفون منها موقف المشككين بقصد حجب الروح الدينية التى تمت بها البيعة عن أعين الأجيال التالية لصحابة النبى محمد ﷺ .

موقف المستشرقين من بيعة الصديق :ـ

ذكر الأستاذ الدكتور أبو زيد شلبى أن كلا من « لامنس وبروكلمان »

يزعمان أن بيعة أبي بكر تمت نتيجة مؤامرة سياسية دبرها عمر وأبو عبيدة مع الصديق .

بدليل أن الصديق استخلف عمر وأن عمر قال وهو يعاني جراحته التي مات فيها « لو كان أبو عبيدة حياً لوليته الأمر » ويضاف إلى أن الثلاثة هم الذين ذهبوا من المهاجرين إلى السقيفة وأن عمر هو أول من بايع الصديق . فهذا كله يدل على وجود مخطط اتفق عليه الثلاثة معاً .

وقد انبرى هذا المؤرخ الكبير بالرد عليهما فقال :

أولا : ـ إن حضور هؤلاء الثلاثة دون غيرهم اجتماع السقيفة في وقت واحد لم يكن عن تدبير فليس واحد منهم كان يتوقع مثل هذا الاجتماع المفاجيء حتى يقوم ثلاثتهم بتدبير خطة مضادة ، تفسد على المجتمعين أمرهم وتجعل الأمر قمتآمرين الثلاثة ، حسبما اتفقوا عليه .

ثانياً : ـ إن أبا عبيدة لم يكن مع أبي بكر وعمر حينما ذهبا إلى الاجتماع وإنما التقى بهما في الطريق فاصطحباه معهما فكيف تمت المؤامرة بين الثلاثة في مثل هذه الظروف المذهلة الحزينة والمفاجئة في الوقت نفسه والتي كان التأخر لحظة عن الذهاب إلى الاجتماع فيها قد يذهب بالفائدة المرجوة ويؤدي إلى فتنة بين المسلمين المهاجرين منهم والأنصار لا يعلم مداها إلا الله تعالى .

ثالثاً : ـ إن هؤلاء الثلاثة ذاهبون إلى اجتماع لا يعرفون مداه ولا ما عسى أن يكون من أمره فأية مؤامرة تصدر عن عاقل على أمر مجهول ؟ ألم يكن من المحتمل أن يذهبوا فيجدوا المجتمعين قد بتوا في الأمر إنها إذن مخاطرة وليست مؤامرة .

رابعاً : ـ إن تمنى عمر أن يكون أبو عبيدة حياً فيعهد إليه بالخلافة لم يكن

تمنيا لأبي عبيدة خاصة ، وإنما كان له ولمن كان مثله رضا من المسلمين وأهلا لتولي أمورهم ، فقد تمنى أن يكون خالد بن الوليد حيا فيعهد إليه بالخلافة وقد كانت بينهما نفرة ، وتمنى أن يكون صهيب حيا فيعهد إليه بالخلافة وليس صهيب بقرشي ولا عربي الأصل .

خامساً : ـ إن النبي ﷺ إن لم يعين أحداً للخلافة عنه لكنه أشار إشارة لا تخفى إلى أبي بكر فقد كان صاحب رايته يوم تبوك وأمره على الحج في السنة التاسعة للهجرة ، وجعله خليفة في الصلاة . والصلاة أفضل دين المسلمين[1].

ونحن نضيف إلى هذا أن المستشرقين الكبيرين لو كانا يكتبان في حيدة ودون تعصب لقاما باستقراء الروايات الكثيرة التي جاءت في مصادر التاريخ الإسلامي في أناة ، ليعلما من خلالها أن ما قالاه لا يعدو عن كونه ، افتراض يفتقر إلى روايات قوية تدعمه وقد نلتمس لهما عذرا حين نجد إحدى روايات الذهبي المنقولة عن يزيد بن هارون تقول « لما قبض رسول الله ﷺ أتى عمر أبا عبيدة فقال : أبسط يدك لأبايعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت ، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين »[2] .

فهذه الرواية لو أخضعناها للنقد لتهاوت ولعمري كيف يستسيغ العقل أن يقول عمر لأبي عبيدة ما قال وهو الذي أصيب بذهول كامل ـ حين علم بوفاة النبي ﷺ أنساه ما قاله الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن هذا

---

(١) « الخلفاء الراشدون » ص ٢٩ / ٣٣ .

(٢) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤ ، ٥ .

الأمر وما ذكره الرسول بنفسه عن هذا . ناهيك عن انعدام الوقت الذى يسمح لكلا الرجلين بالانفراد معا ليقول عمر لأبى عبيدة ما قال دون أن يراهما أحد من المسلمين ولاسيما أن جلهم كانوا ملتفين حول بيت النبى محمد ﷺ بدليل ما أسلفناه عن اجتماع الناس لاستماع الصديق وانصرافهم عن عمر الذى أنكر وفاة النبى ﷺ .

ومن هذا يتبين لنا مدى الضعف الذى عليه هذه الرواية وأمثالها مما يتصيده المستشرقون ليطعنوا من خلاله الإسلام ويقللوا من شأن صحابة النبى ﷺ .

وعلى أية حال فإن ما حدث فى مؤتمر السقيفة سيبقى معلما بارزاً فى التاريخ الإسلامى يستخلص منه الباحثون المحدثون النتائج الكثيرة التى تنم عن مدى حرص الصحابة على الدين قبل أى شىء آخر .

نتائج مؤتمر السقيفة : -

ترتب على مؤتمر السقيفة كما يقول العديد من الباحثين عدة نتائج منها .

١ - إن ما وقع فى مؤتمر السقيفة كان أول اختلاف يحدث بين المسلمين عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو كما وصفه الإمام أبو الحسن الأشعرى بأنه (أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ اختلافهم فى الإمامة) ولكن الاختلاف هنا كان سياسيا محضا وليس دينيا .

٢ - إقرار مبدأ الشورى الذى نزل به القرآن الكريم ، ووضح ذلك فى عدم موافقة المهاجرين على انفراد الأنصار بتولى شئون المسلمين ، وعرض الموضوع على بساط البحث والمناقشة ، وتفوق المهاجرون بعد أن عرضوا

حججهم وأسانيدهم وتغلب رأيهم وتمت الموافقة على اختيار أبى بكر الصديق وأعطيت له البيعة وسوف يظل مبدأ الشورى مبدأ أساسيا فى بيعة الخليفة طوال عصر الخلفاء الراشدين .

٣ ـ إن البيعة تمت أولا فى اجتماع السقيفة بحضور خاصة المسلمين ثم كانت البيعة العامة فى اليوم التالى على المنبر ولعل هذه الطريقة هى أساس نظرية أهل السنة فى إتمام البيعة بواسطة أهل الحل والعقد أى خاصة المسلمين ذوى الدين والعلم والرأى .

٤ ـ استنت السقيفة الخطبة التى يلقيها الخليفة وفيها يعلن برنامجه فى الحكم ، وقد رأينا أن أبا بكر الصديق بعد أن أعطيت له البيعة العامة فى المسجد وقف وألقى خطابا جامعا بين فيه منهاجه فى الحكم وقد استمرت هذه الخطبة بمفهومها حتى وقتنا الحالى وأصبحت تعرف بخطاب العرش فى الدول الملكية وبخطاب الحكومة فى الدول الجمهورية[1] .

وعلى كل حال فإن الصديق لما استوى على أريكة الخلافة وانعقد عليه إجماع الأمة طفق من فوره يقوم بأعباء المسئولية التى ألقيت على عاتقه فبدأ أعماله بإخماد حركات الردة بوصفها عقبة كبيرة كانت تحول دون إنعقاد إجماع شبه الجزيرة العربية على بيعته .

حركات الردة وموقف الصديق منها :ـ

بادىء ذى بدى نقول إن حركات المرتدين التى قامت فى شبه الجزيرة

---

(١) د / أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٠ ، ٣٢ .
د / محمد عبد العليم العدوى ، الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص ٥٧ ، ٥٩ .

العربية إثر وفاة النبي ﷺ كانت بعيدة عن مركز الدولة الإسلامية بالمدينة والأمصار القريبة منها مثل مكة والطائف [1] .

وقد ذكر العديد من الباحثين الذين كانوا كتبوا عن حركات المرتدين أسبابا بردوا بها قيام هذه الحركات منها :

١ — وفاة النبي :ـ

اعتقد كثير من العرب أن الوحدة التي ضمت قبائل شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام أمر مرتبط بحياة النبي ﷺ فهو الذي أزال الاحن من بينهم وأقام العرى القوية بين قبائلهم بما أرساه فيهم من تعاليم الدين الحنيف .

ولما ترامى إليهم خبر وفاته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قلبوا المجن للخليفة لزعمهم أن البيعة التي بايعوها للنبي ﷺ قد أصبحوا في حل منها بعد وفاته ومن ثم فإنهم لم يخضعوا للخليفة حتى لا يفعل بهم من الاستبداد وتفضيل بعض الناس على آخرين لحكام الدول المجاورة [2] . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف الإيمان لدى قبائل المرتدين وهذا هو السبب الثاني .

٢ ـ ضعف الإيمان : ـ

وسبب ثان تعزى إليه قيام حركات الردة وهو أن السواد الأعظم من

---

(١) هي ناحية ذات نخيل وأعناب ومزارع وأودية ، وهي على ظهر جبل غزوان ، وبها عقبة مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة . ابن عبد الحق « مراصد الاطلاع » جـ ٢ ص ٨٧٧ ، عبد السلام الترمانيني « أزمنة التاريخ الإسلامي » ق ٤ ص ١٠٦١ .

(٢) العقاد « عبقرية خالد » ص ١٣٩ ، الشامي (الخلفاء الراشدون) ص ٤٥ .

أفراد القبائل التى ارتدت قد دخلوا الإسلام تبعا لدخول رؤسائهم فيه إما لعقدهم المعاهدات مع النبي محمد ﷺ حتى يأمنوا سلطانهم فى قبائلهم وإما لتحقيق أطماعهم فى تحصيل جاه من خلال دخولهم هذا الدين ليكون وسيلة لهم فى تحقيق أغراض شخصية فإذا ما أحرزوها ظلوا على دينهم الجديد وإن كانت الأخرى تركوا هذا الدين .

وآية ذلك ما ذكره وفد « بنو حنيفة » بقيادة مسيلمة الكذاب سنة صبع من الهجرة للنبي محمد ﷺ « إن شئت خليفنا الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك » ، "فلما انصرف وفد بنى حنيفة إلى اليمامة[1] ادعى مسيلمة النبوة ، وكتب الى النبى « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد ، فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك» فكتب إليه النبى « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى إلى مسيلمة الكذاب أما بعد (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى »[2] .

على أن المعلمين الذين أرسلهم النبي محمد ﷺ فى القبائل لم يستطيعوا تحويل أفراد هذه القبائل إلى الإيمان القوى القائم على الإقتناع لأنه لم تكن الفرصة كبيرة أمام هؤلاء المعلمين ليثبتوا الإسلام لدى أفراد هذه القبائل أو ليشرحوا لها قواعده وأهدافه[3] .

---

(١) هو بلد كبير ، فيه قرى وحصون وعيون ونخل وكان اسمها أولا جوا . ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) ج ٣ ص ١٦٩ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٠٦ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٣ .

(٣) يوسف على يوسف (الخلافة والخلفاء) ص ٣٣ .
السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) .
أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ١٤٤ .

ونحن نرى أن بعض المعلمين الذين لم يحققوا نجاحاً بين أفراد القبائل التى أرسلوا إليها أمر ربما يرجع إلى العقبات التى أقامها أمامهم رؤساء القبــائل الطامعين حتى إذا ما أرادوا الخروج على الدين لم يجدوا من يقاومهم فى قوة وإيمان فيحول بين رئيس القبيلة وتحقيق مآربه . ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هــذه العقبات التى اختلقها رؤساء القبائل كانت من الخفاء بحيث لم يلحظها المعلمون .

ومما يدعم الرأى الذى ذهبنا إليه أن المدة التى تضـــاها الرجال الذين أرسلهم الرسول إلى القبائل كانت تكفى لو أن هذه العقبات غير موجودة بدليل أن مصعب بن عمير الذى أرسله الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة حقق من النتائج الكثير والكثير بين أفراد الأوس والخزرج فعاد إليه بعد عام وقد انتشر الإيمان بين السواد الأعظم من أفراد القبيلتين مع ما فى ذلك من الخطورة عليهما وقت ذاك فإذا ما قلنا إن هذه القبائل التى دخلت الإسلام أخيرا ثم ارتدت بعد وفاة النبى محمد ﷺ قد دخلته وهى فى عامل أمان تبين لنا حقيقة وجود هذه العقبات أمام المعلمين والتى يعزى إليها ضعف الإيمان بين أفراد القبائل المرتدين .

٣ — البعد المكانى : ـ

ولعل من الأسباب الهامة التى أدت إلى ظهور حركات المرتدين ما كان من بعد شاسع بين مواطن هذه القبائل وقاعدة الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة الأمر الذى جعل زعماء الردة يظنون أنهم فى مأمن بهذا من حملات خليفة رسول الله ﷺ فإن الجيش إذا ما غادر المدينـــة لابد له من المسيرة يوم أو أكثر حتى يصل إلى مناطق قبائل المرتدين وكثيرا ما يؤدى بعد المسافة إلى

شيوع أخبار الجيوش إلى زعماء المرتدين فيأخذوا حذرهم بيد أن الصديق قد أقام لكل أمر حسابه فتصدى لحركاتهم في قوة وحنكة .

٤ — العصبية القبلية : ـ

على الرغم من أن القبائل المرتدة قد اعتنقت الإسلام إلا أنها ظلت محافظة على نظامها القبلي الموروث عن الآباء فالفرد يتعصب لقبيلته والعكس وهذه العصبية جعلتهم يؤازرون من قام من بينهم بادعاء النبوة مع علمهم بأنه كذاب فهذا طلحة النمرى يقول حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة في اليمامة ـ فقال : أشهد أنك كذاب . . . . لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر »[1] . يضاف إلى هذا أن القبائل قد خافت أن تسلبها قريش سيادتها وتصبح هي الحاكمة لهذه القبائل بعد النبي وقد عبر الشعراء عن ذلك في قصائدهم فما قاله بعضهم .

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر ؟

أيورثها بكرا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[2]

٤ — فريضة الزكاة : ـ

ضاقت القبائل ذرعاً من فريضة الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام حيث

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٨٦ .
العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٢٧ .

(٢) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٣٧ .
أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ١٣٨ .
أبو زيد شلبي ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٣ .

إنهم عدوها من خلال فهمهم القاصر إتاوة تنم عن خضوعهم لغيرهم والذى يدلنا على وجود هذا التبرم بينهم ما قاله « قرة بن هبيرة لعمرو بن العاص : إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وان أبيتم فلن تجتمع عليكم » .

وربما يعزى تبرمهم هذا إلى أن بعض القبائل التى كانت تؤدى الإتاوة للقياصرة أو الأكاسرة كانت تعدها قليلة إلى جانب الكثير للغدق عليهم على شكل خلع ومنح من قبل زعماء الدولتين الكبيرتين آنذاك .

لذا فإن البعض منهم لما علموا بوفاة النبى ﷺ بادر إلى إرسال وفود إلى أبى بكر الصديق علّه يرفع عنهم الأتاوة على حد زعمهم ـ كما سنبينه بعد ذلك ـ .

ولم يحاول هؤلاء الخارجون تدبر ما جاء فى القرآن الكريم فى شأن الزكاة المفروضة على الأغنياء للفقراء تطهيرا للأنفس وإيجادا للتكافل الاجتماعى بين الأفراد فالله سبحانه وتعالى يقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[1] ناهيك عن كونها ركن من أركان الإسلام لابد من الحفاظ عليه[2] .

( ) قرآن كريم ، سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٢) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٤٤ .

أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ١٣٩

أبو زيد شلبى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٣ .

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٦ .

٦ — الصراع بين البادية والحضر : -

ذكر الأستاذ العقاد أن من أسباب الردة الصراع الموجود منذ أمد طويل بين العرب من سكان البوادي وغيرهم من قاطني الحواضر كان سببا من أسباب الردة فقال « فمازال من دأب البادية في كل زمان أن تنقسم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة إلا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين وكانت تتحكم في خصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها إذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون وأسرع بعضها إلى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين »[1] .

ونحن نسلم بوجود هذا الصراع من لدن وجود هذه القبائل في المنطقة إلا أن الذي نكاد نشك فيه أن هذا الصراع أحد أسباب الردة ذلك أن الإسلام حين دخل هذه القبائل أوضح لجميع أن الإيمان بهذا الدين يقتضي المساواة بين أفراد هذا المجتمع الإسلامي وعدم اعتداء البعض على البعض وبالتالي فإن استمرار بعض القبائل في صراعها مع الحواضر كان استمرارا لشيء قديم لم يتخلوا عنه بعد الاسلام بسبب ضعف إيمانهم ولسنا ندري كيف توجد علاقة بين تخلي هذه القبائل عن بعض أركان الاسلام والبعض الآخر عن رسالة النبي محمد والإيمان بنبيهم المزعوم صراعاً بين الحواضر والمدن .

إن لم نقل إن الصراع قد صبغ بصبغة جديدة بعد ظهور الاسلام فصار

---

(١) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٣٩ :

صراعاً فكرياً بين سكان البوادي وحاضرة الدولة الاسلامية في المدينة على أساس زعمهم إمكانية تقليد شخصية النبي محمد ﷺ والإتيان بمثل ما أتى به وحتى هـذا الافتراض الجدلي لا يعد قاسما مشتركا بين جميع القبائل إذا أن المقطوع به أن بعضها أراد رفع الزكاة دون الخروج على الرسالة كلها .

فالرأي الذي تقتضيه اذن أن هذا الصراع لا يعد أحد أسباب الردة .

٧ — العامل الخارجي :—

لما أرسل النبي محمد ﷺ كتبه إلى كسرى وقيصر وبعض ولاتها عدوا ذلك ناقوسا يدق مؤذنا بوجود خطر شديد عليهم ممثلا في دعوة هـذا النبي وأنه قد أخذ في الازدياد يوما بعـد يوم ومن ثم فإننا لا نعجب إذا أشار الأستاذ العقاد إلى وجود قوى أجنبية ألقت بثقلها وراء بعض حركات المرتدين لعل هذه المساندة تحقق لهم مأربهم الذي منوا أنفسهم بتحقيقه ألا وهو إزالة الدولة الاسلامية الناشئة .

بيد أن هذه المساندة كانت من الفرس أقوى وأوضح فقد ساندوا المتنبئين دون حرج بخلاف الروم الذين اكتفوا بالإغارة والمناوشة على الحدود الإسلامية حيث أن المسيحية التي يدينون بهـا قد حالت بينهم وبين الوقوف إلى جوار المتنبأة .

ومما قاله الأستاذ العقاد في الدليل على وجود هذا العامل أن سجاح قد ظهرت بين العرب الموالين للفرس وأن مسيلمة قد اضطر إلى استمالتها إليه فأي سبب يدعوه إلى هذا؟ بل أي دافع يدفعه إلى إعطائها إتاوة مع كونه قد أبدى أنفه من إرسالها للخليفة رسول الله ﷺ ؟ « كل هذا لغز سخيف لا يقبله

العقل إلا على وجه واحد وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ومن ثم أصابت ما أصابت من الإخفاق أو النجاح » [١] .

تلك كانت الماعة عن أبرز أسباب الردة والتى تبين من خلالها أن المرتدين كانوا شيعا شتى لم يجمعهم هدف واحد فمنهم من يريد رفع الزكاة عنه ومنهم من يريد نبوة على غرار نبوة النبى محمد ﷺ وكان لهؤلاء وأولئك مؤيدين بدافع الأحلاف أو العصبية النسبية – ومن ثم فإننا سنتحدث عن أبرز حركات المرتدين من المتنبئين ومانعى الزكاة دون استقصاء لكل هذه الحركات نظرا لصغر بعضها أو لتلاشيها دون حدوث معركة بينها وبين المسلمين .

موقف أبى بكر من المرتدين :–

وجد أبو بكر رضى الله عنه نفسه فى موقف بالغ الشدة فإن حركات الردة قد كشفت عن نفسها وصار يخشى منها على المدينة ولاسيما أن ما بها من جيش المسلمين عدد قليل بعد خروج أسامة بجيشه إلى تخوم بلاد الروم .

وعلى الرغم من هذا كله فإن أبا بكر قد وقف موقف القوى أمام وفود عبس وذبيان وغطفان حين جاءته إلى المدينة عارضة عليه رفع الزكاة عنهم مقابل استمرارها فى الدين الاسلامى فأبى منهم قبول ذلك .

ولما آبت الوفود إلى قبائلها تجرأ ذيال اخفاقها استيقن المسلمون بالمدينة بأنه لا مناص من حدوث مواجهة بين فئة المسلمين والمرتدين بالقرب من المدينة .

ودرءا لهذا الخطر أشار بعض المسلمين إلى ضرورة ممالأة هذه القبائل

---

(١) العقاد « عبقرية خالد » ص ١٤٣ .

المرتدة وتألفها إلا أن أبا بكر كان له رأى آخر حين جاءه عمر ليقول له : (ياخليفة رسول الله تآلف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش) « فاحتد عليه أبو بكر قائلا : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ، جبارا فى الجاهلية خوارا فى الاسلام؟ بماذا عساى أن أتآلفهم ، بشعر مفتعل أو بسحر مفترى؟

هيهات . هيهات ثم قال « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدنه لرسول الله لحاربتهم عليه »[١] « فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال: إلا بحقها فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق »[٢] .

أمر الصديق بحراسة المدينة ليلا حتى لا تباغت من قبل المرتدين الذين ترامت أنباء احتشادهم بالقرب من المدينة إلى الصديق وقد صح ما توقعه الصديق فلم تمض إلا أيام ثلاثة بعد رجوع وفود القبائل الى قومهم حتى داهمت المدينة غارة ليلا وقد اطمأن المغيرون الى أن الجيش الإسلامى قد أبتعد عن المدينة وأوغل فى البعد وصلت الغارة الى المدينة المنورة وقد خلفت وراءها قوة ردءا لها فى (ذى حس) وعندما طرقت الغارة الإنقاب وجدت عليها

---

(١) القاضى أبى بكر بن العربى (العواصم من القواصم) ص ٤٦
السيوطى (تاريخ الخلفاء) ص ٦٧ .
(٢) الذهبى (تاريخ الإسلام) ج ٣ ص ٢٠ .
أحمد الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٥١ .
عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٤٨ .

المقاتلة ، وراءهم أقوام أشبه بالمراسلين ، فأوصلوا الخبر إلى أبى بكر فى المسجد فأرسل أبو بكر إلى المقاتلة عن الأنقاب أن اثبتوا ، وسار بأهل المسجد إلى إلى الأنقاب فانهزم المغيرين وولوا الأدبار ولحقهم المسلمون على إبلهم حتى (ذى حسى) فوجدوا الردء هنـاك ، وقد نفخوا الأنحـاء ، وربطوها بالحبال ، ودهدهوها بأرجلهم فى وجه إبل المسلمين ، فنفرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة فأرسل المنافقون إلى إخوانهم فى (ذي القصة) [(١)] . بالخبر [(٢)] . فلم يستطيعوا فعل شىء قبل مباغة أبى بكر لهم حيث فاجأهم المسلمون فى عماية الصبح فأوقعوا بهم هزيمة شديدة [(٣)] .

وكانت هذه الموقعة الصغيرة كبيرة النتائج والآثار ، وكان نصر المسلمين فيها نصراً مؤزراً فقد عز بهـا الإسلام وثاب كثير من المرتدين إلى رشدهم وبعثوا بصدقاتهم [(٤)] .

وقد زعم بعض المؤرخين أن الصديق قد وقف هذا الموقف القوى من المرتدين خوفه على ضياع الزكاة منه حيث إنهـا كانت تمثل المورد الوحيد للدولة آنذاك [(٥)] .

---

(١) موضع قريب من المدينة يقع فى طريق الربذة .
د / عبد السلام الترمانينى (أزمنة التاريخ الإسلامى) ق ٤ ص ١٠٤٧
(٢) الذهبى (تاريخ الإسلام) جـ ٣ ص ٢٠ .
محمود شاكر (التاريخ الإسلامى) ص ٦٩ .
(٣) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٢٤٦ .
أحمد الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ١٥٣ .
(٤) أبو زيد شلبى (الخلفاء الراشدون) ص ٤٦ .
(٥) احمد الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ١٤٦ .

والذى نراه أن هذا المؤرخ قد وهم حين عزى موقف الصديق القوى إلى خوفه على ضياع المورد المالى للدولة لأن ما أسلفناه من حوار الصديق مع عمر يكشف لنا فى جلاء أن الخليفة ما كان يتوخى من موقفه هذا إلا المحافظة على أركان الدين الإسلامى والإبقاء على نظامه التى سار عليها الناس فى عهد النبى محمد ﷺ .

وعلى كل حال فإن أبا بكر قد صمم على استئصال حركة الردة من شأفتها فعقد الألوية للقادة المسلمين فكانت أحد عشر لواءا أولها لواء خالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له . وثانيهما لعكرمة بن أبى جهل[1] وأمره بمسيلمة . وثالثهما للمهاجر ابن أبى أمية[2] وأمره بجنود العنسى ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح

---

(١) كان هو وأبوه من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام ومن أشد الناس عداوة للمسلمين ، هرب إلى اليمن بعد فتح مكة فأعادته زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ليسلم فأسلم وحسن إسلامه ، اشترك فى حروب الردة فى اليمامة واليمن وانتصر فيها ثم شهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، نادى فى وقعة أجنادين من يبايع على الموت فتابعه عمه الحرث وضرار بن الأزور فى أربعمائة من المسلمين كان أميرا عليهم فقتلوا كلهم إلا ضرار فقتل فى وقعة اليرموك .

الذهبى (تاريخ الإسلام) جـ ٢ صـ ٤٣ .

ابن حجر (الاصابة) جـ ٢ صـ ٤٨٩ .

(٢) سهل (حذيفة) بن المغيرة المخزومى القرشى ، صحابى من القادة شهد بدر مع المشركين أسلم وكان اسمه (الوليد) فسماه النبى ﷺ (المهاجر) تزوج الرسول أخته (أم سلمة) ، تخلف عن غزوة تبوك سنة تسع للهجرة فعتب عليه النبى ﷺ) ثم رضى عنه بشفاعة أخته أم سلمة واستعمله أميرا على كندة ، تولى تولى إمارة صنعاء سنة ١١ هـ ، له فى قتال المرتدين أثر كبير : ابن عبد البر (الاستيعاب) جـ ٤ ص ١٤٥٢ .

ثم بعث إلى كندة بحضرموت[1]. وثالثها لخالد بن سعيد[2] وبعثه إلى مشارف الشام، ورابعها لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة. وخامسها لحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا[3]. وسادسها لعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة[4] وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله. وسابعها لشرحبيل ابن حسنة[5] في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال إذا فرغت من اليمامة. فالحق

---

(١) بالفتح ثم السكون وفتح الراء والميم، أقليم يقع في جنوب الجزيرة العربية ويطل على بحر العرب، تحده من الشرق إمارة عمان ومن الغرب جمهورية جنوب اليمن وتتصل حدوده الشمالية بالمملكة العربية السعودية.

ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) جـ ١ ص ٤٠٩.

أحمد عطية الله (القاموس الاسلامي) ج ٢ ص ١١٠.

(٢) ابن سعيد بن العاص بن أمية من أوائل المسلمين، هاجر إلى الحبشة، شهد الغزوات وعمرة القضاء مع النبي وهو من كتاب الوحي قتل في موقعة مرج الصفر، سنة ١٢ هـ.

ابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ ٤ ص ٩٧.

(٣) بفتح أوله والقصر سوق من أسواق العرب بعمان وكانت قصبة البلد قديما.

ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) جـ ٢ ص ٥١١.

(٤) بالفتح ثم السكون بخلاف ينسب إليه مهرة وهم قبيلة من قضاعة بينها وبين عمان وحضرموت مسيرة شهر.

ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) جـ ٣ ص ١٢٣٩.

(٥) ابن عبد الله بن المطاع بن الغطريف الكندي، يعرف بابن حسنة نسبة إلى أمه، هاجر إلى الحبشة، غزا مع النبي ﷺ وأوفده رسولا إلى مصر، جعله أبو بكر أحد الأمراء الأربعة الذين وجههم لفتح الشام وافتتح الأردن كلها عنوة، كان من الفرسان الذين سادوا الناس توفي بطاعون عمواس.

ابن حجر (الاصابة) جـ ٢ ص ١٤١.

بقضاعة وأنت حلى خيلك تقاتل أهل الردة . وثامنها لمعن بن حاجز وأمره بني سليم ومن معهم من هوازن . وتاسعها لسويد بن مقرن وأمره بتهامة [١] باليمن . وعاشرها للعلاء بن الحضرمي [٢] وأمره بالبحرين ، ففصلت الأمراء من ذي القصة ولحق بكل أمير جنده، [٣] وزودهم بكتاب للقبائل المرتدة جاء فيه . بسم الله الرحمن الرحيم : « من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . . . أما بعد ، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً . ثم توفى الله رسوله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمته وقضى الذى عليه وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الاسلام

---

(١) هى السهل الساحلى المنخفض الممتد على الشاطىء الشرقى من البحر الأحمر على امتداد الحجاز وعسير واليمن وفيه الكثير من القرى والموانى . ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) ج ١ ص ٢٨٣ .

د / عبد السلام الترمانينى (أزمنة التاريخ الاسلامى) ق ٤ ص ١٠٣٣ .

(٢) ابن عبد الله بن عمار الحضرمى من رجال الفتوح فى صدر الاسلام ولد ونشأ بمكة ، ولاه الرسول ﷺ البحرين سنة ٨ ، وجعل له جباية الصدقات ، شارك فى حروب الردة وأمره أبو بكر بعد وفاة النبي على ولاية البحرين ثم أقره عمر وجهه عمر إلى البصرة فمات فى الطريق ، هو أول مسلم ركب البحر . ابن حجر (الاصابة) ج ٢ ص ٤٩١ .

(٣) ابن الاثير (الكامل) ج ٢ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

أبو زيد شلبي (تاريخ الخلفاء) ص ٤٧ ، ٤٨ .

فى الكتاب الذى أنزل فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) [1] وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) [2] فمن كان إنما يعبد محمد فإن محمداً قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه . . . . ثم قال وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به ، اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، وأنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن أتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم ، والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا سألوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم ، [3] .

وشفع أبو بكر هذا المنشور بعهد منحه بقواده فيه . بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه لقتال

---

(١) قرآن كريم سورة الزمر آية رقم ٣٠.
(٢) قرآن كريم سورة الانبياء آية رقم ٣٤ .
(٣) عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ج ٢ ص ٥٣ ، ٥٤ .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٦ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، لا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأمر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتله بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه ، إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول »[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أبا بكر قد راعى فى توزيع القوات والقادة حالة المرتدين الذين يتوجهون إليهم من حيث القوة والضعف .

ومن ثم أمر خالد بن الوليد ومعه بضعة آلاف من قوات المسلمين بالتوجه لقتال طليحة الأسدى وحلفائه .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

حركة طليحة : -

خرج هذا المرتد على الدين الإسلامي أثناء حياة النبي محمد ﷺ فقد منى طلحة نفسه بتحقيق ما حققه الرسول من مجد وشهرة .

ولما كشف النقاب لقومه عن فريته التي أوهم المحيطين به أنها حقيقة حين قال لهم أنه نبي يوحى إليه كما يوحى لمحمد بادروا إلى مؤازرته هم وحلفائهم بدافع العصبية والحنق على قريش .

ولما علم الرسول بأخبار خروج طلحة وجه إليه ضرار بن الأزور[١] إلى بني أسد وأمرهم بالقيام فأشجوا طليحة وأخافوه وضعف أمره حتى لم يبق إلا أخذه سلما إلا أن ضرارا ضربه بالسيف فنبا عنه فشاع بين الناس أن السلاح لا يحيك فيه فتزايد جمعه وكثر أتباعه »[٢] . ولما كانت خلافة أبي بكر عهد إلى خالد بقتال طلحة .

ففصل خالد بقواته معلنا للناس أنه يؤم خيبر ا حتى يعمى أخبار تحركاته على طليحة الأسدي وحلفائه .

وأمر أبو بكر الصديق عديا بن حاتم[٣] بالذهاب إلى طيء لتحذيرها سوء

---

(١) ابن مرداس بن خزيمة الاسدي ، فارس شجاع وشاعر مطبوع قاتل يوم اليمامة حضر وقعة اليرموك وفتح الشام ، قتل في وقعة اليرموك وقيل في وقعة أجنادين ، وقيل قتل في وقعة اليمامة . وفي تاريخ موته خلاف كبير .
ابن حجر ، الإصابة ، جـ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ٢ ص ٢٥٧ .
أبو زيد شلبي ، الخلفاء الراشدون ، ص٤٩ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٥ .

(٣) هو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي ، أبو وهب وأبو طريف ، =

العواقب التي ستحل بها إن ظلت على مؤازرتها لطليحة الأسدى لأن خالدا قادم بصحبته جيش جرار لتأديب المرتدين أتباع هذا المتنبيء .

ولما كان عدى بن حاتم مسموع الكلمة فى قومه وجدت كلماته قبولا لديهم فأذعنوا لنصيحته وقالوا له أمهلنا ثلاثا نعيد فيها أتباعنا الذين بعثناهم إلى طليحة لمؤازرته لأننا أن أظهرنا التخلى عنه لا نأمن غضبه على رجالنا .

نقل عدى بن حاتم رغبة القوم الى خالد فاستجاب لهم وانضموا اليه فى زحفه طلحة وعلى غرار ما فعله عدى بن حاتم مع قبيلة طىء فعل مع جديله الذين استجابوا لعدى وقلبوا ظهر المجن لطليحة الأسدى .

وبهذا يكون عدى بن حاتم قد أسهم فى تجنيب قومه اراقة دمائهم فكان خير مولود فى أرض طىء وعلى كل حال فإن خالداً سار حتى إذا دنا من القوم بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ـ أحد بنى العجلان حليفا الأنصار ـ طليحة ، حتى إذا دنوا من القوم خرج طليحة وأخوه سلمة ينظران ويسألان ؛ فأما سلمة فلم يمهل ثابتاً أن قتله ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أعنى على الرجل ، فإنه آكل ، فاعتونا عليه ، فقتلاه ثم رجعا ، وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلا ، فلم يفطنوا له حتى وطئته

= أمير صحابى من الاجواد العقلاء كان خطيبا حاضرا البديهة ، وكان رئيس طىء فى الجاهلية والإسلام قام فى حروب الردة بأعمال كبيرة . أسلم سنة ست للهجرة وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة ، شهد الجمل وصفين والنهروان مع على ابن أبى طالب ، مات بالكوفة .

ابن قتيبة « المعارف » ص ٣١٣ .

الذركلى « الاعلام » ج ٥ ص ٢٨ .

المطى بإخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعا ، فجزع لذلك المسلمون .

وهنا تطالعنا رواية جديدة للطبرى فيها أن خالداً لما رأى ما بالمسلمين من جزع قال لهم : هل لكم أن أميل بكم إلى حى من أحياء العرب ، كثير عددهم ، شديدة شوكتهم لم يرتد منهم عن الإسلام أحد فقال له الناس : ومن هذا الحى الذى تعنى ؟ فنعم والله الحى هو قال لهم : طيء ، فقالوا : وفقك الله ، نعم الرأى رأيت فانصرف بهم حتى نزل بالجيش فى طيء »[1] .

بناء على هذه الرواية الأخيرة فإن خالداً يكون هو الذى جعل طيء تتخلى عن طليحة الأسدى وهذا يخالف الرواية الأولى التى أسلفناها .

والذى نرى الأخذ به ما جاء فى الرواية الأولى حيث إنه يتوافق مع المنطق ذلك أن استجابة طيء لعدى أكثر قبولا من استجابتهم لخالد ولاسيما فى هذه الظروف العصيبة .

يضاف إلى هذا وذاك أن عديا حين جاءهم كان فى صورة الناصح بخلاف خالد فإنه جاءهم بجيش جرار كما صورته الرواية الثانية مما يجعلنا نتشكك فى إسناد معاونة طيء المسلمين إلى خالد دون عدى بن حاتم .

ومهما يكن من أمر فإن خالداً سار بجيوشه حتى التقى بجنود طلحة عند البزاخة بقيادة عيينة بن حصن الذى ما إن وجد الحرب قد اشتد أوارها حتى ذهب إلى طليحة وهو ملتف بكسائه بفناء بيت له من شعر وسأله هل جاءك

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج٢ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٥٩ ، ٦٠ .

جبريل فقال له : لم يأت بعد ثم عاد عيينة إلى ميدان الحرب فلما وجد أن الدائرة تكاد تدور عليه هو ورجاله هرع إلى طليحة وقال له هل جاءك الوحى فقال نعم نزل على وقال « إن لك يوما ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحا كرحاه وحديثا لا تنساه » فنادى عيينه : يابنى فزارة إنه كذاب .

فلما علم طلحه أن الهزيمة لامحالة واقعة عليه سار إلى فرس له فركبه وأردف زوجه النوار خلفه وقال يامعشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل ثم انهزم فلحق بالشام ، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسدا وغطفان قد أسلموا ، ولم يزل مقيما فى كلب حتى مات أبو بكر .

وكان خرج معتمرا (فى إمارة أبى بكر) ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبى بكر : هذا طلحة فقال : ماأصنع به قد أسلم ثم أتى عمر فبايعه حين استخلف فقال له : أنت قاتل عكاشة وثابت؟ والله لاأحبك أبدا فقال: ياأمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يهنى بأيديهما فبايعه عمر وقال له : ما بقى من كهانتك ؟ فقال : نفخة أو نفختان (بالكير) ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق [1].

شجعت هذه الانتصارات خالدا على المضى قدما نحو مالك بن نويرة بالبطاح فكان بينهما ما كان .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٢ ص ٣٤٠٨
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٥ .
الشابى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٩ .
أبو زيد شلبى (تاريخ خالد بن الوليد) ص ١٠١ ، ١٠٢ .

حركة مالك بن نويرة :ـ

أسلم بنو تميم فى حياة النبى ﷺ فلما قبل الرسول ﷺ منهم الإسلام جعل عليهم أمراء من بينهم وقد وقع بين هؤلاء الأمراء خلاف فكان منهم من ظل على وفائه بعد حياة الرسول وأرسل الصدقة إلى أبى بكر الصديق ، ومنهم من تردد ثم فاء إلى أمر الله ، ومنهم من منع الزكاة حتى قوتل وهو مالك ابن نويرة [١] الذى نتحدث عنه .

ظل مالك على ردته حتى جاءت سجاح بنت الحارث بصحبة جيشها وكانت قد تنبأت فى قومها من بنى تغلب . تريد قتال أبى بكر فلما أشرفت على بنى تميم أرسلت الى مالك بن نويرة سيد بنى يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبى بكر وأغراها بمخاليفه من أحياء بنى تميم وتابعها على أمرها وكيع بن مالك وقومه إلا أن هذا الوفاق لم يدم طويلا بين مالك وسجاح التى تركته وسارت إلى قتال مسيلمة الكذاب [٢] .

غدا مالكاً فى موقف لا يحسد عليه بعد انصراف سجاح عنه والأحلاف الذين وأعدوه النصرة من قومه فجمع البقية الباقية من أتباعه وأنشأ يقول لهم بعد علمه بقدوم خالد عليه « يا بنى يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا

---

(١) أبو زيد شلبى « الخلفاء الراشدون » ص ٥١ .

(٢) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٢٧٧ .

عبد الوهاب النجار « الخلفاء الراشدون » ص ٤٨ .

أبو زيد شلبى « الخلفاء الراشدون » ص ٥١ .

الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومنا وأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا وأدخلوها في هذا الأمر . فتفرقوا على ذلك[1] .

ويلوح لنا أن خالداً قد أدرك صعوبة موقف مالك بن نويرة ووجد أنه لو أمهله قليلا حتى تصل تعليمات الصديق إليه ربما تضيع هذه الفرصة من بين يديه ومن ثم هم خالد على المسير إلى مالك بن نويرة على الرغم من معارضة بعض الأنصار له على أساس أن هذا يتنافى مع عهد الخليفة إليه بأن يقيم في بزاخة إثر فراغه من قتال طليحة ريثما يكتب الصديق إليه .

وقد برر خالد للقوم مسيره إلى مالك حين قال « قد عهد إلى أن أمضى ، وأنا الأمير ، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرنا ثم نعمل به فأنا قاصد إلى مالك ومن معى ولست أكرهكم »[2] .

وعلى أية حال فإن خالداً لما قدم إلى البطاح وبث فيها سراياه وجد القوم قد رحلوا عنها إلا أن سرية من السرايا جاءته بمالك بن نويرة وبعض أتباعه مكبلين .

وقد اختلفت الروايات في موقف خالد من مالك وأتباعه بعد أسرهم فروايات تقول إن خالداً قتلهم على غير وجه شرعي حيث إنهم مسلمون وأخرى تقول إنهم لم يسلموا فمن الأولى ما رواه بن حميد عن أبي قتادة « لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح قال : فقلنا : إنا للسلمون ،

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ ٢ ص ٣٥٨ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢٧٨ .
ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ص ٣٥٨ .

فقالوا: أونحن للمسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم، قالوا لنا: فما بال السلاح معكم، قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، قال: فوضعوها، ثم صلينا وصلوا. وكان خالد يعتذر فى قتله أنه قال له وهو يراجعه: ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا، قال: أو ما تعده لك صاحبا ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه»[1].

ومن الثانى ما روى عن سويد بن المثعبة الرياحى «لما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام أن يأتوه بكل من لم يجب، وإن امتنع أن يقتلوه... فجاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبة بن يربوع، من عاصم وعبيد وعرين وجعفر، فاختلفت السرية فيهم، وفيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شىء، وجعلت تزداد بردا، فأمر خالد مناديا فنادى: «أدفئوا أسراكم»، وكانت فى لغة كنانة إذا قالوا: دثروا الرجل وأدفئوه، دفئه قتله وفى لغة غيرهم: أدفئه وأقتله، فظن القوم — وهى فى لغتهم القتل — أنه أراد القتل، فقتلوهم، فقتل ضرار بن الأزور مالكا، وسمع خالد الداعية، فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه»[2].

وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك بعد انقضاء عدتها فقال عمر لأبى بكر:

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣ ص ٢٨٠.
(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣ ص ٢٧٨.
ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٦ ص ٣٢٢.
السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ١٧٧.

إن سيف خالد فيه رهق ، وأكثر عليه فى ذلك فقال : هيه يا عمر تأول وأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين وروى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ، ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهما ، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : قتلت أمرأ مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك وخالد لا يكلمه يظن أن رأى أبى بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر وأعتذر إليه ، فعذره وتجاوز عنه وعنفه فى التزويج فإن العرب تكره حدوث ذلك من القادة أثناء الحرب . فخرج خالد وعمر جالس فقال هلم إلى يا ابن أم سلمة فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه . فلم يكلمه »[1] .

وقد انبرى العديد من الباحثين لقضية خالد ومالك بن نويرة وزواج الأول من امرأة الثانى فطفقوا يناقشون الروايات الواردة فى هذا الأمر بقصد الوصول إلى الحقيقة أو إضاءة الدرب للباحثين اللاحقين الذين يتناولونها بالدرسة . وقبل أن ندلى برأينا فى هذا الأمر يحسن بنا إيراد آراء بعض هؤلاء الباحثين حتى نكون قد ألمنا إلى آراء المحدثين والقدامى فى هذه القضية الشائكة .

الباحثون المحدثون وقضية مالك بن نويرة : -

ذكر الأستاذ الدكتور أبو زيد شلبى بعد عرضه الروايات العديدة فى شأن أمر خالد ومالك ردوداً تبرر موقف خالد منه فقال :

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢٨٠ .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٦ ص ٣٢٢ .

١ — الأشعار التى قالها مالك مظهراً فيها رجوعه عن الإسلام وعدم مبالاته بالمسلمين وبما يجىء به الغد .

٢ — وصية أبى بكر التى سبق ذكرها فهى تنص على مقاتلة من لم يقر بالزكاة ومالك قد التوى بزكاة فقتاله إذن طاعة لأمر الخليفة .

٣ — كتاب أبى بكر لخالد بعد أن فرغ من طليحة الأسدى الذى يقول فيه « جد فى أمر الله ولا تنين ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاره ممن ترى أن فى ذلك صلاحا فاقتله .

٤ — إن خالدا لما حاوره وراده سمع مالك بالصلاة والتوى بالزكاة فقال خالد أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى فقال مالك : قد كان صاحبكم يقول ذلك .

قال خالد : أو ما تراه لك صاحبا والله لقد هممت أن أضرب عنقك ثم تجاولا فى الكلام فقال له خالد: إنى قاتلك فقال له : أو بذلك أمرك صاحبك قال وهذه بعد تلك وقد فهم خالد أن ذلك منه إنكار للنبوة .

وربما قيل : إن كل واحد من هذه المعاذير لا يعدو عن أن يكون شبهة والشبهة لا تجيز القتل فى شرعة الاسلام فنقول : لو سلمنا أن كل واحد منها شبهة قوية — ولاسيما فى مثل موقف مالك المتردد — تجعل لخالد عذرا فى قتله . على أنه إن لم يصلح كل واحد من هذه المعاذير بانفراده مبررا للقتل عند كثير من الباحثين فإنها مجتمعة متضامة مراعاً فيها صدورها من رجل مرتد لم يكن عنده من الإخلاص لدينه والوفاء له ما يجعله مستمسكا به متفانياً فيه مدافعاً عنه ، بل أن يرتد عنه ويناوئه تصلح عذراً عند كثير منهم إن لم يكن عند عامتهم .

ثم قال فى أمر زواج خالد من امرأة مالك ، إن نحن قلنا إن ما فعله خالد جرم على حد زعم بعض الناس فذلك لأن السيئة إذا بدت من دهماء الناس لا يعبأ بها ولا يشعر الناس بحدوثها وهى تصدر من العظيم فتبدو بارزة ظاهرة كأنها النقطة السوداء فى الثوب الناصع البياض . وهكذا « حسنات الأبرار سيئات المقربين » وهذه الحادثة يحوطها أيضا شىء من اللبس والغموض فلم يكشف لنا التاريخ شيئا قاطعاً فى أمرها فبينما يذكر بعض المورخين أن خالد اشتراها من الفىء ثم تزوجها يقول لنا البعض الآخر : إنها أعتدت بثلاث حيضات وتزوجها ولو كنا نجزم بشىء فى أمر مالك لانجلى الموقف وسهل الحكم وإذا نحن سلكنا مسلك من يقول : إن مالكا قتل كافراً وإن خالد إشترى زوجته من الفىء لكان زواجه بها لا شىء فيه والمسألة لا تبدو مقنعة بقناع من الغموض إلا على أساس إسلام مالك ومهما يكن الأمر فلم يكن من الحسن زواجه بها فى وقت القتال لأن ذلك كانت تعيبه العرب[1] .

ويقول الأستاذ محمد الطاهر عاشور فى معرض تعليقه على الروايات التى رويت فى شأن مالك وخالد «أما محاورة مالك بن نويره لخالد بن الوليد فهى نفس ما قام به الفريق الثانى من أهل حروب الردة ، وكان مالك بن نويرة من زعمائهم ، ولعل ذلك سبب قتل خالد بن الوليد له ، لأنه رآه (مثورا) للعامة ومغرياً لهم .

ـ كما هو الشأن فى حمل التبعات على القادة والرؤساء ـ إذ العامة أتباع كل ناعق ، ومجرد النطق بالشهادتين مانع من القتل لأجل الكفر ، وبقى القتل لأجل حقوق الإسلام ، وقد ثبت القتل على الصلاة ، وثبتت مقارنة الزكاة

---

(١) تاريخ خالد بن الوليد ص ١٠٨ - ١١٠ .

للصلاة فى آيات القرآن وكلمة الشهادة قد يسهل النطق بها على من لم يعتقد الإسلام فجعلت الصلاة والزكاة دليلا على صدق المسلم فيما نطق به [١] .

ولم يفت الأستاذ العقـــاد أن يدلى برأيه فى هذه القضية فقال فى معرض تعقيبه عليها « والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً فى أمر مالك بن نويرة ، وأن مالـكا كان أحق بإرساله إلى الخليفة بين زعماء تميم وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة ، وأن خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة . . . . . وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول إن وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذفت ولم تـكتب على قول من جميع تلك ، لأنهـا لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيراً ولا قليلا ، وأعدفته لملام أحد ما يحمد منه أن له عذراً فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون .

يجب تقرير هذا عند تقرير خالد لأنه الحق الذى لا يعـــلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والأعمال [٢] .

ومن الباحثين من رأى عدم البحث فى هذه القضية طويلا لأن خالداً له من الفخر والفخار ما ليس لغيره وإن حسناته من الـكثرة بحيث تتلاشى أمامها هذه الذلة إن صحت على حد قول بعض الزاعمين فما قاله : « فما مالك وما ليلى إلى جانب المئات والألوف من الرءوس الطائرة عن أجسادها هى فخر خالد، وهى التى جعلته سيف الله ، فإن أصاب سيفه رهق فى لحظة من اللحظات

(١) « الإسلام وأصول الحكم » ص ٣٣ .
(٢) « عبقرية خالد » ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

فقد أصاب هذا السيف النصر والفخار فى سنوات وسنوات [1] .

والذى نراه بعد هـذا كله أن الروايات التى جاءت فى مصادر التاريخ الإسلامى والمنقول عن أبى قتادة لا تشير صراحة إلى أن خالدا قتل مالـكاً من أجل التزوج بامرأته بل إن الذى نكاد نرجحه هو أن أبا قتادة غضب لإقدام خالد على الزواج فى الحرب مخالفاً لعادة العرب ومجلبا على نفسه شبهة قد يستغلها المرتدون ضد المسلمين فى هذا الظرف العصيب والذى يدعم ما ذهبنا إليه أن أبا بكر لو ثبت لديه سوء نية خالد بما فعله بمالك بن نويرة لما أرسل خالداً إلى قتال مسيلمة الـكذاب بعد الذى حدث فى البطاح ولئن قال قائل إن الخليفة وجد نفسه مضطراً إلى الإستعانة بخالد بسبب ثورات المرتدين . قلنا له أن هذا مردود عليه من وجوه .

أولها : إن أبا بكر لا يقبل تهاون فى أمر من أمور الدولة الإسلامية مهما كان الظرف صعباً .

ثانيها : إنه لا يتصور من الخليفة إرسال خالد ثانية لقيادة جيش جرار عهد إليه بقتال مسيلمة الـكذاب أقوى المرتدين إلا إذا كان على يقين من أن جيش المسلمين سيدين بالطاعة لخالد ولن يحدث هـذا إلا إذا كانت ساحة القائد بريئة من فعل شىء كهذا .

ثالثها : إن أخذ خالد بن الوليد ليلى معه فى موقعة اليمامة يدلك بلا ريب على أن زواجه كان بمنأى عن كل شبهه وإلا فـكيف يتصور أخذه لها فى هذه الموقعة الهامة ومن بين جنده من شهد أمر زواجه بها إلا أن يكون هذا الزواج قد قام على أساس قوى .

---

(١) د. هيكل « الصديق أبو بكر » ص ١٤١ .

ومهما يكن من أمر فإننا نكاد نميل إلى القول الذى يقول إن هـذه القضية من القضايا التى يصعب الحكم عليها فإذا كان فيها روايات تلقى باللائمة على خالد فإن هناك روايات أخرى تدفع عنه هذه اللائمة . ومن ثم فإن الرأى الذى ذهبنا إليه هو أقرب للقبول للتوفيق بين الروايات حيث إنها قوية الإسناد .

حركة مسيلمة الكذاب : ـ

سبق لنا الإلماع إلى أن مسيلمة بن حبيب زعيم هذه الحركة قد جاهر بردته أثناء حياة الرسول ﷺ وأن النبى ﷺ قد وقف من ادعاء مسيلمة النبوة موقفا قويا دون مراعاة لقوة قبيلته يتجلى ذلك فى كتاب النبى محمـد ﷺ الذى أرسله إلى مسيلمة رداً على كتابه والذى فيه أن الملك هو لله دون أحد من البشر (١) .

ولما آلت الخلافة إلى أبى بكر الصديق عهد إلى خالد بن الوليد بالتوجه لقتال مسيلمة الذى كانت حركته من أقوى الحركات لأن نهار الرجال الذى بعثه النبى ﷺ ليعلم قوم مسيلمة الإسلام شهد كذبا أن رسول الله ﷺ أشرك مسيلمة معه فى النبوة وشاع صدق ذلك بين الرعية بحيث أن كثير منهم قاتل وهو يظن أنه يقاتل تحت لواء نبى (٢) .

وقد حاول مسيلمة التغلب على كل العقبات التى واجهت دعوته حتى

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ١٣٠ .
المقريزى ، إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٢) أبو زيد شلبى ، تاريخ خالد بن الوليد ، ص ١١٦ .

يتفرغ لقتال جيوش المسلمين إن هى فاجأته . فحين جاءته سجاح بقواتها اضطر إلى ممالأتها بل والزواج منها بعد أن آمنت بما نزل عليه من وحى فلما رجعت إلى قومها بعد ثلاثة أيام قضتها مع مسيلمة سألوها عن الدوافع التى جعلتها تؤمن به وتتزوج منه فأجابتهم بقولها « إنه كان على الحق فأتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئا ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعى إليه ، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق فرجعت فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال : مالك ؟ قالت : أصدقنى صداقا ، قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث ابن ربعى الرياحى ، قال : على به ، فجاء فقال : ناد فى أصحابك أن مسيلمة ابن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما آتاكم به محمد . صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . إلا أن هذا لم يقنع سجاحا فظلت عند مسيلمة برجالها حتى اضطر إلى مصالحتها على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة كل عام »[1] .

ويلوح لنا أن مسيلمة الكذاب ما نزل على حكم سجاح إلا لعلمه بأنها تملك من أسباب القوة ما لا طاقة له به وهذا يجعلنا نؤكد على أن العامل الخارجي كان له دور أى دور فى سبب قيام بعض حركات الردة . .

وعلى أية حال فإن مسيلمة الكذاب لما أرسل إليه الصديق عكرمة ابن أبى جهل ثم شرحبيل بن حسنة لقتاله تمكن من هزيمتهما واحدا بعد آخر لأن كل واحد منهما لم يكن يعنيه إلا الإسراع للقاء مسيلمة حتى يحوز لنفسه شرف إحراز النصر عليه[2] .

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥
ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٢٤٤ .

لم يهنأ مسيلمة طويلا بانتصاره هذا حتى فاجأه خالد بقواته عند عقرباء[١] فالتقى به فى معركة ضروس سالت فيها آلاف الأنفس على ظبى السيوف وصبر الفريقان فى هذه المعركة أياما وكل منهما يشحذ من همة جنوده فشرحبيل ابن مسيلمة يقول لجند أبيه « اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير خطيبات ، فقاتلوا عن أحسابكم وأمنعوا نساءكم » وهذا ثابت يخطب فى جند المسلمين فيقول « يا معشر المسلمين ، أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه ، أرونى كما أريكم ، ثم جلد فيهم حتى حازهم » وقال أبو حذيفة : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال »[٢] .

وبينما المعركة تدور استطاع جند مسيلمة الوصول إلى فسطاط خالد وكادوا يفتكون بامرأته أم تميم إلا أن الذى حال بينهم وبين ذلك مجاعة بن مرارة الذي أسره خالد وهو فى الطريق إلى اليمامة .

أيقن خالد أنه لا سبيل أمامه يمكنه من إحراز النصر على مسيلمة إلا إذا أعاد ترتيب جند المسلمين وتمييز كل فئة منهم حسب الحى الذى ينتمى إليه فقال لهم « يا أيها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » فامتاز أهل القرى والبوادى ، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم ، فقاتلوا جميعا ، فقال أهل البوادى يومئذ :

---

(١) منزل من أرض اليمامة ، فى طريق النباج ، اختارها مسيلمة لأنها فى طرف اليمامة فكان مقتله بها .
ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، جـ٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ صـ٢٨٨ — ٢٩١ .

الآن يستحر القتل في الأجزع الأضعف فاستحر القتل في أهل القرى وثبت مسيلمة ، ودارت رحاهم عليه ، فعرف خالد أنها لا تؤكد إلا بقتل مسيلمة ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم . ثم برز خالد ، حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى وقال: أنا ابن الوليد العود ، أنا ابن عامر وزيد ونادى بشعارهم يومئذ وكان : يا محمداه ولجأ خالد إلى الخديعة فطلب من مسيلمة المفاوضة وعرض عليه أشياء يقدمها المسلمون له فلما التفت مسيلمة خلفه كأنه يفكر فيها أخذته سيوف المسلمين على غرة فخر على الأرض فاحتز رأسه وحشي[1] وطالب خالد جنود المسلمين بمواصلة الحملة على بني حنيفة ومحكم اليمامة ينادي عليهم الحديقة[2] الحديقة فتحصنوا بها وطال حصار المسلمين لها حتى نزلها البراء بن مالك[3] وفتح بابها فدخلها المسلمون وأعملوا السيف

---

(١) هو بن حرب الحبشي ، مولى بني نوفل ، أبو دسمة ، كان من أبطال الموالي في مكة في الجاهلية ، قاتل حمزة عم النبي ﷺ في واقعة أحد ، وعفر مع أهل الطائف على النبي ﷺ بعد أخذها وأسلم فقال له النبي ﷺ غيب عني وجهك يا وحشي لا أراك ، شارك في حرب المرتدين وقتل مسيلمة الكذاب وزعم أنه قتله بالحربة التي قتل بها حمزة ، وكان يقول . قتلت بحربتي هذه خير الناس وشر الناس ، شهد اليرموك وفتح حمص ، سكن حمص ومات فيها .

ابن حجر « الإصابة » ج ٣ ص ٥٩٤ .

(٢) تشمل بساتين القرية المسورة بالجدران ، وهذه البساتين كثيرة في قرى اليمامة وحديقة الموت واقعة في الوادي تحيط بها الجدران المبنية بالحجر والطين وارتفاعها أكثر من قامة .

الذهبي « تاريخ الإسلام » ج ٣ ص ٣٣ — حاشية رقم (٣) .

(٣) هو بن النضر الخزرجي الأنصاري ،

صحابي من أشجع الناس وبطل من الأبطال الأشداء ، قتل مائة شخص مبارزة =

في بني حنيفة [1] فقتل منهم عدد كبير .

ولما رأى مجاعة أن القتل قد استحر في قومه عمد إلى مخادعة خالد فأوهمه أن الذين شاهدهم يقاتلون مع مسيلمة ليسوا إلا سرعان الناس وأن جماهير الناس في الحصون فقال خالد لمجاعة : ويلك ما تقول ؟ قال مجاعة : هو والله الحق ، فهلم لأصالحك على قومي فصالحه على كل شيء دون الأنفس وقال خالد : أنطلق إليهم فأشاورهم . فانطلق إليهم وليس في الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فألبسهم الحديد وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم فرجع إلى خالد فقال : قد أبوا وأن يجيزوا ما صنعت ، فرأى خالد الحصون مملوءة وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء وأحبوا أن يرجعوا على الظفر ولم يدروا ما هو كائن .

ولما وقف خالد على خديعة مجاعة له لم يبادر إلى نقض الصلح وبعث وفد بني حنيفة إلى أبي بكر فقبل منهم الإسلام [2] .

= عدا من قتل في المعركة ، هو أخو أنس بن مالك ، إشترك في فتح تستر مع مجزأة بن ثور .

الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ص ٣٠ .

عبد السلام الترمانيني ، أزمنة التاريخ الاسلامي ، ج ٢ ص ٥٤١ .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٩٣ .

أبو بكر بن عربي ، العواصم من القواصم ، ص ٦٧ .

السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٧٦ .

ابو شلبي ، تاريخ خالد بن الوليد ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٩٥ .

وقد اختلف الرواة فيما بينهم حول تاريخ وقعة اليمامة التي أبير فيها مسيلمة وأصحابه فقال « خليفة بن خياط ومحمد بن جرير الطبري : كانت في سنة إحدى عشرة قال عبد الباقي بن قانع : كانت في آخر سنة إحدى عشرة . وقال أبو معشر : كانت اليمامة في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة . وقال الواقدي : كانت سنة سنة اثنتي عشرة ، وكذلك قال أبو نعيم وممن ابن عيس ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وغيرهم » وقد وفق الإمام الذهبي بين هذه الأقوال فقال « لعل مبدأ وقعة اليمامة كان في آخر سنة إحدى عشرة كما قال ابن قانع ، ومنتهاها في أوائل سنة اثنتي عشرة ، فإنها بقيت أياما لمكان الحصار[1] .

ومهما يكن من أمر فإن انتصار المسلمين في اليمامة يرجع كما يقول بعض الباحثين إلى الأسباب التالية :

١ — أمر خالد الناس بأن يمتازوا ، ليتبين أهل العزم ، حقا لقد كانت فكرة موفقة ، فقد تبين أهل العزائم ، واستحيا أهل الشرف من الهزيمة .

٢ — وقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة وهو كالأسد المصور ، لا يخرج إليه أحد إلا صرعه فحين رأى المسلمون ذلك تذامروا وتراموا على الموت .

٣ — كان يؤازر خالدا كثير من أهل النجدة والفداء الذين باعوا أنفسهم في طاعة الله ، وطلبوا ما عنده أمثال حذيفة الذي كان يذمر الناس

= ابن الأثير « الكامل » ج ٢ ص ٣٦٥ .
أبو زيد شلبي « تاريخ خالد بن الوليد » ص ١١٥ .
(١) الذهبي (تاريخ الاسلام) ج ٣ ص ٢٤ ، ٣٥ .

يقوله « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » فصادفت مهارة خالد وسياسته الحربية نفوسا دعاها فلبت سراعا.

٤ — كان أبو بكر قد أمد خالداً بسليط ليكون ردءا له لئلا يؤتى من خلفه فكان المسلمون يقاتلون وهم آمنون على ظهورهم ، وجهدهم منصرف لمواجهة عدوهم :

٥ — كان بعض من ناصر مسيلمة إنما ناصرة للعصبية فقط ، وهو يعتقد كذبه أو على الأقل يشك في أمره وإني أرجح أن جانبا كبيرا من جنده كان يساور نفوسهم الشك في أمره ، والشك في مثل هذه الأحوال كاف لزلزلة قلوبهم ، وفتور عزائمهم [1].

حركة الأسود العنسي : —

قامت هذه الحركة في بلاد اليمن ويعد صاحبها أول مرتد في حياة النبي حيث جاهر الأسود بردته في عام حجة الوداع.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى باذان [2] حكم اليمن حين دخلت الإسلام فظل عليها حتى توفي فخلفه فيها ابنه وجعل رسول الله ﷺ معه عمالا آخرين على مناطق اليمن.

---

(١) أبو زيد شلبي (تاريخ خالد بن الوليد) ص ١٠٧ ، ١١٨ .

(٢) ابن ساسان ، من ولد بهرام جور ملك الفرس ، كان واليا على اليمن من قبل كسرى ، أسلم في السنة التاسعة للهجرة وهو أول أمير في الاسلام وأول من أسلم من ملوك العجم ، بعد موته أمر النبي ﷺ ابنه شهر بن باذان ، ولما قتل أمر خالد بن سعيد بن العاص .
ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ١ ص ٤٥١ - ٤٩٢ .

فلما خرج الأسود على الناس بدعوته أرسل إلى عمال النبى كتابا جاء فيه أن أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه »[1].

فلما علم رسول الله ﷺ عن طريق عماله بخروج الأسود ، أرسل إليهم مع وبر بن يحنس الأزدى يأمرهم بمناهضة الأسود وأخذه إما مصادمة أو غيلة .

أخذ نجم هذا المرتد فى الصعود يوما بعد يوم حتى صفا له إقليم اليمن وفعل فيه كل ما يحب ولم تكد تمضى على ردته سوى أربعة أشهر حتى أستطاع قيس ابن عبد يغوث تيسير السبل لفيروز وأتباعه الذين مالأوا إزاد زوج هذا المرتد كى يتمكنوا من أخذ الأسود على غره وهو فى مكان نومه ولما تمكن فيروز وجنده من الدخول على الأسود أعملوا السيف فيه وحين سمع الحراس أصواتا تنبعث من داخل حجرة الأسود سألوا زوجه عما إذا كان مكروه قد نزل بقائدهم قالت لهم إن النبى يوحى إليه[2] .

فلما طلع الفجر نادى المسلمون بالآذان وقال مؤذنهم أشهد أن محمدا رسول الله وأن عبهلة كذاب فلما أقبل الناس ألقيت إليهم رأس الأسود ففرح البعض وثار البعض الآخر ثم عاد العدو إلى صنعاء حاضرة اليمن بعد فترة قصيرة وأعيد عمال النبي إلى مناطق حكمهم فى اليمن[3] . وهكذا طويت صفحة

---

(١) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ١٠ - عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٦١ .

(٢) ابن كثير ، بداية ونهاية ، ج ٦ ص ٣٠٨ . الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ١٢ . أبو زيد شلبى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٣٤٠ . الذهبى « تاريخ الإسلام » ج ٣ ص ١٤ . الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٥٤ ،

الأسود كما طويت غيرها من صحائف للرتدين وفى رأينا أن أسباب انتصار المسلمين على الأسود ترجع إلى ما يلى : ـ

١ ـ أن حركته قامت دون تأييد السواد الأعظم من سكان اليمن وحتى الذين آمنوا منهم كانوا مكرهين أو طلاب نفع دنيوى رأوا أنه لا يتحقق إلا إذا انضموا لهذا المرتد .

٢ ـ الدور الذي قامت به إزاد زوج الأسود العنسى مع المسلمين كان هو السبب المباشر فى إدالة حركة هذا المرتد ذلك أنه تزوجها بعد قتل زوجها وأبيها فلم تدع الفرصة التى واتتها للانتقام منه تضيع دون أخذ الثأر لأبيها وزوجها .

٣ ـ قوة إيمان هذه الفئة التى ظلت على دينها على الرغم من بطش الأسود العنسى باليمن مما جعلهم يبحثون فى حنكة وكياسة عن وسيلة تمكنهم من قتله دون الدخول معه فى معركة حربية حيث إن البون شاسع بين الفئتين فى العدد .

ردة أهل عمان [١] : ـ

خرج بهذا البلد رجل يقال له : ذو التاج ، لقيط بن مالك الأزدى وادعى

(١) بضم الاول وفتح الثانى ، دولة عربية ذات تاريخ طويل متصل تحتل القرن الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية . وتطل على المحيط الهندى العربى (بحر العرب) والخليج المسمى باسمها ، عرفت باسم سلطنة عمان منذ عام ١٩٧٠م حين قام قابوس بن سعيد بن تيمور بانقلاب داخلى ضد حكم والده فى ٢٣ يوليو من العام وكانت تعرف باسم سلطنة مسقط . أحمد عطية الله (القاموس الإسلامى) جـ ٥ صـ ٥٩٨ - ٥٠٩ .

النبوة على غرار غيره من المرتدين الذين أسلفنا الحديث عنهم فبعث جيفرا عامل المسلمين على عمان إلى الصديق يطلعه على الأمر ويستمده الجيوش من أجل التصدى لهذا المرتد فبعث إليه الصديق حذيفة بن محصن الحميرى وعرفجه البارقى من الأزد على رأس قوات وصلت إلى عمان فى وقت كان المسلمون بها أحوج مايكون إليها ذلك أن لقيط بن مالك خرج برجاله إلى دبا للتصدى لقوات المسلمين بقيادة جيفر وعبادة ودارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس كادت تدور الدائرة فيها على المسلمين لولا وصول المدد إليهم فأنقضوا على المرتدين بالسيوف فولوا الأدبار أمام قوات المسلمين وقتلوا قتلة ليس لها مثيل وسبوا الرازى وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها، وبعثوا بالخمس إلى الصديق رضي الله عنه مع أحد الأمراء وهو عرفجه، ثم رجع إلى أصحابه[1]

ردة أهل مهرة : —

خرج أهل هذا البلد على الخليفة بقيادة رجلين هما المصبح، أحد بنى محارب شخريت ولم يكن بين الرجلين من الوفاق ما يمكنهما من التصدى لقوات عكرمه بن أبى جهل الذى استطاع بسياسته إحراز إنتصار فى مهرة يجبب ما وقع عليه من هزيمة عند لقائه بمسيلمه الكذاب كما أسلفنا .

ويعزى انتصاره هذا إلى نجاحه فى أستماله شخريت إليه فرده إلى الإسلام وقبل منه الصدقات .

أما المصبح فإنه ظل على ردته حتى نكل به عكرمة وأستأصل شأفه

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٢ ص ٣٧٣ ابن كثير (بداية ونهاية) ج ٦ ص ٣٣٠ .

أتباعه فعادت مهرة بعد ذلك إلى الإسلام وقد قمت الردة فيها .

ردة أهل البحرين [1] :-

دخلت البحرين الإسلام عندما أستجاب ملكها المنذر بن ساوى إلى مبعوث النبي محمد ﷺ الذي جاءه بكتاب بعثه النبي إليه ودعاه فيه إلى دخول الإسلام .

ظل المنذر محافظا على تعاليم الدين في بلاده حتى أدركته المنية بعد وفاة النبي ﷺ بقليل .

فدخلت البلاد بعد وفاته في منعطف خطير وارتد أهلها عن الإسلام بيد أن قبيلة قيس قد عادت إلى الدين الحنيف بعد ردتها بقليل نتيجة الجهود التي قام بها الجارود بن المعلى [2] فقد وقف في قبيلته خطيبا وقال لهم « يامعشر

---

(١) إمارة عربية تطل على الخليج العربي (الفارسي) تتكون من مجموعة جزر تقع بين شبه جزيرة قطر وساحل الاحساء السعودي ، تبلغ جملة مساحتها ٢٣١ ميلا مربعا وأكبر هذه الجزر (البحرين) ويبلغ طولها ٢٧ ميلا وعرضها ١٠ اميال . أحمد عطية الله (القاموس الإسلامي) ج١ ص ٢٧٩ .

(٢) هو بن عمرو بن حنش بن المعلى العبدي (من عبد قيس) وسيدهم ، أبو المنذر . جاء في السنة العاشرة في وفد قيس إلى النبي ﷺ وأسلم وكان من قبل على دين النصرانية وقد فرح النبي ﷺ باسلامه ولما ارتد قومه لم يرتد معهم ، وشهد شهادة الحق ودعا إلى الإسلام . اشترك في فتوح العراق وفارس وكان من القادة الشجعان . وكان من قواد الحملة على اصطخر ، قيل اسمه (بشر) والجارود لقبه لانه أغار على بكر بن وائل فأصابهم وجردهم . ابن سعد (الطبقات) ج ٥ ص ٣٠٢ .

عبد القيس ، إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتموه ولا تجيبونى إن لم تعلموا قالوا : سل عما بدا لك ؛ قال : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا : نعم ، قال: تعلمونه أو ترونه ؟ قال قالوا : لا بل نعلمه ، قال : فما فعلوا؟ قالوا : ماتوا قال : فإن محمدا ﷺ مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا آله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك سيدنا وأفضلنا . وثبتوا على إسلامهم [١] .

أحسن العلاء بن الحضرمى قائد قواد الخليفة التى عهد إليها قتال المرتدين فى هذه المنطقة التنسيق بينه وبين الجارود بن المعلى . ذلك أن الأخير كان يبث العيون على المرتدين بقيادة الحطم بن ضبيعه ويرسل بالأخبار أولا بأول إلى العلاء بن الحضرمى .

وقف المعسكران على حدود خندق حفره المرتدون وقد جرت بينهما الفينه بعد الفينه مناوشات وكل فريق منهما يود فرصة تمكنه من أخذ الفريق الآخر على غره وبينما هم كذلك إذا بضجيج يتعالى فى معسكر المرتدين فبعث العلاء عبد الله بن حذف فدخل عليهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب فرجع إليه فأخبره ، فاهتبل العلاء الفرصة وأمر قواته بالركوب فانقضوا عليهم وأعملوا فيهم السيف والمرتدين فى ذعر شديد أذهلهم عن التفكير فى أى شىء إلا النجاة بالأنفس واستولى المسلمون على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم فكانت غنيمه وقد لاذت فلول المرتدين الناجية بدارين[٢] فلاحقهم

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٣٠٢ .

(٢) ميناء بجزيرة البحرين ، اختفى اسمها اليوم . كانت مركزا لتجارة الهند لاسيما العطارة وكانت بها سوق مشهورة لتجارة المسك خاصة ، ومن ثم عرف =

العلاء فيها بعد أن عبر البحر إليهم وكتب إلى أبي بكر يخبره بالفتح وما أفاء الله به على جند الإسلام من الخير والبركة فقال العلاء « أما بعد ، فان الله تبارك أسمه سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب ، أصابوا من النهار فاقتحمنا عليهم خندقهم ، فوجدناهم سكارى ، فقتلناهم إلا الشريد وقد قتل الله الحطم » [1].

وعلى كل حال فإن العلاء ظل بهذه البلاد حتى دعم الاسلام بها .

مما تقدم نستطيع القول بأن حروب الردة قد أبرزت للعرب أن رابطة هى أسمى الروابط وأن ما عداها كرابطة القبيلة وغيرها قد تلاشى وأن الإسلام ليس مرتبطا بشخص النبي محمد ﷺ كما أن هذه الحروب قد أوضحت فى جلاء حسن تخطيط الخليفة وتنظيمه للجيش وإرسال الإمدادات إلية فى كل شكل منظم يعجز عنه أبرز القادة فى عصره .

يضاف إلى هذا أن هـــذه الحروب كانت بمثابة نقطة أنطلاق لجيوش الإسلام إلى فتح أملاك دولتى الفرس والروم فيما بعد وقد أعانهم على ذلك هذا الانتصار الذى أحرزوه على المرتدين فى هذا الوقت العصيب من ناحية أخرى هذه الثقافة الحربية التى نال المسلمون قسطا كبيرا منها فى معاركهم مع المرتدين .

= العطار بالتدارى نسبة إليها . وفى الحديث ، مثل الجليس الصالح مثل الدارى ، إن لم يحذك من عطره علقك ريحه ، فتحت حول عام ١٢ ﻫ (٦٣٣ م) فى خلافة أبى بكر على يد العلاء بن الحضرمى ، ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع) ج ٢ ص ٥٠٩ أحمد عطيه الله (القاموس الاسلامى) ج ٣ ص ٣٢٨ .

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٣١٣ . ابن كثير (بداية ونهاية) ج ٦ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ . أحمد الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٦٠ ، ٦٢ .

وعلاوة على هذا كله فإن هذه الحروب قد وضعت حداً نهائياً لكل من تسول له نفسه ادعاء النبوة في قومه ، فما حدث لكل أدعياء النبوة من المرتدين وغيرهم من التنكيل والإحراق كان بمثابة السلاح القوى لاعجالة واقع على أى انسان يود فعل مثل هؤلاء المتنبئين [1].

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها الصديق فى الحكم حتى توفى فإنه قد قام بأعمال لولاها لضاع الإسلام ومن ثم استحق بحق أن يطلق عليه لقب مجدد الإسلام .

وفاة الصديق : —

اختلفت الروايات فيما بينها حول سبب إصابة الصديق بالمرض الذى توفى منه فبعضها يعزو وفاته إلى سم سمه به اليهود والبعض الآخر يعزها إلى حمة نزلت به .

فمن الأول ما رواه أبو زيد عن على بن محمد « أن اليهود سمت الصديق فى أرزة ، ويقال فى جذيذة وتناول معه الحارث بن كلدة [2] منها ثم كف وقال لأبى بكر : أكلت طعاما مسموما سم سنة . فمات بعد سنة ، ومرض خمسة عشر

---

(١) أبو زيد شلبى (الخلفاء الراشدون) ص ٦٠ . عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٦٩ . السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ١٨٠ . الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٦٨ .

(٢) هو من أهل الطائف . طبيب العرب فى عصره وأحد الحكماء المشهورين أخذ الطب عن فارس . ولد فى الجاهلية وعاش فى أيام الرسول ﷺ وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وتوفى أيام معاوية وكان النبى ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده . الزركلى (الأعلام) ج ٢ ص ١٥٩ .

يوما ، فقيل له : لو أرسلت إلى الطبيب فقال : قد رآنى ؛ قالوا : فما قال لك؟ قال : أنى أفعل ما أشاء .

ومن الثانى ما رواه طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قالوا « كان أول ما بدأ مرض أبى بكر به أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من من جمادى الآخر ، وكان يوما باردا فحم خمسة عشر يوما لا يخرج إلى الصلاة وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس ويدخل الناس يعودونه ، وهو يثقل كل يوم . وهو نازل فى داره التى قطع له رسول الله ﷺ تجاه دار عثمان ابن عفان اليوم وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه وتوفى أبو بكر مسى ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخر سنة ثلاث عشرة من الهجرة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال » [1].

وإن كان لنا أن نرجح رواية على أخرى فإننا نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية دون الأولى حيث إنها منقولة عن واحد من آل بيت الصديق ولا مراء و أنه يعرف من خفايا الأمور ما يصعب على غيره الإلمام به يضاف إلى هذا ن مصادر التاريخ الإسلامى التى نقلت لنا هذه الرواية لم تذكر موقف للمسلمين من هذا اليهودى بعد ثبوت اتهامه بهذا الأمر مما يدعونا إلى الشك فيها .

وسواء أصح هذا أو لم يصح فإن الصديق قد أوصى أهله بأن تقوم على تغسيله . أسماء بنت عميس [2] وأن يكفن فى ثوبين من ثيابه التى يستعملها

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ . ابن كثير (بداية ونهاية) ج ٧ ص ١٨ .

(٢) ابن معن بن تميم بن الحارث ، من خثعم . أسلمت مبكرة وهاجرت مع زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له عبد الله وعوفا ومحمدا . لما قتل عنها =

ولما عرضوا عليه الإتيان بجديد قال « الحي أحق بالجديد من الميت وإنما هما للمهلة والصديد » .

وقد دفن رضوان الله عليه إلى جوار النبي محمد ﷺ وخلفه في الحكم عمر بن الخطاب [١] .

= جعفر في وقعة مؤتة سنة ٨ هـ تزوجها أبو بكر فولدت له محمدا ، وبعد وفاة أبي بكر تزوجها علي بن أبي طالب فولدت له يحيى وعونا وماتت بعد مقتل علي بقليل . ابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ ٨ ص ٢٠٥ . ابن حجر (الاصابة) جـ ٤ ص ٣٢٥ .

(١) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص ٤٢١ . ابن الأثير (الكامل) جـ ٢ ص ٩١؛ ، عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٧٧ .

الفصل الثالث

«خلافة عمر رضوان الله عليه»

لم يكن أبو بكر الصديق يترك لحظة مذ تولى أمر الخلافة إلا ويفكر فيما يصلح الأمة .

ولما أحس بدنو أجله أعيد إلى ذكرته ما دار في السقيفة من مناقشات كادت تؤدي إلى افتراق الأمة لولا الجهود التي قام بها أبو بكر وأتباعه من الأنصار والمهاجرين . ومن ثم أخذ يفكر في الشخص الذي يخلفه من بعده في أمة محمد واضعا في اعتباره أن يكون الرجل المختار يحظى باحترام الرعية ويستطيع النهوض بالمسئولية التي تلقى على عاتقة والتي تلقى على عاتقه والتي ازدادت ثقلا على ثقل بعد اتساع رقعة الإسلام في عهد الصديق ودخول العديد من الأجناس فيه بعد الفتوح التي قام بها رضوان الله عليه[1] والتي سنتحدث عنها في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

أرسل أبو بكر في طلب كبار الصحابة واحد بعد آخر ليعرض عليهم اختياره لعمر بن الخطاب ليكون خليفة على الأمة من بعده .

فقد روى الواقدي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال ولما نزل بأبي بكر

---

(١) محمد ضياء الريس (النظريات السياسية الاسلامية) ص ١٨ . د . محمد حلمي محمد (الخلافة والدولة في العصر الأموي) ص ٣٣

رحمة الله الوفاة وعاد عبد الرحمن بن عوف [1] ، فقال أخبرنى عن عمر فقال
يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولـكن فيه غلظة
فقال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقا ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما
هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته ، فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى الشيء
أرانى الرضا عنه وإذا لنت له أرانى الشدة عليه ، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت
لك شيئا قال : نعم ثم دعا عثمان بن عفان ، قال : يا أبا عبد الله ، أخبرنى
عن عمر قال : أنت أخبر به ، فقال أبو بكر : على ذلك يا أبا عبد الله قال :
اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وإن ليس فينا مثله . قال أبو بكر
رحمه الله : رحمك الله يا ابا عبد الله ، لا تذكر مما ذكرت لك شيئا ، قال :
افعل ، فقال له أبو بكر : لو تركته ما عدوتك ، وما ادرى لعله تاركه والخيرة
له ألا يلى من أموركم شيئا ولوددت إنى كنت خلوا من أموركم ، وإنى كنت
فيمن مضى من سلفكم ، يا أبا عبد الله ، لا تذكرون مما قلت لك من أمر عمر
ولا مما دعوتك له شيئا وسأل أسيد بن حضير [2] فقال : اللهم أعلمه الخير

---

(١) ابن الحارث بن زهرة القرشى الزهرى ، من كبار الصحابة وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع رسول ﷺ كان غنيا ومحدودا فى التجارة ، خلف مالا كثيرا وكان من الأجواد أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة وسماه النبى ﷺ عبد الرحمن . ابن حجر (الاصابة) ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٢) ابن سماك بن عتيك الأوس الأنصارى أبو يحيى ، كان شريفا فى الجاهلية والإسلام مقدما فى قبيلته (الأوس) ، يعد من عقلاء العرب وذوى الرأى فيهم ويسمى الكامل شهد العقبة . وكان أحد النقباء الاثنى عشر ، شهد أحدا وجرح سبع جراحات وثبت مع الرسول ﷺ حين انكشف عنه الناس توفى بالمدينة فى خلافة عمر ، ابن سعد (الطبقات) ج ٣ ص ١٣٥ .

الخير بعدك يرضى للرضا ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ، ولن يلي هذا الأمر أقوى عليه منه واستشار سعيد بن زيد[١] وغيره من المهاجرين والأنصار فكلهم أثنى وقال خيرا [٢].

فلما أطمأن الصديق إلى حسن اختياره أرسل إلى عثمان بن عفان لحضر بين يديه وأملى عليه العهد لعمر بن الخطاب فقد روى الواقدي أن العهد فيه بسم الله الرحمن الرحيم « هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين ، أما بعد قال : ثم أغمي عليه ، فذهب عنه ، فكتب عثمان : أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلكم خيرا منه ، ثم أفاق أبو بكر فقال أقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي قال : نعم ، قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله ، وأقرها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع » . [٣]

وعندما فرغ الصديق من كتابة العهد خرج على الناس ليعلن أمامهم ما أستقر عليه الرأي في استخلاف عمر فلما علم طلحة بن عبيد الله [٤] بالأمر

---

(١) ابن عمرو بن نفيل العدوي القرشي ، كان من خيار الصحابة هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها إلا بدراً وكان غائباً في مهمة أرسله بها النبي ﷺ . هو أحد العشرة المبشرين بالجنة شهد اليرموك وحصار دمشق ، ولاه عمر بن الخطاب على دمشق بعد فتحها فهو أول ولاتها في الإسلام ، ولد بمكة وتوفي بالمدينة . ابن سعد (الطبقات) ج٣ ص ٢٧٦ .

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ١ ص ٤٢٨ . أبو زيد شلبي (الخلفاء الراشدون) ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج٣ ص ٤٢٩ .

(٤) ابن عثمان القرشي التيمي ، أبو محمد صحابي شجاع من الأجواد . دعاه =

قال للصديق « استخلف على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه وكيف به إذا خلا لهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك فقال أبو بكر أجلسوني فأجلسوه فقال : أبالله تخوفني إذا لقيت ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك » .[1]

وعلى كل حال فإن عمر بن الخطاب لما بويع بالخلافة إثر وفاة الصديق رقى على مراقي المنبر وخطب في الناس خطبة قصيرة جاء فيها بعد الحمد لله والصلاة على رسوله « إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق »[2].

وقد عقب بعض الباحثين على هذه الخطبة فقال « هذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده ، فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهيت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها ، بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال : أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق » ويفهم بالبداهة أنه الطريق الذي لا أعوجاج فيه .[3]

= النبي بطلحة الفياض وطلحة الخير وطلحة الجرد ، من المتقدمين في الإسلام . وأحد العشرة المبشرين بالجنة شهد أحدا وأبلى فيها بلاء حسنا وثبت مع رسول الله ﷺ وبايعه على الموت فأصيب بأربعة وعشرين جرحا شهد يوم الجمل محاربا بالعلي بن أبي طالب وقتل ودفن بالبصرة . ابن سعد (الطبقات) ج ٣ ص ١٥٢ .

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٤٣٣ . يوسف علي يوسف (الخلافة والخلفاء) ص ٥٩ .

(٣) أبو زيد شلبي (الخلفاء الراشدون) ص ١٠٩ .

وقد حفلت خلافة عمر بأعمال جليلة كان لها بلا شك عظيم الأثر فى الداخل والخارج فبالنسبه الأولى نظم الإدارات فكان أول من دون الدواوين .

وأما الثانية فإن عهده شهد نشاطا كبيراً فى الفتوحات الإسلامية ولسنا هنا بصدد الحديث عن الأمرين المذكورين حيث سنفرد مؤلفا لكل واحد منهما فى عصر الراشدين فإن الذى يعنينا فى مؤلفنا هـذا ذكر البيعة لهم والحركات والفتن التى قامت فى عصرهم .

مقتل عمر : —

لما جلس عمر بن الخطاب فى دست الخلافة وضع نصب عينيه ضرورة بقاء المجتمع المدنى بمنأى عن مخالطة للسبيين ممن بلغوا الحلم لأفراده حتى تصبح حاضرة الدولة الإسلامية فى مأمن من الفتن التى قد يثيرها هؤلاء ولا سيما من بقى منهم على دينه ولم يعتنق الإسلام بعد .

ظل هذا النظام معمولا به حتى كتب المغيرة بن شعبه [1] لعمر بن الخطاب

---

(١) هو ابن أبى عامر بن مسعود الثقفى ، أبو عبد الله ، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة والدهاء ، أسلم عام الخندق وقدم مهاجراً وشهد الحديبية وبيعة الرضوان شهد حرب اليمامة وفتح الشام ووقعة اليرموك ، ولاه عمر البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان ثم عزله وولاه الكوفة . شهد القادسية ونهاوند وهمدان وأذربيجان ، وكان من القواد اعتزل النزاع بين على ومعاوية ولا معاوية الكوفة فظل فيها إلى أن مات ،

الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٦ صـ ١٣١ ، ابن الأثير (أسد الغابة) جـ ٤ ص ٤٠٦ .

كتابا يطلب فيه أن يأذن لأبي لؤلؤة المجوسي في القدوم إلى المدينة حتى ينتفع المسلمون به فكان سماح عمر له هو السبب المباشر في قتله .

وقد اختلفت الروايات في مقتل عمر فبعضها يشير إلى تبرئة ساحة كعب الاحبار[1] وغيره من مشاركة أبي لؤلؤة المجوسي في فعلته الشنعاء والبعض الآخر يثبت هذه المشاركة .

فمن الأول ما رواه الزهري كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه أن يدخل المدينة ويقول إن عنده صنعا ويستأذنه أن يدخل المدينة ويقول : إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس : إنه حداد نقاش نجار ، فأذن له أن يرسل به وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر فجاء إلى عمر يشتكي شدة الخراج ، قال : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتذمر ، فلبث عمر ليالي ثم دعاه فقال : ألم أخبر أنك تقول : لو شاء لصنعت رحى تطحن بالريح فالتفت إلى عمر عابسا وقال لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها ؟ فلما ولى قال عمر لأصحابه : أوعدني العبد آنفا ثم اشتمل أبو لؤلؤة على

---

(١) هو ابن ماتع بن ذى هجن الحميرى اليمانى ، أبو إسحاق : كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود باليمن . أسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في زمن عمر فجالس أصحاب النبي ﷺ ، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ويأخذ السنن عن الصحابة ، كان حسن الإسلام متين الديانة ، من نبلاء العلماء ، خرج إلى الشام وغزا مع الصحابة ، ثم سكن حمص وتوفى فيها .

ابن حجر (الاصابة) ج ٣ ص ٢٩٧ .

خنجر ذى رأسين نصاله فى وسطه ، فكمن فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس »[1].

وواضح من هذه الرواية أن الذى دفع أبا لؤلؤة لقتل عمر رضى الله عنه هو عدم إنصاف الخليفة له من سيده المغيرة بن شعبه دون أى سبب آخر .

وقد زادت هذه الحقيقة وضوحا . رواية ثابت البنانى التى تقول « كان أبو لؤلؤة عبدا للمغيرة يصنع الأرحاء ، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم فلقى عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن المغيرة قد أثقل على فكلمه فقال : أحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يكلم المغيرة فيه ، فغضب وقال : يسع الناس كلهم عدله غيرى ، وأضمر قتله واتخذ خنجرا وشحذه وسمه ، وكان عمر يقول (أقيموا صفوفكم) قبل أن يكبر فجاء فقام حذاءه فى الصف وضربه فى كتفه وفى خاصرته ، فسقط عمر وطعن ثلاثة عشر رجلا معه ، فمات منهم ستة ، وحمل عمر إلى أهله وكادت الشمس أن تطلع ، فصلى بن عوف بالناس بأقصر سورتين ، وأتى عمر بنبيذ فشربه فخرج من جرحه فلم يتبين ، فسقوه لبنا فخرج من جرحه فقالوا : لا بأس عليك ، فقال : إن يكن بالقتل بأس فقد قتلت ، فجعل الناس يثنون عليه ويقولون : كنت وكنت ، فقال : أما والله وددت أنى خرجت منها كفافا لا على ولا لى وأن صحبة رسول الله ﷺ ـ سلمت لى »[2].

---

(١) الذهبى (تاريخ الإسلام) جـ٣ ص ١٥٩ . ١٦٠ .
السيوطى (تاريخ الخلفاء) ص ١٢٣ .
(٢) الذهبى (تاريخ الإسلام) جـ٣ ص ١٦١ .

ومن الثانى ما رواه سلم بن جنادة عن المسور ابن مخرمة أنه قال (خرج عمر بن الخطاب يوما يطوف في السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان نصرانيا ، فقال : يا أمير المؤمنين أعنى على المغيرة بن شعبه ، فإن على خراجا كثيرا ، قال (وكم خراجك ؟ قال درهمان فى كل يوم ، قال وأيش صناعتك ؟ قال : نجار ، نقاش ، حداد قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال : نعم ، قال : فاعمل لى رحا ، قال : لئن سلمت لأعملن لك رحا يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه ، فقال عمر رضى الله عنه : لقد توعدنى العبد آنفا قال : ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له : يا أمير المؤمنين أعهد ، فإنك ميت فى ثلاثة أيام ، قال : وما يدريك ؟ قال : أجده فى كتاب الله عز وجل التوراة ، قال : الله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال . اللهم لا ، ولكنى أجد صفتك وحليتك ، وأنه قد فنى أجلك — قال : وعمر يحس وجعا ولا ألما — فلما كان من الغد جاءه كعب ، يا أمير المؤمنين ، ذهب يوم وبقى يومان قال : ثم جاءه غد الغد ، فقال : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها قال : فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة ، وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت جاء هو فكبر . قال ودخل أبو لؤلؤة الناس ، فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته ، وهى التى قتلته ، وقتل معه كليب بن البكير الليثى — وكان خلفه — فلما وجد عمر حر السلاح سقط ، وقال : أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا نعم يا أمير المؤمنين ، هو ذا قال : تقدم فصل بالناس ،

قال : فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح ، ثم احتمل فأدخل داره »[1] .

وإذا ما أمعن النظر فى الروايات الثلاث التى أسلفناها وجدنا أنها تتفق على أمر جوهرى وهو أن أبا لؤلؤة هو الذى قتل عمر بيد أنها اختلفت فيما بينها حول تحديد الأجر اليومى ، الذى كان على أبى لؤلؤة تأديته للمغيرة ، فالأولى تذكر أن الأجر اليومى ثلاثة دراهم بينما تذكر الثانية أربعة والثالثة درهمين ولم يكن هذا الخلاف الوحيد بين الروايات فإنها اختلفت كذلك فى موقف عمر بعد لقائه بأبى لؤلؤة .

فالرواية الأولى تقرر أنه استدعاه بعد أيام مضت على لقائه به فى المرة الأولى ليطلب منه عمل رحى تدور بالهواء بينما تذكر الرواية الثالثة أن هذا الطلب كان من عمر فى لقائه بأبى لؤلؤة بينما صمتت الرواية الثانية عن هذا الأمر .

ويحسن بنا بعد هذه المقارنة بين الروايات أو قبل ترجيحنا رواية على أخرى أن نعرض لأقوال بعض الباحثين بالنسبة للرواية الثالثة ، فإنهم عنوا بمناقشتها دون غيرها من الروايات من غير أن يذكروا لذلك سببا معقولا دفعهم لطرح الروايات الأخرى .

فالأستاذ الخضرى يقول فى معرض تعقيبه على الرواية الثالثة « لو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

يدا فى مقتل عمر ، أو أنه كان عالما ما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فما يدعو كعبا إلى إنباء عمر بهذا النبأ ، والجواب علـــى ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزا عظيما فإن كثيرا منهم يـــرون بعد ذلك أن توارته فيها علم كل شئ وأنه صادق فى كل مرة ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة فى تصديقه بما يوحى إليه ، وكعب هذا ممن أفاض عليـــنا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التى لا ندرى حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئا كثيرا هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه " (١)

ويذهب بعض الباحثين إلى ترجيح الرواية الثالثة ، على أساس وجود مؤامرة ثلاثية من المجوس والنصارى واليهود ، هدفها إدالة الإسلام فيقـــول (إن عددا من الفرس الذين دالت دولتهم قد أظهروا الإسلام ، ودخلوا المدينة ، ولا تزال عندهم من رواسب الماضى صلات مختلفة بعقيدتهم المجوسية القديمة ، وارتـــباطات بحكومـــتهم السابقة أو أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية ؛ وكانـــت لهم مخططات رهيبة تنطلق كلها من الحقد على الخليفة الذى زالت دولـــة الفرس على يده ، والكره للدين الجديد الذى أبوا أنهم دانوا به ، ولم تتهـــيأ الفرص لبعضهم بعد للتفقه فى الدين والإطلاع على حقيقته ، ومعرفة الخير ، وكان الحاقدون من الفرس الذين لم يعد لهم مقر للدولة يلجؤون إليها ، أكـــثر من الروم الذين بقيت لهم دولة قائمة على الأراضى التى لم يصـــل إليها الفتح بعد ... وقد أضمر هؤلاء الفرس الحقـــد على الإســـلام فكـــان

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة الأموية) ص ٣٣.

حقدهم عظيما إذ فضح دسائسهم التى كانوا يقومون بها ، وبين مخططاتهم التى يلجؤون إليها وأوضح مكرهم الذى يمكرونه ؛ لذا بذلوا جهدهم القصاء على الإسلام وقادته ، والتقى المكر اليهودى مع الخطط المجوسى للعمل على ضرب الإسلام وقتل القادة المسلمين الذين يتمكنون من قتلهم »(١).

ومن الباحثين من اعتمد على بعض الروايات التاريخية فقرر أن قتل عمر كان نتيجة مؤامرة شعوبية أو حقد على الدين من قبل هؤلاء الذين دخلوه فى الظاهر وأضمروا له الحقد فى الباطن فقال « لقد كان من الممكن أن يدفن سر الجريمة بانتحار القاتل الآثم ولكن شعاعا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة ذلك أن الثقات من المؤرخين رووا أن اغتيال أمير المؤمنين عمر كان بسبب مؤامرة سياسية فقد ذكر عبد الرحمن ابن أبى بكر (٢) أنه فى اليوم السابق لطعن عمر رأى ثلاثة يتهامسون هم : الهرمزان (٣) وأبو لؤلؤة وجفينة الأنبارى .

---

(١) محمود شاكر (الخلفاء الراشدون ، (التاريخ الإسلامى) ص ١٩١ ، ١٦٢

(٢) شقيق السيدة عائشة أم المؤمنين ، شهد بدراً وأحداً كافراً مع قريش . وكان من أشجع قريش وأرماهم بسهم . ثم أسلم وحسن إسلامه وصحب النبى ﷺ فى هدنة الحديبية وحضر اليمامة مع خالد بن الوليد وأبلى فيها وقتل سبعة من كبار المرتدين ، عارض معاوية حين جاء إلى المدينة وأراد أخذ البيعة لابنه يزيد وقال له : أهرقلية ، إذا مات كسرى كان كسرى مكانه ؟ فبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردها ولم يأخذها وقال . أبيع دينى بدنياى وخرج إلى مكة ومات قبل أن تتم البيعة ليزيد .

الزركلى (الاعلام) ج ٤ ص ٨٣ ،

(٣) قائد الفرس وحاكم الأهواز ، استسلم فى معركة تستر عام ١٧ هـ ،

ويقول عبد الرحمن : أن ثلاثتهم حين فوجئوا به ارتبكوا ، وسقط منهم خنجر له رأسان وحين رأى عبد الرحمن الخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين ذكر أنه الخنجر الذى رآه أمس .

وكان ما قرره عبد الرحمن سببا فى أن عبيد الله بن عمر — فى حالة عصبية شديدة — جال سيفه بعد مقتل أبيه وقتل الهرمزان ، وجفينه وابنة لؤلؤة . ولولا أن سعد بن أبى وقاص اعتقله وحبسه فى داره لقتل كعب الأحبار لأنه اتهمه بالإشتراك فى المؤامرة »[1] .

والذى نميل إليه بعد هذا العرض هو أن مقتل عمر جاء نتيجة دوافع شعوبية كان وراءها أكثر من شخص زينوا لأبى لؤلؤة المجوسى القيام بهذه الجريمة — مستغلين الضائقة المالية التى يمر بها — فأقبل على ارتكابها دون التفكير فى العواقب الوخيمة التى ستحل بعد القيام بها ، وأن كعب الأحبار إطلع على المؤامرة ولم يشارك فيها ، يؤيد ما ذهبنا إليه أن سعد بن أبى وقاص قد حال بين عبد الله بن عمر وبين قتله لكعب فحبسه فى داره .

ونحن نتساءل كيف يفعل سعد هذا مع كعب ، إذا كان يعلم أن له ضلعا فى المؤامرة على قتل أمير المؤمنين والجواب أن فعل سعد مع كعب لعله

= وأرسل إلى المدينة طالبا أن ينزل على حكم عمر ، هم عمر بقتله ، فأسلم فقبل إسلامه وفرض له ألفين وأنزله فى المدينة .

د. عبد السلام الترمانينى (أزمنة الحكم الإسلامى) ق ٣ ص ٩٢٠ .

(١) راجع موقف عبيد الله من الثلاثة بالتفصيل فى الطبرى ، (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٤٠ .

راجع إلى أنه لا يجوز لعبد الله بن عمر أخذ القصاص بنفسه دون موافقة الإمام أو دون إقراره بثبوت هذا الحق له عند من يثبت إدانتهم بارتكاب هذه الجريمة ولم يكن عمر يستطيع البت فى هذا الأمر لشدة ألمه ومن ثم فمن الدين إرجاء الحكم فى هذه القضية لرؤية ما سيكون من أمر أمير المؤمنين يضاف إلى هذا أن مسألة إشتراك كعب فى جريمة قتل عمر ليست من الأمور المقطوع بها إذ هى لا تعدو عن كونها شبهه تحتمل الصدق والكذب ومن ثم لا تبيح إراقة دمه وإن من يقرأ سيرة كعب يجد أنه من الدهاء بحيث لا يقدم على عمل كهذا يعلم يقينا أن حياته ثمنا له .

يضاف إلى هـــذا أن خبر قدوم كعب إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لإخباره عن ميعاد قتله طبقا لما جاء فى التوراة هو من الضعف بحيث يجعلنا نجزم برفضه من الرواية لأنه لو صح لطلب عمر من كعب رؤية التوراة التى يتحدث عنها ، ولئن عمر من كعب رؤية التوراة التى يتحدث عنها ، ولئن قال قائل أن عمر لم يكن على دراية باللغة التى كتبت بها التوراة حتى يطلب ذلك ، قلنا له إن بالمدينة أكثر من مسلم ثقة يجيد قراءة العبرية المكتوبة بها « التوراة »[1] .

وعلى كل حال فإن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لما أنهكته الجراحات أخذ يحتضر ورأسه فى حجر عبد الله بن عمر ولسانه لا يغفل عن ذكر الله . ويديم الشهادة إلى أن توفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة

---

(١) أحمد عطية الله (القاموس الإسلامى) ج ١ ص ٥٠٨ .

ثلاث وعشرين . وقيل طعن يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد هلال محرم سنة أربع وعشرين .

وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام . وقيل : كانت وفاته لأربع بقين من ذى الحجة وكانت خلافة عمر على هذا القول عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وصلى عليه صهيب [١] وحمل إلى بيت عائشة بعد أن استأذنها عبد الله بن عمر [٢] فى ذلك فقبلت ، ودفن عند النبى صلى الله عليه وسلم — وأبى بكر ، ونزل فى قبره عثمان وعلى والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وعبد الله بن عمر [٣] .

---

(١) ابن سنان بن مالك ، من بنى النمر بن قاسط ، كان أبوه من أشراف الجاهليين ، ولاه كسرى على البصرة ، وكانت منازل قومه فى أرض الموصل على شط الفرات مما يلى الجزيرة والموصل ، وبها ولد صهيب ، فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوه صبيا فنشأ بينهم ، واشتراه منهم أحد بنى كلب وقدم به مكة . فابتاعه عبد الله بن جدعان التيمى ثم أعتقه ، وأقام بمكة يحترف التجارة إلى أن ظهر الإسلام فأسلم مع الأوائل ، وكان ممن يعذب فى الله عذاباً شديداً ، شهد بدراً والمشاهد كلها ، توفى بالمدينة .

ابن حجر (الاصابة) ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) أبو عبد الرحمن صحابى من أعز بيوتات قريش ، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ، شهد اليرموك وفتح مصر وغزا أفريقية مرتين ، الأولى مع ابن أبى سرح والثانية مع معاوية ابن حديج توفى فى مكة وكان آخر من توفى فيها من الصحابة .

ابن خلكان (وفيات الأعيان) ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن قتيبه (الإمامة والسياسة) ج ١ ص ٢٨ .

الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ١٩٣ .

ابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ٥٢ .

وعلى كل حال فإن الخليفة ، لم يوارى قبره إلا بعد أن عهد بالأمر إلى أهل الشورى كى يختاروا من بينهم ، خليفة له على أمة النبى ﷺ —

قصــة الشورى : —

لم يغفل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عن النظر فى من يخلفه على أمة النبى محمد ﷺ على الرغم من الجراحات العديدة التى نزلت بجسده ، والدماء الغزيرة التى تسيل منها فقدا أمير المؤمنين يعانى من أمرين أولهما ، خشيته لقاء ربه وقد اختار للأمة من لا يستطيع جمع كلتها والنهوض بأمورها ويبوء هو بتبعة ذلك ، وثانيها جراحات تقترب به فى سرعة إلى نهاية الأجل.

ولما حدثته جماعة من المهاجرين فى أمر استخلافه لرجل ؛ يجلس فى دست الحـكم من بعده قال لهم .

« لو كان أبو عبيدة [1] حيا لاستخلفته وقلت لربى أن سألنى : سمعت نبيك يقول : « إنه أمين هذه الأمة » ولو — كان سالم مولى أبى حذيفة حيا

---

(١) عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهرى القرشى ، أبو عبيدة . أحد السابقين الاولين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة . شهد الغزوات كلها وكان أحد قادة الفتوح الأربعة الذين اختارهم أبو بكر لفتح الشام ، عينه عمر بن الخطاب قائداً على جيوش الشام بعد عزل خالد بن الوليد ، كان أبوه فى صف المشركين فنازله وقتله ، وأبلى يوم أحد بلاء حسنا . مات بطاعون عمواس ودفن بغور بيسان . ابن حجر (الاصابة) جـ ٢ ص ٢٤٣ .
ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) جـ ١ ص ٢٩ .

لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى : سمعت نبيك يقول : « إن سالما شديد الحب لله تعالى » [١] .

وزاد بن قتيبه على هذا قول عمر (لو أدركت معاذ ابن جبل [٢] . استخلفته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى ربى سمعت عبدك ونبيك يقول : إن معاذ بن جبل يأتى بين يدى العلماء يوم القيامة . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته ؛ فإذا قدمت على ربى فسألنى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت أى ربى ، سمعت عبدك ونبيك يقول خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين) [٣] .

أبى عمر بن الخطاب قبول رأى أحدهم فى جعل عبد الله خلفا له على أمة النبى محمد — ﷺ . فقال (قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟

لا أرب لنا فى أموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فقد صرف عنا ، بحسب آل عمر أن

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ٦٥ .

(٢) ابن عمرو بن أوس الخزرجى الأنصارى ، أبو عبد الرحمن ، شهد بيعة العقبة وشهد الغزوات كلها مع رسول الله ﷺ . بعثه الرسول قاضيا إلى اليمن . وكان أحد الستة الذين جمعوا القرآن فى حياة النبى ﷺ . كبر آلة فى سنه . اشترك بوقعة اليرموك ، ومات بطاعون عمواس .
ابن حجر (الإصابة) ج ٣ ص ٤٠٦ ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) ج ١ ص ٢٩ .

(٣) (الإمامة والسياسة) ج ١ ص ٢٨ .

يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ، لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد ، وأنظر فان أستخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ، ولن يضيع الله دينه [١] .

ولايخفى علينا ما قصده عمر من هـذا الرد ، فإنه أراد أن يجنب عبد الله ابنه الآلام التى كان يعيشها مذ تولى إمرة المؤمنين هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه وجد أن فى الصحابة من هو أسن من عبد الله وأكثر منه حنكة ، فكيف يعرض عنهم ليوليها ابنه بدافع إيثار البنوة على مصلحة الأمة .

نظر عمر يمنة ويسرة ؛ فوجد أن الصحابة الذين يمكن للامة اختيار خليفة منهم ستة من الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة ، فجعل هذه البشارة الأساس الأول فى ترشيحهم ، ثم صفاتهم الشخصية التى ميزتهم عن الكثير من أقرانهم .

فيروى الطبرى عن عبيد الله بن عمر أن أباه قال .

« عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ (أنهم من أهل الجنة) (سعيد بن زيدا بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله ولكن الستة : على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير ابن العوام وحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمته ، وطلحة الخير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلا ، فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه ، إن أئتمن أحدا منكم فليؤد أليه أمانته

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٢٨ .

وخرجوا ، فقال العباس لعلى : لا تدخل معهم ، قال : أكره الخلاف ، قال : إذا ترى ماتكره فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعدا عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فقال : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس . . . . . ثم قال عمر للنفر الذى اختارهم (فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا . ولا شىء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة فاحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لى بطلحة ؟ فقال سعد بن أبى وقاص : أنا لك به ، ولا يخالف إن شاء الله فقال عمر : أرجو ألا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعدا فأهلها هو ، وإلا فليستعن به الوالى فانى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه . وقال لأبى طلحة الأنصارى [1] : ياأبا طلحة ، إن الله عز وجل طالما أعز

---

(١) زيد بن سهل بن الأسود الخزرجى البخارى ، شهد بدراً وما بعدها وهو من أهل السوابق فى الإسلام ، والمتصدق بأحب أمواله إليه ، توفى سنة ٣٥ هـ عن سبعين ربيعا وصلى عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) جـ ١ ص ٤٠ .

عبد السلام الترمانينى (أزمنة التاريخ الإسلامي) جـ ١ ص ٦٧٨ .

الإسلام بكم ، فاختار خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم . . . وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رءوسهم ، فإن اجتمع خمسه ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه — أو أضرب رأسه بالسيف — وأن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان ، فاضرب رؤسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس)[1].

وزاد ابن قتيبة على ما قدمناه أن عمر بن الخطاب طلب من أهل الشورى أثناء اجتماعهم ضرورة إحضار (شيوخ من الأنصار وليس لهم من الأمر شيء ، والحسن ابن على وعبد الله بن عباس . فإن لهما قرابه وليس لهما من الأمر شيء .

ليس هذا فحسب بل إنه خالف ما ذكرته رواية الطبرى بالنسبة لرأى عمر فى النفر الذين إختارهم للشورى . فقال ابن قتيبة إن أهل الشورى قالوا لعمر وهو مريض قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به . فقال : والله ما يمنعنى أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك ، مع مع أنك رجل حرب . وما يمنعنى منك ياعبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة . وما يمنعنى منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا ، كافر الغضب — وما يمنعنى من طلحة إلا نخوته وكبره ولو وليها وضع خاتمه فى إصبع امرأته .

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها ، وأنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين ، والصراط المستقيم . أوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم ، وأحذره مثل مضجعي هذا ، وأخوفه يوم تبيض فيه وجوه وتسود وجوه ، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية[1] .

ونحن إذا وقفنا وقفة متأنية حول ما ذكره ابن قتيبة عن أهل الشورى مخالفا به ما جاء في الطبري وجدنا أن رواية الثاني راجحة والأول مرجوحة، فلا يكاد العقل يستسيغ أن عمر وهو في مرض موته ، يذكر من كل واحد من المرشحين أمورا تنفر الأمة منه ، وهو الذي جعل الأمر في واحد من الستة ليجنبها الشقاق ، ثم نتساءل عن هذا المديح الذي نلمحه في قوله لعلي دون غيره ، أيريد به عمر تقوية جانبه دون الخمسة الباقين ، كلا لأنه أبان في جلاء ، رغبته في تبرئة نفسه من أي تبعة تترتب على أمر اختيار الخليفة من بعده ومن ثم فإننا نشك في الأخذ بهذه الرواية التي ذكرها ابن قتيبة لتشيعه الواضح لنا من خلال أحاديثه عن الأمور التي تتعلق بعلي بن أبي طالب وآله .

وعلى أية حال فإن العباس حاول إثناء علي عن حضور ، إجتماع أهل الشورى على أساس أن الأمر سيؤول إلى عثمان طبقا للضوابط التي وضعها عمر ابن الخطاب ، للمجتمعين فيذكر ابن الأثير أن العباس قال لعلي (لم أرفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره أشرت عليك عند

---

(١) (الإمامة والسياسة) جـ ١ صـ ٢٩ .

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر ، فأبيت ، أشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، احفظ عنى واحدة ، كلما عرض عليك القوم ، فقل : لا : إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط ، فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا ، وأيم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير : فقال على : أما لئن بقى عثمان لاذكرنه ما أتى ولئن مات ليداولنها بينهم ، ولئن فعلوا ليجدنى حيث يكرهون (١) .

لما فرغ الصحابة من دفن أمير المؤمنين أحضر أبو طلحة الأنصارى أهل الشورى وأخبرهم بأنه لن ينتظر أكثر من ثلاثة أيام ، كما أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول المكان الذى عقدت فيه اجتماعات الشورى فمن قائل ، إن الإجتماع كان فى حجرة عائشة بإذنها ، وآخر يقول كان ببيت المال ، وثالث يقول إنه ببيت المسور بن مخرمه ، ورابع يقول أنه ببيت واحد من أهل الشورى (٢) .

أما الروايات التى نقلت لنا ما دار فى الإجتماعات ، فانها تختلف فيما بينها حول ذكر بعض التفاصيل ومن ثم فاننا نجعل الرواية الأولى المنقولة عن الطبرى عمدة لنا ، ثم نشفعها بالتفاصيل التى تفردت بها الروايتان التاليتان لها فى الذكر .

---

(١) (الكامل) ج ٣ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) ابن قتيبة (الإمامة والسياسة) ج ١ ص ٣٠ .

الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ١٣١ .

ذكر الطبرى أن رجال الشورى ، حين اجتمعوا بعد دفن عمر قال لهم عبد الرحمن بن عوف « أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : فأنا أنخلع منهـا ، فقال : عثمان : أنا أول من رضى ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين فى الأرض أمين فى السماء » فقال القوم : قد رضينا — وعلى سكت — فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : أعطنى موثقا لتؤثرون الحق ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة فقال : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله ، فقال لعلى ، إنك تقول . إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ، قال : عثمان . وخلا بعثمان ، فقال : تقول : شيخ من بنى عبد مناف ، وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه لى سابقه وفضل — لم تبعد — فلن يصرف هذا الأمر عنى ، ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : على . ثم خلا بالزبير ، فكلمه بمثل ما كلم به عليا وعثمان فقال : عثمان . ثم خلا بسعد ، فكلمه ، فقال : عثمان . فلقى على سعدا فقال (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)[1] ، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمى حمزة منك ألا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى أدلى

---

(١) سورة النساء آية (١) .

بما لا يعلى به عثمان . ودار عبد الرحمن لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم ، ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان ، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل ، أتى منزل المسور بن مخرمه بعد ابهيرار من الليل ، فأيقظه فقال : ألا أراك نائما ولم أذق في هذه الليلة كثير غمض انطلق فادع الزبير وسعد فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخرة المسجد . . . فقال له : خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر ، قال نصيبي لعلى ، وقال لسعد : أنا وأنت كلا له ، فأجعل نصيبك لى فأختار ، قال : إن أخترت نفسك فنعم ، وإن أخترت عثمان فعلى أحب إلى ، أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا ، وأرفع رءوسنا ، قال : يا أبا إسحاق : إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار .

قال سعد : فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك ، فامض لرأيك ، فقد عرفت عهد عمر ، وانصرف الزبير وسعد وأرسل المسور بن مخرمه إلى على ، فناجاه طويلا ، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر ، ثم نهض ، وأرسل المسور إلى عثمان . فكان في نجيهما حتى فرق بينهما أذان الصبح . . . فلما صلوا الصبح جمع الرهط وبعث إلى من أمره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار ، وإلى أمراء الأجناد ، فاجتمعوا حتى ألتج المسجد بأهله : فقال : أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأنصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا ، فقال أشيروا على بغير هذا فقال عمار[1] : إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا . فقال

---

(١) هو ابن عامر الكنانى المزحجى العنسى القحطانى ، أبو اليقظان حليف بنى مخزوم ، أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به ، صحابى من الولاة الشجعان =

للمقداد بن الأسود[1] ، صدق عمار ، إن بايعت عليا قلنا : سمعنا وأطعنا قال ابن أبي السرح[2] إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان . . . فقال سعد ابن أبي وقاص يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

= ذوي الرأي ، أسلم هو وأبوه ياسر وأمه سمية فذاقوا العذاب من حلفائهم بني مخزوم ومات أبوه من العذاب ، هاجر إلى الحبشة وعاد إلى المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها ، شهد بدراً والمشاهد كلها ويشهد اليمامة وأبلى بلاء حسنا ، ولاه عمر الكوفة ثم عزله عنها ، حارب مع علي في صفين وقتل في معركتها وكان عمره ٩٤ سنة .

الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ٦ ص ٢١ ،

(١) ابن عمرو بن ثعلبة ، من قضاعة ، وقيل من كندة ، أبو معبد أو أبو عمرو نسب إلى الأسود بن عبد يغوث لأنه تبناه في الجاهلية فقيل المقداد ابن الأسود ، شهد بدراً وغيرها من المشاهد ، وشهد فتح مصر ولما نزلت آية (أدعوهم لآبائهم) قيل له المقداد بن عمرو ، توفي بالمدينة .

ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ١ ص ٣٩ .

(٢) قرشي عامري من بني عامر من قريش ، أسلم قديما ، وكان من كتاب رسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً ، فأهدر الرسول دمه يوم الفتح ، فجاءه عثمان بن عفان وطلب الأمان لابن أبي سرح وكان أخاه من الرضاع وبايع رسول الله ﷺ اشترك مع عمرو بن العاص في فتح مصر ، ولاه عثمان ولاية مصر بعد عزل عمرو بن العاص عنها فاستمر اثني عشر عاما ، غزا الروم بحراً في معركة ذات الصواري سنة ٣٣ ، لما تولى علي بن أبي طالب الخلافة عزله وولى مكانه قيس بن عبادة فتوجه ابن أبي سرح إلى الشام قاصداً معاوية ولم يبايع علياً ولا معاوية ، مات بعسقلان وهو قائم يصلي .

عبد السلام الترمانيني (أزمنة التاريخ الإسلامي) ق ٣ ص ٧٢٢ ، ٧٢٣ .

ودعا عليا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى ، قال : نعم ، فبايعه فقال على : حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن ، فقال عبد الرحمن : يا على لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإنى قد نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان ، فخرج على وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله . . . وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان ، وقيل له : بايع عثمان، فقال : أ كل قريش راض به ؟ قال : نعم ، فأتى عثمان، فقال له عثمان : أنت على رأس أمرك ، إن أبيت رددتها ، قال : أتردها ؟ قال : نعم ، قال : أ كل الناس بايعوك ؟ قال : نعم ، قال رضيت ، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه ، وبايعه[1] .

وأما الرواية الثانية التى رواها المسور بن مخرمة ، فإنها تذكر لنا أن عثمان بن عفان والزبير وسعد ابن أبى وقاص وعليا بن أبى طالب ألقوا كلمات فى اجتماعهم الذى عقدوه إثر وفاة عمر ، فقال عثمان بن عفان بعد أن حمد الله وصلى على رسوله « يا ابن عوف إن تترك وأجدر بها أن تكون إن خولف أمرك وترك دعاؤك ، فأنا أول مجيب لك وداع إليك وكفيل بما أقول زعيم وأستغفر الله لى ولكم » .

ثم تكلم الزبير بعده فقال « أما بعد فإن داعى الله لا يجهل ، ومجيبه لا يخذل عند تفرق الأهواء ولى الأعناق ، ولن يقصر عما قلت إلا غوى ،

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٣٢ — ٢٣٤ .

ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقى ، ولولا حدود الله فرضت ، وفرائض لله حدت ، تراح على أهلها وتحيا ولا تموت ، لكان للموت من الإمارة نجاة ، والفرار من الولاية عصمة ، ولكن لله علينا إجابة الدعوة وإظهار السنة لئلا نموت موته ـ عميه ولا نعمى عمى الجاهلية ، فأنا مجيبك إلى ما دعوت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حــول ولا قــوة إلا بالله وأستغفر الله لى ولكم » .

ثم تكلم سعد بعد حمد الله والثناء على النبي ﷺ « إنى نكبت قرنى وأخذت سهمى الفالح وأخذت لطلحة ابن عبيد الله ما ارتضيت لنفسى ، فأنا به كفيل وبما أعطيت عنه زعيم والأمر إليك يا ابن عوف بجهد النفس وقصد النصح ، وعلى الله قصد السبيل، وإليه الرجوع وأستغفر الله لى ولكم، وأعوذ بالله من مخالفتكم » .

أما علي فقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه « لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لا نفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حق وصلة رحم ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اسمعوا كلامى وعوا منطق ، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة »[1] .

وذكر ابن قتيبة زيادة على ماتقدم ، أن أهل الشورى منحوا عبدالرحمن التفويض فى اختيار من يراه صالحا منهم وينصب الخلافة بعد مرور الأيام الثلاثة

---

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ صـ ٧٣ — ٧٤ .

وقال إن عبد الرحمن دعا عليا بعد عثمان ، فى مكان ما قبل ذهاب ابن عوف إلى المسجد ، فكان موقف على منه على النقيض من موقف عثمان ، فحين قال ابن عوف لعلى « أبايعك على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ، فقال على مالك ولهذا إذا قطعتها فى عنقى ، فإن على الإجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها ، كان فى بنى هاشم أو غيرهم فقال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطينى هذا الشرط ، فقال على والله لا أعطيكه أبداً ، فتركه ، فقاموا من عنده ، فخرج عبد الرحمن إلى المسجد ، فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه : ثم قال : إنى نظرت فى أمر الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل ياعلى سبيلا إلى نفسك فإنه السيف لا غير ، ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعا »[1] .

وإذا أجلنا النظر ، فى الروايات التى أسلفناها وجدنا أن الرواية الأولى أقربها قبولا نظراً لكونها تتفق مع ماعليه الصحابة ، من إيمان وحرص على بقاء الصف موحدا ، فلا يتصور العقل أن يترك عبد الرحمن ابن عوف عليا على هذه الصورة ، التى ذكرها ابن قتيبة ، ويذهب فيعلن على الناس بيعته لعثمان ، رغم أنف على الذى كان يحرص بشدة على درء الباب أمام كل فتنة ، وآية ذلك رفض الأخذ بنصيحة العباس له ، بترك حضور إجتماعات الشورى وإخراج نفسه منها وما ذلك إلا لشىء واحد ، هو خوف على بن أبى طالب أن يكون خروجه هذا بمثابة ذريعة يتذرع بها دعاة الفتن الذين يريدون بالإسلام شراً .

والذى يدعم ماذهبنا إليه ، سيرة على مع عثمان أثناء خلافته ، فإنها تنطق فى صدق بأن عليا لم يكن حاقدا على عثمان، لنيله منصب الخلافة دونه .

---

(١) ابن قتيبة (الإمامة والسياسة) جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

الفصل الرابع

خلافة عثمان رضى الله عنه

لما كان الثالث من المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة ، استقر رأى أهل الشورى على عثمان بن عفان ليكون الخليفة الثالث على أمة النبى محمد - ﷺ - .

وعلى غرار سلفيه صعد عثمان المنبر لإلقاء خطبة البيعة التى جاء فيها بعد حمد الله « إنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم ، بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم أصبحتم أو أمسيتم ، ألا وأن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا بالذى هو خير[1] فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)[2] .

---

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ ص ٩٠ .
الخضرى (محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية) ، (الدولة الأموية) ص ٣٢٦ .

(٢) قرآن كريم (سورة الكهف) آيات ٤٥ — ٤٦ .

وقـــد عقـــب أحد الباحثين ، على خطبة البيعة التى ألقاها عثمان فقال : " والمـــتأمل فى هذه الخطبة يجد أنها تختلف عن خطبة الحكم التى سنها أبو بكر الصـــديق وسار عليها عمر من بعده حيث أبان كل واحد منهما سياسته فى الحكـــم فى أول خطبة ألقاها ، أما عثمان فلم يتعرض للطريقة التى ينتهجها خلال حكمه ، ويرجع ذلك إلى أن عثمان أراد ألا يلزم نفسه بسياسة معينة ، وربمـــا كان سبب ذلك راجع إلى شيخوخته وما فطر عليه من التدين واللين وشـــدة الحياء ، وربما أنه لم يعد نفسه لهذا الموقف ، وكان يفكر أن الخلافة صائرة إلى على،وأن المفاجأة صرفته عن هذا الحديث عن منهجه فى الحكم (١)

والـــذى نراه أن خطبة عثمان رضى الله عنه جاءت بصورتها تلك لا لأنه قد فوجئ بالخلافة كما قال الباحث ، وإنما أراد بها بيان أمر هام للرعية كافـــة وهو أن الدنيا لا تشغلنا عن أمور ديننا ، ولعله بذلك يلمح إلى وضع حـــد للأحاديث التى تدور بين الناس حول نجاح هذا فى الوصول إلى الخلافة وإخفـــاق ذاك والذى يدلنا على ذلك أن الصحابة فى هذا الوقت كانوا من الفصـــاحة والبيان بحيث يستطيعون التعبير عما يريدون دون إعداد فما بالك بخلـــيفة آل إلـــيه أمر أمة النبى محمد ــ ﷺ ــ فكيف لا يستطيع التعبير عن منهجه فى الحكم .

ومهمـــا يكن من أمر ، فإن عثمان ما كاد يستوى على أريكة الحكم فى الدولة الإسلامية حتى واجهته عقبة هامة ، كشفت عن سياسته فى الحكم ، ونعـــنى بها موقفه م عبيد الله بن عمر الذى أزهق روح الهرمزان وابنه أبى لؤلؤة المجوسى وجفينه من غير إذن .

---

(١) الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين علم بفعل ، ابنه وهو فى المرض أمر ، بإيداعه السجن فيروى الذهبى أن عمار ابن ياسر جاء فدخل على عمر فقال « حدث اليوم حدث فى الإسلام ، قال : وما ذاك ؟ قال قتل عبيد الله الهرمزان ، قال (إنا لله وإنا إليه راجعون) على به ، وسجنه »[١] .

وقد اختلفت الروايات فيما بينها ، حول ما فعله عثمان بن عفان فى هذه القضية ، فمنها من يقول أن الخليفة سلم عبيد الله بن عمر إلى أولياء دم الهرمزان ومنها من يذكر أن عثمان بصفته إمام المسلمين ، عفا عن عبيد الله وسلم الدية لأولياء المقتولين من ماله الخاص .

فمن الأول ما رواه السرى عن أبى منصور أنه قال « سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه ، قال : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض ، فمر فيروز بأبى ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله منه ، وقال : ما تصنع بهذا فى هذه البلاد ؟ فقال : آنس به ، فرآه رجل ، فلما أصيب عمر ، قال : رأيت هذا مع الهرمزان ، دفعه إلى فيروز فأقبل عبيد الله فقتله ، فلما ولى عثمان دعانى فأمكننى منه ثم قال : يا بنى هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله ، فخرجت به وما فى الأرض أحد إلا معى ، إلا أنهم يطلبون إلى فيه فقلت لهم : إلى قتله ؟ قالوا : نعم وسبوا عبيد الله أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا : لا ، وسبوه فتركته لله ولهم ، فاحتملونى فوالله ما بلغت المنزل إلا على رءوس الرجال وأكفهم »[٢] .

ومن الثانية ما رواه الذهبى أن عثمان ، جلس فى المسجد عقيب بيعته

(١) (تاريخ الإسلام) ج ٣ ص ١٨٠ .
(٢) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

« ودعا بعبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان محبوسا فى دار سعد ، وسعد الذى نزع السيف من يد عبيد الله بعد أن قتل جفينة والهرمزان وبنت أبى لؤلؤة ، وجعل عبيد الله يقول : والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى ، يعرض بالمهاجرين والأنصار ، فقام إليه سعد فنزع السيف من يده وجبذه بشعره حتى أضجعه وحبسه ، فقال عثمان لجماعة من المهاجرين : أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق ، فقال على : أرى أن تقتله ، فقال بعضهم قتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم ، فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان إنما تم هـذا ولا سلطان لك ، قال عثمان : أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها من مالى »[1].

ويلوح لنا أن السواد الأعظم من الباحثين المحدثين قد ارتضوا الأخذ بالرواية الثانية دون الأولى ، نرى ذلك جليا فى تعقيباتهم على موقف عثمان من القضية فمما قاله بعضهم « تلك كانت أول قضية عرضت لعثمان فى خلافته ، وكان تصرفه فيها أول عمل يكشف عن مدى الفرق بين سياسته وسياسة عمر التى التزم بالسير على منوالها ، فقد كانت سياسة عمر تقوم على الحزم والشدة العادلة . . . فلو كانت هذه القضية أمام عمر لأقام الحد دون نظر إلى شخص القاتل أو عشيرته ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . ولكن عثمان جرى مع طبيعته فى السماحة واللين وهى الطبيعة التى وسمت سياسته كلها طول مدة خلافته ، وهو فى هذه القضية لم يعطل حداً من حدود الله ، وإنما استعمل حقه كإمام فى أن يعفو »[2].

---

(١) (تاريخ الإسلام) جـ ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ٢٧٩ .

ونحن نرى الأخذ بالرواية الأولى دون الثانية حيث إن الرواية الأخيرة لم تشر إلى أن عثمان استأذن ابن الهرمزان فى العفو ، وبالتالى فإن العفو الذى ذكرته الرواية الثانية لا ينبغى حمله إلا على فعل القماذبان المذكور فى الرواية الأولى وعلى هذا يكون عفو عثمان متمما للأمر بصفته وإلى جفينة وابنة لؤلؤة، لأن الإمام ولى من لا ولى له .

وإذا كان الخليفة قد استطاع التغلب على تلك العقبة الكبيرة وتمكن أثناء خلافته من القيام بأعمال جليلة عادت بالخير العميم على أمة النبى محمد ، فإن حركة المعارضة قد شهرت السلاح فى وجهه ؛ فحالت بينه وبين المضى قدما فى تلك الأعمال(١) .

حركة المعارضة فى عهد عثمان :

كان لسماحة هذا الخليفة ولينه أثر كبير فى دفع بعض أعداء الإسلام ، إلى إثارة الناس فى وجهه وقد وجدت دعوتهم تلك مكانها فى الأفئدة الضعيفة فشكلوا بذلك ، حركة معارضة للخليفة ظلت فى صراع معه حتى وضعت نهاية لحياته ، فتحة الباب على مصراعيه بعد ذلك أمام فتن كلفت الدولة الكثير من الأموال والرجال ، وحتى نكون على بينة من أصول هذه الحركة والظروف التى أحاطت بظهورها ، لابد لنا من ذكر الأسباب التي تعزى إليها فتنة المعارضة فى عهد عثمان .

أسباب الفتنة :

تجمعت عدة أسباب حفزت الثوار على القدوم إلى المدينة ومحاصرة عثمان

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج٣ ص١١٢ .
أبو زيد شلبى (الخلفاء الراشدون) ١٧٧ : ١٧٩ .

ابن عفان رضى الله عنه فى بيته وترجع هذه الأسباب إلى ما يلى :

١ ـ السياسة العمرية :

لما آل أمر الأمة إلى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه سار بالدولة فى طريق واضح للعالم فكان حريصا على الأموال ، آخذا نفسه وأقاربه بالشدة فى هذا الأمر حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، فمال إلى الخشونة فى ملبسه والإقتصاد فى مأكله .

ولم يكن عمر يسمح للعامل الذى يستخدمه على أقليم من الأقاليم ، أن يصطحب أمواله معه حتى لا ينشغل بالتجارة عن ولايته من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإن ذلك يمكن عمر من مراقبة حالة عامله المالية . فيروى الطبرى أن عمر بن الخطاب لما استعمل عتبة بن أبى سفيان[1] على كنانة ، فقدم معه بمال ، فقال « ما هذا يا عتبة ؟ » قال « قال خرجت به معى وتجرت فيه قال « ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه » فصيره إلى بيت المال[2] .

فلما تولى عثمان تخلى من هذا ففتح الباب على مصراعيه أمام عماله لاصطحاب الأموال معهم وسمح لصحابة النبى ﷺ المقيمين بالمدينة بالهجرة منها

---

(١) ابن حرب بن أمية بن عبد شمس أمير مصر وليها من قبل أخيه معاوية فقدم إليها سنة ٤٣ ثم خرج إلى الإسكندرية مرابطا فابتنى دارا فى حصنها وتوفى بها ، كان عاقلا فصيحاً مهيباً ، من فحول بنى أمية . شهد مع عثمان يوم الدار ، وشهد يوم الجمل مع عائشة وفقئت عينه .

ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة) ج ١ ص ١٢٢ ـ ١٣٤ .

(٢) (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٢٢٠ .

إلى الأمصار المفتوحة مخالفاً فى ذلك أيضاً ما قرره عمر . فيروى الطبرى عن الحسن البصرى « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إنى سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد بزل وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، أنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار »[1] .

تحقق فى عهد عثمان رضى الله عنه ما تخوف منه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) من انسياح الصحابة فى الأمصار المفتوحة ، فطفق الناس يأوون إليهم ، لكونهم صحابة النبى ﷺ ولما كان هؤلاء الصحابة (يملكون من الأموال شيئاً كثيراً ، فإنهم كونوا أرستقراطية فى الأقاليم التى ذهبوا إليها ، وصار لكل منهم جماعات تتعصب له ، فتعصبت البصرة لطلحة والكوفة للزبير . فكان ذلك سببا للثورة على عثمان[2] .

ومن الأمور التى خالف فيها عثمان عمر بن الخطاب ميله إلى الإسراف فى أموال الدولة ، فى وجوه كثيرة لم تكن معروفة فى عهد عمر من ذلك ما رواه عامر بن الشعبى « أن أول خليفة زاد الناس فى إعطياتهم مائة عثمان ، وكان عمر يجعل لكل نفس منفوصة من أهل الفىء فى رمضان درهما فى كل يوم

---

(١) (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ج ٢ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ . محمود شاكر ، الخلفاء الراشدون ، ج ٣ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

وفرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين درهمين ، فقيل له : لو صنعت لهم طعاما فجمعتهم عليه فقال : أشبع الناس فى بيوتهم : فأقر عثمان الذى كان صنع عمر ، وزاد فوضع طعام رمضان ، فقال للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد وابن السبيل والمعترين بالناس فى رمضان »[1] .

وعلى الرغم من أن عثمان قصد من ذلك التوسعة على الرعية فإن أعداءه أولوا تصرفه هذا فنسبوه إلى التبذير فى مال الدولة دون داع .

٢ — موقف عثمان من أقاربه :

كان موقف عثمان من أقاربه ، سبباً هاماً من الأسباب التى أدت إلى قيام الثورة عليه ، فما كاد يستوى على أريكة الحكم فى الدولة حتى بذل الإعطيات السخية على أقاربه ، فاستقدم عمه الحكم بن أبى العاص[2] . وولده مروان[3] من نفيهما وأسكنهما المدينة .

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٤ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) ابن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى . صحابى أسلم يوم الفتح وسكن المدينة ، كان فيما قيل يفشى سر رسول الله ﷺ فنفاه إلى الطائف وظل فيها إلى خلافة عثمان توفى بالمدينة سنة ٣١ هـ .

ابن حجر (الإصابة) جـ ٢ ص ٢٨ .

ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ١ ص ٣٨ .

(٣) ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى ، أبو عبد الملك أمه آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية ، لما تولى معاوية الخلافة قربه معاوية اعترافا بالمساعدات التى قدمها إليه يوم كان حاملاً لخاتم عثمان وإيمانا منه بأن مروان لعب دوراً هاما فى حرب الجمل أضعف به عليا ، وولى معاوية مروان على المدينة ومعها مكة والطائف . عمل مروان مستشاراً ليزيد فى خلافته ، جلس على أريكة الحكم بعد مؤتمر الجابية سنة ٦٤ ، توفى عن ثلاث وستين سنة .=

ويقول المؤرخون إن الحكم دخل المدينة وهو يرتدي ثوباً خلقاً وخرج منها للسفر أو النزهة بعد مضي وقت يسير على إقامته وهو عليه جبة خز وطيلسان[١] .

ليس هذا فحسب بل إن عثمان جعل من مروان بن الحكم وهو حديث عهد بالإسلام أمين سره . وأغدق عليه الأموال فقيل إن عثمان باع له خمس الغنائم القادمة إلى بيت المال من أفريقية بعد فتحها ثانية بثمن بخس دون أن يعرض المبيع على الرعية بحاضرة الدولة . هذا على قول وفي قول آخر أن عثمان وهبه هذا الخمس دون مال[٢] .

وإذا كان معاوية بن أبي سفيان قد ظل على عمله بالشام ، زمن عمر فإن عثمان لما تولى ضم إليه حمص وغيرها فغدا حاكماً للشام كله .

فيروى الذهبي أن عثمان عزل عمير بن سعد عن حمص وكان صالحاً ، زاهداً وجمع الشام لمعاوية[٣] .

= ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ص ٧٤ .

ابن حجر ، الإصابة ، جـ ٣ ص ٤٤٥ .

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ص ١٦٤ ، المقريزي ، النزاع والتخاصم ، ص ٤٤ : ٤٦ ،

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ ص ٩١ .

أحمد الشامي ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٠٣ .

(٣) ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وزاد عثمان معاوية على هـذا كله منحة إقطاعات ببعض المزارع التى طلبها منه بحجة أن ما إجراه عثمان عليه من الرزق لا يقوم بمؤن من يقـدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم وبذلك استن عثمان سنة إقطاع أرض الدولة لمن يكون مقربا من الولاة للخليفة ولما آلت الخلافة لمعـاوية فعل مثل ذلك مع أشراف العرب وقريش[1] .

وإذا ما انتقلنا إلى الـكوفة وجدنا عثمان يعزل عنها عاملها سعد بن أبى وقاص بعد الذى دار بينه وبين عبد الله بن مسعود من خلاف بسبب اقتراض الأول مبلغا من بيت المـال ، فلما رفع أمرهما إلى عثمان استبدل الوليد بن عقبة بن أبى معيط[2] بسعد بن أبى وقاص فى الـكوفة ، وذلك فى سنة خمس وعشرين من الهجرة .

ظل الوليد بالـكوفة خمسة أعوام ، وقد أحبته الرعية بها إلى أن ظهر منه بعض الأمور المشينة فأخذها عليه أعداؤه .

فيروى « أن جماعة من المسلمين باغتت دار الوليد ليـلا فوجدوه ثملا وقد اضطجع على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته فلم يفق ، فانتزعوا

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١ ص ٥٩٥ .

(٢) الأموى القرشى ، أبو وهب ، أخو عثمان بن عفان لأمه . لما قتل عثمان تحول الوليد إلى الجزيرة الفراتية فسكنها وتجنب الفتنة بين على ومعاوية ولـكنه رثى عثمان وحرض معاوية على الأخـذ بثأره ، مات بالطاعون فى الرقة سنة ٦٤ هـ .

ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) جـ ١ ص ٧٢ .
الذركلى (الأعلام) جـ ٩ ص ١٤٣ .

خاتمه من يده ، ورحل منهم إثنان إلى المدينة ، فأخبرا عثمان بخبره وأخرجا له خاتمه ، فزجرهما ودفع فى صدريهما فخرجا إلى على بن أبى طالب وأخبراه بقصة الوليد بن عقبة فخرج على إلى عثمان وقال له : « دفعت الشهود وأبطلت الحدود » فطلب منه عثمان المشورة فيما ينبغى عليه عمله ، فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة يستقدمه ، فإذا وجهت إليه التهمة ووجه بالشاهدين فلم يستطع الرد يقام عليه الحد[1] .

وعلى الرغم من أن الوليد - أخو عثمان لأمه - فإن الخليفة لم يتردد فى الأخذ بمشورة على بن أبى طالب فيروى عامر بن سعد أن عثمان بعث بسعيد ابن العاص إلى الكوفة أميراً عليها ، حين شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر وأمره أن يبعث إليه الوليد بن عقبة فلما قدم سعيد بن العاص الكوفة أرسل إلى الوليد يقول أن أمير المؤمنين يأمرك أن تلحق به ، فتضجع الوليد أياما فقال له : انطلق إلى أخيك ، فإنه قد أمرنى أن أبعثك إليه ، وما رقى سعيد منبر الكوفة ، إلا بعد غسله بالماء ، فناشده رجل من قريش كانوا قد خرجوا معه من بنى أمية ، وقالوا إن هذا قبيح ، والله لو أراد هذا غيرك لكان حقا أن تذب عنه ، فأبى سعيد إلا أن يفعل ما أراد ، فغسله وأرسل إلى الوليد أن يتحول من دار الإمارة فتحول منها »[2] .

فلما مثل الوليد بين يدى عثمان بالمدينة أحضر الشهود فشهدوا عليه

---

(١) المسعودى (مروج الذهب) ج ٢ ص ٣٣٦ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٨٢ .
السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ج ٢ ص ٢٨٤ .
(٢) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٣٢٢ .

بمعاقرة الخمر فأمر عثمان إقامة الحد عليه فجلده على بن أبى طالب أربعين جلدة(١) .

ظل سعيد واليا على الكوفة ، حتى أواخر عهد عثمان فلما خرج واليها المذكور إلى الخليفة ليطلعه على الحال فيها شأنه فى ذلك شأن بقية عمال الأمصار – كما سنبينه حال أهلها بينه وبين الرجوع إليها وأرغموا عثمان على عزله وقالوا والله لا يدخلها علينا واليا أبدا فولى عثمان عليهم أبا موسى الأشعرى حسب طلبهم(٢) :

ولم تكن الحالة فى البصرة بأحسن منها فى الكوفة فإن هذا المصر قد انتقد على عامله أبو موسى الأشعرى بعد أن ظل واليا عليهم ست سنوات وقد اختلف المؤرخون فى أسباب عزل أبى موسى عن البصرة . فمنهم من يقول « إن غيلان بن خرشه . الضبى خرج إلى عثمان فقال : أما لكم صغير فتشبوه فتولوه البصرة ، حتى متى يلى هذا الشيخ البصرة . يعنى أبا موسى »(٣) فعزله عثمان عن المصر .

وآخرون يقولون إن السبب فى ذلك راجع إلى أن أهل أيذج والأكراد كفروا فى السنة الثالثة من خلافة عثمان فنادى أبو موسى فى الناس وحضهم على الجهاد وحبب إليهم الخروج للعدو راجلين ، فأجمع بعضهم على الخروج

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ١٠٧ .
السيد عبد العزيز سالم « تاريخ الدولة العربية » ج ٢ ص ٢٨٤ .
(٢) محاضرات فى الخضرى (تاريخ الدولة الأموية) ص ٣٤٥ .
عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٣٢٣ .
(٣) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٢٦٤ .

رجــالا وتلــبس بعضهم حتى ينظر ما يصنع الأمير فلما كان يوم الخروج ، أخــرج أبو موسى ثقله من قصره على أربعين بغلا، فتعلقوا بعنانه ، وقالوا احملــنا على هذه الفضول وارغب من الرجلة فيما رغبتنا فيه ، فضرب القوم بســوطه حتى تركوا دابته ومضى ، فأتوا عثمان ، فاستعفوه منه وقالوا " ما كل ما نعلم نحب أن نقوله ، فأبد لنا به " فلما سألهم عمن يحبون قال غيلان بــن خرشه " فى كل أحد عوض عن هذا العبد الذى قد أكل أرضنا ، وأحيا أمر الجاهلية فينا " (١)

وقد مال بعض الباحثين إلى الأخذ بالرواية الأولى دون الثانية " لأن أبا موسى كان رضا لأهل الكوفى بعد ذلك على شدة اضطراباقم . كما أن اتجــاه عــثمان وقريش ومن يلوذ بهم كان إلى الاستئثار بالولاية واصطناع الأسباب للوصول إليها " (٢)

أهتــبل عثمان بن عفان الفرصة ، فقبل من أهل البصرة إقالتهم لأبى موسى فعهد بأمر المصر إلى ابن خاله عبد الله بن عامر (٣)

فلما جاءها لم يبد أبو موسى غضبا بسبب عزله عن البصرة وإنما قال

---

(١) ابن الأثير " الكامل " جـ ٣ ص ٩٩ .

(٢) أحمد ابراهيم الشريف " دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة " ص ٣٠٨

(٣) ابن كريز بن ربيعة الأموى ، أبو عبد الرحمن ، أمير فاتح ، شهد وقعة الجمل مع عائشة ولم يحضر وقعة صفين ، ولاه معاوية على البصرة ثم صرفه عنها فأقام بالمدينة ومات بمكة سنة ٥٩ هـ ، ودفن بعرفات ، كان شجاعا سخيا وصولا لقومه محبا للعمران ، اشترى دور البصرة وهدمها وجعلها طرقا وشوارع.

ابن سعد " الطبقات " جـ ٥ ص ٣٠ ــ ٣٥ .

ابن العماد الحنبلى " شذرات الذهب " جـ١ ص ٦٥

لأهلها عن عبد الله ابن عامر « يأتيكم غلام خراج ولاج ، كريم الجدات والخالات والعمات ، يجمع له الجندان (وقد جمع له الجندان : جند أبي موسى، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين [١] .

وكان الرجل على مستوى المسئولية فأحسن ضبط المصر وأكثر من الفتوحات فنافس سعيد بن العاص في الكوفة [٢] ومع ذلك فقد تألب أهل البصرة عليه فكان المشارك في الثورة على عثمان رضوان الله عليه [٣] .

وأما مصر فإن عمرو بن العاص كان فيها واليا على الصلات والخراج ، فلما كانت خلافة عثمان بعث بأخيه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأمره بغزو أفريقية فإن نجح في ذلك فإنه منفول خمس الخمس بأمر الخليفة ، فجاء وفد إلى عثمان ينكر على عبد الله ما أخذ فقال لهم الخليفة « أنا نفلته وقد أمرت له بذلك ، وذاك إليكم فإن رضيتم فقد جاز ، وإن سخطتم فهو رد (قالوا) فإنا نسخطه (قال) فهو رد وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . قالوا :

فأعزله عنا فإنا لا نريد أن يتآمر علينا وقد وقع ما وقع (فكتب إلى عبد الله أن يستخلف على أفريقية رجلا ممن يرضى ويرضون وأن يقسم الخمس الذي نفله ونفذ عبد الله ما أمر به وعاد إلى مصر [٤] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٣ صـ ٤٩ .
(٢) اليعقوبي (تاريخ اليعقوبي) جـ ٢ ص ١٤٣ — ١٤٥ .
(٣) الخضري (محاضرات في تاريخ الاموية) صـ ٣٤٥ .
(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

ولاه عثمان أمر الخراج بها مما أدى إلى حدوث نزاع بينه وبين عمرو بن العاص فكتب عبد الله إلى الخليفة يقول : إن عمروا كسر على الخراج وكتب عمرو يقول إن عبد الله قد كسر على مكيدة الحرب فعزل عثمان عمرا واستقدمه ، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها ، فقدم عمرو مغضبا ، فدخل على عثمان وعليه جبه محشوة قطنا ، فقال له : ما حشو جبتك ؟ قال : عمرو ، قال : قد علمت (أن حشوها عمرو) ولم أرد هذا ، (إنما سالت أقطان هو أم غيره) ؟ (١) .

وذكر أحد الباحثين تعقيبا على إستبدال عبد الله بن سعد بعمرو بن العاص على مصر فقال (لم يكن هناك سبب لعزل عمرو ، فلم تذكر المصادر أنه حدث منه ما يوجب عزله ، فهو صاحب فتح مصر وقد أفتيت عليه في غزو ما وراءها لا عن تقصير منه ثم أشرك معه غيره في تولي الخراج ، ولم يكن ما يبرر أن يشرك معه غيره ، ثم عزل لخلاف بينه وبين عبد الله بن سعد ، ولو فرض أن هذا الخلاف هو السبب في العزل ، فتهمة الرجلين فيه واحدة : هذا كسر الخروج وذلك كسر الحرب وقد أقر عبد الله وأضيف إليه كل العمل وعزل عمرو (٢) .

لم يكن عبد الله بن سعد محببا إلى الرعية في مصر نظرا لحداثة عهده بالإسلام من ناحية ومن ناحية أخرى أنه مال إلى الإستبداد في أمور الدولة

---

(١) ابن الاثير (الكامل) ج ٣ ص ٨٨ .

(٢) أحمد ابراهيم الشريف (دور الحجاز في الحياة السياسية العامة) ص ٣١٢ .

فلما شكاه جماعة من المصريين إلى عثمان أمره الخليفة بالإقلاع عن الأشياء التى كان يفعلها بالمصر وهدده بالعزل عن البلاد إن لم يمتثل لأمر الخليفة .

لم يأبه عبد الله بن سعد بتهديد الخليفة له ، فظل على سياسته الأمر الذى هيأ الجو فى مصر وغيرها من الأقاليم لنشاط المخربين مثل عبد الله سبأ وغيره [1] .

مما تقدم نخلص إلى أن العمال الذين استعملهم عثمان على الأقاليم ، كانت تربطه بهم صلة قرابة وإنهم لم يحافظوا على الخليفة ليدفعوا عنه لوم اللائمين من الرعية الذين قالوا إن الخليفة آثر أقاربه على غيرهم مع كون غيرهم أكثر منهم كفاءة وسبقا فى الإسلام ، فيكون هؤلاء العمال قد قابلوا إحسان عثمان إليهم بالجفاء ، فغدا الخليفة عند عماله غير مرهوب الجانب . يدلنا على ذلك موقفهم الذى يتسم بعدم المبالاة من كتابه الذى أرسله إليهم عثمان بقصد تهدئة الرعية فى الأقاليم وفيه بعد بسم الله الرحمن الرحيم « والله لأفرشنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ولاستصلحنكم بجهدى فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ولا شيئا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم لا يكون لكم على حجة » [2] . وبدلا من أن يدرك العمال صعوبة موقف الخليفة فيقلعون عن سياستهم التى سخطها الرعية ،

---

(١) السيوطى (تاريخ الخلفاء) ص ١٤٧ .
أحمد ابراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ٣١٥ .
السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٣٦ .

ظلوا على ما هم عليه ، فزاد الكتاب الأحوال سوءا فى الأقاليم فهو كما يقول بعض الباحثين فى معرض التعقيب عليه (هذه نغمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على إثر شكوى وتذمر . قد تؤثر فى الكريم ولكن اللئيم يعتدها ضعفا يزيده ضراوة على الفتنة وولوعا بإشاعة السوء وإذاعته . فهو ذلك من عثمان يغفر الله له ـ وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غروا أن أجترأوا عليه بعده بما اجترأوا) [1] .

٣ ـ موقف عثمان من أعلام الصحابة المعارضين : ـ

من البديهى أن يكون العمال المعزولون قوة حانقة على عثمان ، تحاول إثارة حفيظة الرعية عليه لعزله لهم ، دون أمر يستحق هذا فى كثير من الأحايين على غرار ما فعل بوالى حمص وعمرو بن العاص فى مصر .

وإذا كان هؤلاء الصحابة قد وقفوا هذا الموقف من عثمان للسبب المذكور فإن مثل أبى ذر [2] . قد وقف موقفا شديدا من عثمان ، بسبب ما رآه من الترف الذى يعيش فيه عمال الأقاليم وما عندهم من أموال مكنوزة لأن هذا

---

(١) عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٣٢٣ .

(٢) هو جندب بن جنادة ابن قيس الغفارى ، من كنانة ، أبو ذر ، من الصحابة قديم الإسلام صحب النبى ﷺ حتى مات وهاجر بعد وفاة النبى ﷺ إلى الشام وأقام بها إلى أن توفى أبو بكر وعمر ، توفى بالربذة سنة ٣٢ هـ وصلى عليه ابن مسعود .

ابن سعد (الطبقات) ج ٤ ص ١٦١ ، ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص ٢٨٣ .

ابن العماد الحنبلى (شذرات الذهب) ج ١ ص ٣٩ .

يتعارض مع الحالة التي كان عليها الصحابة أيام النبي ﷺ - والراشدين من بعده أبو بكر وعمر .

فيروى السرى عن يزيد أن أبا ذر أتى معاوية الذى يقول عن مال المسلمين مال الله ليأخذ منه ما يحب فقال له أبو ذر ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله ، والخلق خلقه والأمر أمره قال: فلا تقله ، قال فإنى لا أقول أنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين .

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء بشر الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقوها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، حتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس فكتب معاوية إلى عثمان : أن أبا ذر قد أعضل بى ، وقد كان من أمره كذا وكذا .

فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق إلا أن تثبت ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر إلى ، وأبعث معه دليلا وزوده ، وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما أستطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت فلما قدم للمدينة دخل على عثمان الذى قال له يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذر بك فأخبر أنه لا ينبغى أن يقال : مال الله ، ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على وأخذها على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد [1] .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

وهنا تختلف الروايات فيما بينها فالرواية التى رواها الطبرى تقول إن أبا ذر استأذن عثمان فى الرحيل إلى الربذة [١] ورواية أخرى تقول إن عثمان أمر بنفية إليها [٢] .

وعلى كل حال فإننا نكاد نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية دون الأولى ، لأن الخليفة حين أخفق فى إقناع أبا ذر بالصمت عن مذهبه هذا ، وجد أنه لزام عليه تغريبه عن المدينة حتى لا يزيد الأمر بها سوءا على سوء وعلاوة على هذا فإن اليعقوبى ذكر ما يرجح الأخذ برواية النفى على ما سواها فقال لما أظهر عمار بن ياسر رقة لأبى ذر ، غضب عثمان وهم بنفيه هو الآخر إلى الربذة لولا تدخل على وبنى مخزوم حلفاء عمار [٣].

وقد زعم أحد الكتاب المحدثين أن عثمان فعل بعمار بن ياسر وأبى ذر من التعذيب ما يندى له جبين السامع به ناهيك عن المعذب فقال فى زعمه ، أنه ضرب عمار بن ياسر ضربا شديدا ، وضربه برجليه وهما فى الخف على بطنه حتى أفتق عمار وأغمى عليه وما زال مغمى عليه حتى فاتته صلاة الظهر والعصر والمغرب ، وأمر بتسيير أبى ذر إلى الشام ثم أمر بإرجاعه إلى المدينة

---

(١) بلدة فى قلب نجد وهى من منازل الحجاج بين العراق ومكة ، خربت هذه البلدة سنة ٣١٩ هـ ، بعد اتصال الحروب بينها وبين بلدة (ضرية) المجاورة وانتصار القرامطة لأهل ضرية فى تلك السنة ، فهرب أهلها وخربت .
عبد السلام الترمانينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، ق ٤ ص ١٠٤٨ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ج ٣ ص ١٤٨ — ١٥٠ .
عبد السلام الترمانينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، ق ٣ ص ٥٦٤ .
محمد كاظم القزوينى ، على من المهد إلى اللحد ، ص ٤١٢ .
(٣) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ج ٣ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

فساروا به سيرا حثيثا بلا نزول ولا راحة ولا نوم فلما وصل إلى المدينة ، تناثر لحم فخذيه ورجليه [١] .

ولست أدرى كيف يسمح هذا الكاتب لنفسه ذكر ذلك عن عثمان بن عفان وهو من هو فى الإسلام ، فحسبك أنه ذو النورين ومن العشرة المبشرين بالجنة فكيف والحالة هذه يبادر إلى التنكيل بعمار بن ياسر الذى صبر على أذى المشركين وبشر الرسول آله حين مر عليهم وهم يعذبون بقوله أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

أما ما قاله عن أبى ذر فإنه هو الآخر فيه من المبالغة ما فيه فسير أعوان الخليفة بأبى ذر فى قوة دون إمهال مما جعل لحمه يتناثر عن فخذه ؛ أمر لا يتفق مع سماحة عثمان ولينة .

يضاف إلى هذا كله أن الكاتب لم يذكر لنا مصدر هذه المعلومات التى ذكرها حتى يمكننا الحكم على صحتها من عدمه فلعلها مدسوسة على عثمان بن عفان من قبل أعداء الإسلام بقصد تشويه الخليفة وإضراب الطبرى ، عن ذكر هذه الأمور المشينة فى تلك القضية يجعلنا نعتقد بأنه لا أساس لها من الصحة فقال فى معرض تعقيبه عليها وأما الآخرون ، فإنهم رووا فى سبب ذلك أشياء كثيرة ، وأمورا شنيعة كرهت ذكرها) [٢] .

الأمر الذى يجعلنا نجزم بطرح هذه الأشياء وأشباهها من التاريخ الإسلامى ولا سيما تلك التى تسىء إلى الرعيل الأول من المسلمين .

---

(١) محمد كاظم القزوينى ، على من المهد إلى اللحد ، ص ٤٠٢ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٢٨٦ .

ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينا فى حركة أبى ذر أمران أولهما « أن دعوته هذه ظلت قائمة يتردد صداها هنا وهناك فى جميع الأنحاء وحيث إجتمع الفقر والغنى، فكانت من بين العوامل التى ألبت الفقراء ضد أمراء الأقاليم الذين أحاطوا أنفسهم ببعض مظاهر الترف والبذخ ، ثم أسهمت بقدر فى تحريك النفوس ضد الخليفة نفسه عندما رأوه يمنح الأعطيات الجزيلة لأفراد معدودين وثانيهما : أن هذه الدعوة لم تكن تقليداً من أبى ذر لغيره أو اقتباساً من أفكار فارسية أوحى بها إليه ، بل هى دعوة قائمة على تفكير وفهم ووعى إسلامى ؟ إذ ما الذى يمنع أحد أعلام الصحابة وعلمائهم الذين أشربوا روح الإسلام منذ بدء دعوته مثل — أبى ذر — أن يجتهد فيكون رأياً كهذا من تلقاء نفسه ويسوق له أدلة يستدل بها على رأيه الذى ذهب إليه[١] .

٤ — حركة السبئية :

كان نشاط هذه الحركة من أخطر الأسباب التى أدت إلى الثورة على عثمان ، وتنسب إلى مؤسسها عبد الله بن سبأ[٢] الذى كان يهوديا ثم أسلم فى زمن

---

(١) يوسف على يوسف ، الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص ١٤٩ .

(٢) رأس الطائفة السبئية ، كانت تقول بألوهية على بن أبى طالب ، أصله من اليمن ، قيل كان يهوديا وأسلم ، يقال للسبئية (الطيارة) لزعمهم أنهم لا يموتون وإنما موتهم طيران نفوسهم فى الغلس وأن عليا فى السحاب ، كانوا يقولون إذا سمعوا صوت الرعـــد غضب على ويقولون بالتناسخ والرجعة ، قيل أن عليا أحرقه بالنار .

عبد السلام الترمانينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، ق ٣ ص ٧٧٢ .

عثمان وتنقل بين الأمصار الكبرى للدولة الإسلامية ، بقصد نشر مبادئه فيها فلاحقه أولياء الكوفة ثم البصرة ثم الشام ولم يجد له ملاذاً إلا مصر فوجد فيها تربة صالحة لنشر مبادئه الهدامة ، نظراً لغيبة وإليها فى ذاك الوقت من الوقت من ناحية ومن ناحية أخرى كراهية الرعية بها حكم عبد الله بن سعد ابن أبى السرح فقال فى جماعات العوام وغيرهم كيف نقول بالرجعة لعيسى وننفى ذلك عن محمد ومما قاله أيضاً أن لكل نبى وصيا وبما أن محمد خاتم الأنبياء فإن عليا خاتم الأوصياء وقد انضم إليه فى مصر محمد بن أبى حذيفة(١) ومحمد بن أبى بكر(٢) فحملا معه راية المعارضة فى وجه الخليفة . وساعداه فى تحزيب الأحزاب على أمير المؤمنين(٣) فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب

---

(١) ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، صحابى من الأمراء ولد بأرض الحبشة فى عهد النبوة واستشهد أبوه يوم (اليمامة) فرباه عثمان ابن عفان ولم يزل فى نفقته وكفالته سنين . اشترك فى وقعة (ذات الصوارى) مع عبد الله بن سعد .

ابن حجر ، الإصابة ، ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) ولد فى حجة الوداع نشأ بالمدينة فى حجر على بن أبى طالب ، وكان قد تزوج أمه أسماء بنت عميس بعد وفاة أبيه ، شهد وقعة الجمل وصفين مع على ولاه على إمارة مصر بعد موت الأشتر النخعى فدخلها عام ٣٧ ولما اتفق على ومعاوية على تحكيم الحكمين فات عليا أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر وانصرف يريد العراق ، فبعث معاوية بجيش من أهل الشام إلى مصر بقيادة معاوية بن خديج فدخلها حربا بعد معارك شديدة واختفى محمد بن أبى بكر فعرف معاوية بن خديج مكانه فقبض عليه وقتله وكانت مدة ولايته خمسة أشهر .

ابن حجر ، الإصابة ، ج ٣ ص ٤٥١ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ج ٢ ص ٢٨٩ .

أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

إلى مصر الآخر بما عندهم من الحزنان فيقرأ كتابهم على العامة فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فى كثير من الأحايين[1] .

وربما يعزى تأييد محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة لابن سبأ وحشهما العامة فى الثورة على عثمان إلى أن الأول له صلة وثيقة تربطه بعلى بن أبى طالب الذى تزوج بأمه « أسماء بنت عميس » بعد وفاة أبى بكر فتربى محمد فى بيت على زوج أمه ، وهكذا كان حماس ابن أبى بكر لعلى هو سبب تأييده لابن سبأ وتعاونه معه ضد الخليفة وأما الثانى « فإنه كان حانقا على عثمان لأنه لم يسند إليه ولاية بعض أمور المسلمين على الرغم من أن عثمان هو الذى تكفل بتربيته بعد وفاة أبيه أبى حذيفة ، ولكن لماذا رفض الخليفة تعيين هذا الرجل فى أحد مناصب الدولة ؟ رفض تعيينه لأنه لم يكن أهلا للولاية فى نظر الخليفة الذى علم أن ربيبه هذا قد شرب الخمر ، وقد صارحه عثمان بقوله « له لو كنت رضا لوليتك ، ولكنك لست هناك »[2] .

وهكذا نرى فى جلاء أن الحركة السبئية نجحت فى ضم اثنين من أبناء الصحابة كان لهما عظيم الأثر فى التعجيل بالثورة على عثمان وأن الدوافع

---

(١) محاضرات الخضرى فى « تاريخ الدولة الأموية » ص ٣٦٠ .

(٢) ابن عبد البر « الاستيعاب » ج ٣ ص ١٣٦٩ .

يوسف على يوسف « الخلافة والخلفاء الراشدون » ص ١٥١ .

الشخصية لعبت دوراً كبيراً في هذا الإنضمام ، وأن عبد الله بن سبأ لم يكن يقصد بحركته تلك الإصلاح كما زعم بل كان يريد هدم نظام الخلافة من أساسه يؤيد ذلك ما ذكره بعض الباحثين إن ابن سبأ كان يعمل لحساب جمعية سرية تريد بالإسلام ونظمه شراً [١] .

٥ — منافسة القبائل العربية لقريش : —

زاد الإسلام قريشا عزاً بين العرب فبعد وفاة الرسول ، حصرت الخلافة فيهم وقد جعلت وظائف الدولة في الدولة في عهد الصديق والفاروق في يد السواد الأعظم من القرشيين ، وقد شعرت القبائل بألم شديد في زمن عثمان الذى عهد بوظائف الدولة إلى أقاربه من قريش ، وغدا أبناء القبائل الأخرى يحقدون على كل قرشى حاكم لما عليه من أبهة الملك والنعيم الذي لم يكن يضارعه أحد في التمتع به ، وقد عبر أحد الشعراء العرب عن هذا الشعور في أبيات له منها .

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار نحوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار [٢]

ظل هذا الشعور في طوية أفراد مختلف القبائل التى قطنت العديد من الأمصار كالبصرة والكوفة حتى جاءت الفرصة لظهوره في أواخر عهد

---

(١) يوسف على يوسف « الخلافة والخلفاء الراشدون » ١٤٩ ،
(٢) أبو زيد شانى « الخلفاء الراشدون » ص ١٨٤ .
السيد عبد العزيز سالم « تاريخ الدولة العربية » ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

عثمان بعد ما زادت أحوال الناس فى الأقاليم سواء فيروى محمد بن عمر عن الشعبى أنه قال (قدم سعيد بن العاص الكوفة فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده ، وأنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة ، منهم مالك بن كعب الأرحبى ، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس ، وفيهم مالك الأشتر فى رجال ، فقال سعيد ، إنما هذا السواد بستان لقريش ، فقال الأشتر أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا وتكلم معه القوم .

فقال عبد الرحمن الأسدى — وكان على شرطة سعيد : أتردون على الأمير مقالته وأغلظ لهم ، فقال الأشتر : من هاهنا لا يفوتنكم الرجل ، فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديدا ، حتى غشى عليه ، ثم جر برجله فألقى فنضح بماء فأفاق ، فقال له سعيد : أبك حياة ؟ فقال قتلنى من انتخبت للإسلام : فقال : والله لا يسمر منهم عندى أحدا أبدا ، فجعلوا يجلسون فى مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيدا ، واجتمع الناس إليهم حتى كثر من يختلف إليهم . فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك ويقول : إن رهطا من أهل الكوفة — سماهم له عشرة — يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا ، فكتب عثمان إلى سعيد : أن سيرهم إلى معاوية — ومعاوية يومئذ على الشام) [1] .

فهذه الرواية تكشف لنا فى جلاء ، عن حقيقة شعور العرب من غير قريش ولا يقال إن هذه حادثة فردية لا يقاس عليها ، فإن مصادر التاريخ

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

الإســلامى قــد ذكرت لنا أكثر من مثل آخر يدعم هذه الحقيقة ، فإن أهل البصــرة ما اشتركوا فى الثورة على عثمان إلا بعد أن سأموا تعالى أوليائهم القرشيين عليهم " فيروى الطبرى " أن أبن عامر ولى البصرة لما فتح فارس ، قــام إليه أوس بن حبيب التميمى فقال " أصلح الله الأمير . إن الأرض بين يديــك ، ولم تفتح من ذلك إلا القليل ، فسر فإن الله ناصرك قال : " أو لم نأمر بالمسيرة وكره أن يظهر أنه قبل رأيه " (١)

فهذه العبارة التى نقلها عن الطبرى تظهر لنا بما لم يدع مجالا للشك ، إن ابن عامر رفض حتى قبول المشورة من غير إبداء سبب لذلك ، ولا نجد مبررا نبرر به هذا الرفض إلا التعالى الذى جبل عليه الولاة القرشيون ، والذى يدعم ما ذهبنا إليه هو ولع عبد الله بن عامر بالفتوحات ، فكونه يعود دون فتح المناطق التى أشار بها عليه أوس لا يبرره إلا ما ذكرناه فتعالى الولاة على الرعــية وعــدم إنصــاف عثمان لهم من عماله كان من الأسباب المشجعة للبصرين وغيرهم فى الإنضمام للثورة على عثمان .

٦- حياة الترف والنعيم زمن عثمان :

تبدلــت الأحــوال فى الحجاز زمن عثمان فعم النعيم قاطنى مكة والمدينة فاســتقدموا آنية الطعام الجيدة ، ومالوا إلى سماع الغناء وما ذلك إلا بسبب كثرة العطايا التى أغدقها عثمان عليهم (٢) .

أما الخليفة ذاته فإنه عاش عيشة الترف والرفاهية فلبس الحرير الفاخر ،

---

(١) " تاريخ الرسل والملوك " جـ٤ ص ٣٠٠/٣٠١

(٢) ابن خلدون " المقدمة " ص ٣٦٠

وأطعمهم أهله ونفسه فى كل ليلة طيب الطعام (الدرمك الجيد) يتكون من صغار الضأن ، والسمن والدقيق الفاخر ، بل زاد على ذلك أن شد أسنانه بالذهب وكان إذا ذكر بحياة عمر يقول إنه حمل نفسه مالا تطيق ، لأن عمر كان يعيش عيشة تقشف وقناعة باليسر . كذلك كثرت الدور عند عثمان حتى بلغت سبع دور [١] .

مما تقدم نرى أن الأسباب السالفة قد تجمعت كلها حافزة الثوار على ترك الأمصار والقدوم إلى المدينة ، لضرب الحصار على عثمان بن عفان فكانت الفتنة .

أحـــداث الفتنـــة :ـ

وجد صحابة رسول الله بالمدينة أن أحوال عثمان فيهم ، تدل على أنه لا يعلم ماعلموه عن الأمصار ، فكما أسلفنا كانت الكتب تنتقل من مصر إلى آخر ، تحمل مثالب عمال عثمان وغيرها من المآخذ التى كان الغلو فيها هو الغالب فرأى بعضهم إخبار عثمان بما عليه الأمصار من الاقتراب فيروى السرى عن يزيد أن محمدا وطلحة وآخرين « أتو عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أياتيك عن الناس الذى ياتينا ؟ قال لا والله ، ما جاءنى إلا السلامة قالوا : فإنا قد أتانا . . . . وأخبروه بالذى أسقطوا إليهم ، قال : فانتم شركائى وشهود المؤمنين ، فاشيروا على ، قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالا

(١) ابن قتيبة (الإمامة والسياسة) ج ١ ص ٣٢ .
اليعقوبى (تاريخ اليعقوبى) ج ٢ ص ١٧٦ .

ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم . فدعا محمد بن مسلمة(١) فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالا سواهم ، فرجعوا جميعا قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ، ما أنكرنا شيئا ، ولا أنكره أعلام المسلمين وعوامهم ، وقالوا جميعا : الأمر أمر المسلمين ، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه قد اغتيل فلم يفاجئهم إلا كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه »(٢) .

لم يكتف الخليفة بما فعل فأمر باستدعاء عمال الأمصار ، للإجتماع به في الموسم وكتب بهذا القرار إلى أهل البلاد كتابا جاء فيه « أما بعد فإني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون ، فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين » فلما كان الموسم

---

(١) الأنصاري الأوسي الحارثي ، أبو عبد الرحمن ، من فضلاء الصحابة هو ممن سمي محمدا في الجاهلية ، اشترك في قتل كعب الأشراف الذي حرض قريشا على حرب الرسول ﷺ . شهد فتح مصر ، وفي فتح الشام كان على مقدمة الجيش الذي افتتح الجابية كان عمر إذا اشتكى إليه أحد من عامل أنفذ محمد بن مسلمة ليكشف أمره ، كان من أنصار عثمان بن عفان ولم يبايع عليا مع الذين امتنعوا عن مبايعته ، اعتزل الفتنة ولم يشهد الجمل ولا صفين وأقام بالربذة توفي بالمدينة ،

ابن الأثير (أسد الغابة) جـ ٣ ص ٢ .

الذركلي (الأعلام) جـ ٧ ص ٣١٨ .

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٤ ص ٣٤٢ .

قدم إليه عبد الله ابن عامر، وعبد الله بن سعد، ومعاوية وأدخل معهم سعيد ابن عبد العاص وعمرا [١].

ويتشكك بعض الباحثين فى استدعاء عثمان لعمرو بن العاص فيقول « اشك فى انضمام عمرو للإجتماع لأن عمرا لم يكن من الولاة فى ذلك الوقت، ولأنه كان مغاضبا لعثمان ساخطا عليه منذ عزله عن ولاية مصر، وقد رأينا من قبل كيف كان عثمان يعرض بأمانته، فلم يكن لذلك ممن يثق عثمان فى نصحه له » [٢].

وعلى أية حال فإن عثمان لما اجتمع بعماله قال لهم ويحكم ماهذه الشكاية والإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم، وما يعصب هذا إلا بى فقالوا له - ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن العوام؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشىء؟ والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة فقال: أشيروا على فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم، وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذى عليهم، إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية: قد وليتنى فوليت قوما لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما، والرأى حسن الأدب وقال عمرو أرى أنك قد لنت لهم ورضيت عليهم وزتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين.

---

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ٣ ص ١٥٥.

(٢) أحمد ابراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص٢١٩، ٣٢٠.

فقال عثمان ، وقد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذى يخالف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنفكه باللين والمؤاتاه إلا فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكون لأحد على حجة حق . وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا ، وإن رحى الفتنه لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها »[1] .

رأى عثمان بن عفان بعد الذى سمع من عماله ، الأخذ بالأمرين مما الشدة فى توصية عماله على الرفق بالرعية وإبقاوهم فى أمصارهم ، حتى لا يؤدى عزلهم إلى زيادة تجرؤ الرعية عليه من ناحية من ناحية أخرى الحفاظ على صلة القرابة بينه وبينهم ، تلك الصلة التى لامراء أوصلتهم إلى شدة الحكم فى الأمصار[2] .

وعلى كل حال فإن معاوية بن أبى سفيان لم ينصرف كغيره من العمال إثر انتهاء الإجتماع مع الخليفة وإنما سار معه من مكة إلى المدينة لإدراكه الظروف العصيبة التى تحيط بالخليفة فما إن وصل إلى المدينة حتى دعا إليه عليا وطلحة والزبير فبدأ معاوية الحديث مع الحضور فى ظل وجود عثمان فقال « أنتم أصحاب رسول الله ﷺ . وخير له من خلقه وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم من غير غلبة ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريبا مع أنى أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك ، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شىء ، فهذه يدى لكم به ولا تطمعوا الناس فى أمركم فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبد إلا إدبارا .

قال على : مالك ولذلك لا أم لك ؟ قال : دع أمى فإنها ليست بشر

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) أحمد الشامى (الخلفاء الراشدون) ص ٣١٠ .

أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبي ﷺ ، وأجرني عما أقول لك . فقال عثمان صدق ابن أخي ، أنا أخبركم عني وعما وليت ، إن صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا وأن رسول الله ﷺ ، كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمري لأمركم تبع . فقالوا : قد أصبت وأحسنت ، قد أعطيت عبد الله ابن خالد بن أسيد خمسين ألفا ، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً فأخذ منهما ذلك فرضوا وخرجوا راضين »[1] .

ويقال إن معاوية قد أشار على عثمان بالخروج معه إلى الشام فقال له « يا أمير المؤمنين اخرج معي إلى الشام فإنهم على الطاعة قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فقال له الخليفة : لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه خيط عنقي . قال : فإن بعثت إليك جندا منهم يقيم معك لنائبه إن نابت ؟ قال : لا أضيق على جيران رسول الله ﷺ ، فقال : والله لتغتالن ولتغزين فقال : حسبي الله ونعم الوكيل[2] .

ويذكر العديد من الرواة أن معاية بن أبي سفيان لما هم بالإنصراف عن المدينة إلى حاضرة ولايته بالشام ، إلتقى بعلي وطلحة وقد سلم عليهما سلام المودع وقبل أن يلوى عنهما وجهة قال لهما « إني قد خلفت فيكم شيخا فاستوصوا خيرا ، وكانفوة تكونوا أسعد منه بذلك ، ثم ودعهم ومضى »[3] .

ولنا أن نتساءل عما إذا كان عمال عثمان قد ساروا ، في رعيتهم على

---

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ صـ ١٥٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ صـ ٣٤٥ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ صـ ٣٤٤ .

النهج الذى أوصاهم به الخليفة ، أثر رجوعهم إلى أمصارهم والجواب كما يقول أحد المؤرخين المحدثين لا نظن أنهم ساروا على السياسة الجديدة التى طالبهم بها عثمان ، فهم لم يمنعوا الناس من الخروج على الخليفة بسوء تصرفهم ولم يؤدوا إليهم حقوقهم حين لم يبصروهم عاقبة جنوحهم وأتباعهم زعماء السوء والفتنة . كما أنهم تهاونوا فى صيانة حقوق الله إذا تركوا لهؤلاء الخارجين على الخليفة مجال الحركة فسيحا ولم يحزموا أمرهم معهم فاستشرى فسادهم وكان من أمرهم ما كان »[1] .

مسير الثوار إلى المدينة :

لم تكد تمضى إلا عشية أو ضحاها على رجوع العمال إلى أمصارهم حتى بدأ السبأيون فى إرسال الكتب إلى الأمصار ، يحثون أهلها على الذهاب معهم إلى المدينة فى المرة الأولى وقد وصلت منهم أعدادا ليست بالقليلة ، فلما علم بهم عثمان بن عفان أرسل إليهم رجلين من بنى مخزوم ومن بنى زهرة فقال : انظرا ما يريدون ، فلما رأوهما أتوهما فقالا من معكم على هذا من أهل المدينة ؟ قالوا ثلاثة ، قالا فكيف تصنعون ؟ قالوا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم ونزعم لهم أنا قررنا بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه . فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فإنك أن لم تسلمهم شقوا[2] .

ثم أرسل الخليفة إلى وفود الكوفة ومصر المتجمعة عند المدينة ونادى الصلاة جامعة ، ورقى مراقى المنبر ليرد على مآخذهم عليه فقال بعد أن حمد الله

(١) يوسف على يوسف (الخلافة والخلفاء الراشدون) ص ١٥٨ .
(٢) الذهبى (تاريخ الإسلام) ج ٢ ص ٣٥١ .

وأثنى عليه ، « إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها على عند من لا يعلم[1] » وقالوا : أتم الصلاة فى السفر ، وكانت لا تتم ، ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى ، فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا : وحميت حمى ، وإنى والله ما حميت ، حمى قبلى ، والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلا غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعية أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهماً ، ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت ، وإنى أكثر العرب بعيراً وشاه ، فمالى اليوم شاة . لا بعيراً غير بعيرين لحجى ، أكذلك قالوا : اللهم نعم . وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء ، أكذلك ؟ قالوا : نعم ، وسألوه أن يقبلهم .

وقالوا : إنى رددت الحكم وقد سيرة رسول الله ﷺ والحكم مكي ، سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله ﷺ . فرسول الله ﷺ سيره ، ورسول الله ﷺ رده ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ولم استعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبل أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ، أكذلك .

(١) الخضرى (تاريخ الدولة الأموية) ص ٣٥٠ .

قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون .

وقالوا : إنى أعطيت ابن السرح ما أفاء الله عليه إنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس .

فكان مائة ألف وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم وليس ذاك لهم ، أكذاك ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : انى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم فإنى ما أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وأنا يومئذ شحيح حريص أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى . قال الملحدون ما قالوا وأنى والله حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم على إلا الأخماس ، ولا يحل لى منها شىء ، فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا مالى .

وقالوا : أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار يوم افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى »[1] .

---

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .
عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

وعلى كل حال فإن الأحوال في العراق ومصر لم تهدأ بعد رجوع وفودهم بأجوبة عثمان على المآخذ التي أخذوها عليه . ويعزى ذلك في رأينا إلى نشاط السبأيين وعدم إخلاص العمال لخليفتهم ،

فلما كان شوال سنة خمس وثلاثين من الهجرة خرج المصريون في أربعمائة على قول وستمائة على قول ثان أو ألف على حد ما ذكره المبالغون وكان عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى وآخرون ومقدمهم الغافقي ابن حرب العكي ومعهم ابن السوداء .

(زعيم الحركة السبئية) ، وخرج أهل الكوفة في نحو عدد أهل مصر وفيهم زيد بن صوحان العبدى وآخرون ومقدمهم عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم ابن جبلة وآخرون ومقدمهم حرقوص بن زهير السعدى. فوصلوا على مقربة من المدينة وأهواؤهم متباينة ليس بينهم اتفاق إلا على أمر واحد وهو إقالة عثمان أما من يخلفه فإن أهل مصر يريدون عليا ، وأما الكوفة فإنها تريد طلحة وأما البصرة فإنها تريد الزبير وأرسلت كل جماعة منهم وفدا من قبلها إلى كل واحد من الثلاثة فكانت إجابتهم عليه واحدة ، فإن عليا على سبيل المثال قال لهم بعد أن سلموا عليه :

(لقد علم الصالحون أنكم ملعونين فارجعوا لاصحبكم الله فانصرفوا) .

فلما يئست وفود الأمصار من إجابة أحد الثلاثة رجعوا إلى جماعاتهم ، وأظهروا لأهل المدينة إنصرافهم عنها ثم باغتوها فدخلوها وضجوا بالتكبير ، ونزلوا في مواضع عساكرهم ، وأحاطوا بعثمان وقالوا : من كف يده

فهو آمن . ولزم الناس بيوتهم)[1] .

ويذكر الرواة أن عليا بن أبي طالب كان قد توسط بين المصريين وعثمان بن عفان حين جاءوا إلى المدينة لأول مرة نزولا على طلب عثمان منه ذلك وقد قام على بن أبي طالب بالمهمة على أكمل وجه فأقنع المصريين بالإنصراف عن المدينة بعد أن أعطاهم عهد الخليفة بتولية محمد بن أبي بكر عليهم ووعد المصريين بأن الملاحظات التي أبدوها لأمير المؤمنين عثمان بن عفان ستنال منه العناية ، وأنه سيبذل قصارى جهده من أجل تلافيها[2] .

وكان السبب في رجوع القوم ثانية إلى المدينة ، مخالفة عثمان لما اتفق عليه مع على وهنا تطالعنا روايتين إحداهما منقولة عن الطبرى والثانية عن ابن قتيبـــه الأولى مارواه يعقوب ابن ابراهيم عن أبي سعيـد مولى أبي أسيد الأنصارى « لما رجع وفد المصريين راضين ، فبينما في الطريق إذا هم براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ويتبينهم قالوا له : مالك ؟ إن لك لأمرا ما شأنك ؟ فقال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتشوه ، فإذا هم بالـكتاب على لسان عثمان ، عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا عليا ، فقالوا : ألم تر إلى عدو الله إنه كتب فينا بكذا وكذا وإن الله قد أحل دمه ، قم معنا إليه ، قال : والله لاأقوم معكم قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ فقال : والله ما كتبت إليكم كتابا قط ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال بعضهم لبعض : ألهذا تقاتلون ، أو لهذا تغضبون .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ صـ ١٥٨ ، ١٥٩ .
الذهبي ، تاريخ الإسلام ، جـ ٣ صـ ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ صـ ٣٥٨ .

فانطلق على ، فخرج من المدينة إلى قرية ، فانطلقوا حتى دخلوا على عثمان، فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا فقال : إنما هما اثنتان : أن تقيموا على رجلين من المسلمين ، أو يمينى بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا : فقد والله أحل الله دمك ، ونقضت العهد والميثاق فحاصروه »[1] ومن الثانية ما رواه ابن قتيبة .

« خرج محمد ومن معه حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة : إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير ، كأنه رجل يطلب أو يطلب ، فقال له أصحاب محمد ما قصتك وما شأنك كأنك طالب أو هارب فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهنى إلى عامل مصر فقال له رجل هذا عامل مصر معنا ، قال : ليس هذا أريد ، فأخبر محمد بأمره فبعث فى طلبه رجلا فجاء به إليه فقال له غلام من أنت ؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ، حتى عرف رجل أنه لعثمان ، فقال له محمد : إلى من أرسلك ؟ قال: إلى عامل مصر قال : بماذا ؟ قال برسالة قال : أمامعك كتاب قال : لا؟ ففتشوه: فلم يجدوا معه كتاباً ، وكانت معه إداوة قد يبست فيها شىء فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ، ثم فك الكتاب بحضرتهم، فقرأه ، فإذا فيه : إذا أتاك محمد بن أبى بكر وفلان فاقتلهم ، وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيى . فلما رأوا الكتاب فزعوا منه، ورجعوا إلى المدينة وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه ودفعه إلى رجل

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ٣٥٠ : ٣٥٤ ؟

منهم ، ثم قدموا المدينة فجمعوا طلحة والزبير وعليا وسعدا ومن كان من من أصحاب رسول الله ، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبرهم بقصة الغلام : وأقرأهم الكتاب فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وقام أصحاب النبي فلحقوا بمنازلهم وحصر الناس عثمان »[1] .

مما تقدم يتبين لنا من خلال الروايتين السالفتين أن أولهما تكشف النقاب عن وجود يد خفية تحرك الأحداث فى الوجه الذى لا يرضى عنه عثمان وأن هذه اليد كانت تربطها بالخليفة ، صلات قوية ، إذ كيف ينتحل على أمير المؤمنين كتاباً ويمهر بخاتمه إن لم يكن هذا بإيعاز من أمين سره مروان بن الحكم الذى حرص على إخفاء ما يقوم به فى تأليب الناس على عثمان ولئن قال قائل أى مصلحة تعود على مروان حتى يلجأ إلى انتحال هذا الكتاب ، قلنا له لعله فعل ذلك للحيلولة بين محمد بن أبى بكر وحكم مصر لأن هذا فيه ما فيه حيث إن محمد بن أبى بكر من المحبين لعلى كما أسلفنا .

كما أن هذا يعنى إقالة ابن أبى السرح عن مصر وبينه وبين مروان من وشيجة القربى ما لا يخفى على دارس التاريخ .

وبناءً على هذا كله فإننا نستبعد ما جاء فى الرواية الثانية ، من تلميح يفيد أن عثمان رضوان الله عليه . كان على علم بأمر الكتاب قبل إرساله إلى ابن أبى السرح لأن الخليفة ، حين أعطى الأمر لمحمد بن أبى بكر بولاية مصر كان يتوخى استقرار الأمور بها ، فلا يتصور والحالة هذه أن يلجأ إلى نقض ما وعد به لأنه من ناحية يزيد من اضطراب الأمور بها ومن ناحية أخرى

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .

أن نقضه العهد يطلق العنان أمام الناقمين عليه لتشويه صورته أمام العامة حين يوسم بخلف العهد .

وعلى أية حال فإن مواجهة عنيفة قد حدثت بين الخليفة والثوار أثناء تأدية الخليفة خطبة أول جمعة جاءت والثوار بالمدينة ينشرون الذعر بها ويطالبون بإقالة عثمان فيروى أن السبب فى هذه المواجهة الخطبة التى ألقاها عثمان وفيها « ياهؤلاء العدى الله الله فوالله ، إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن فقام محمد بن مسلمة ، فقال : أنا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده ، فقام زيد ابن ثابت فقال : أبغنى الكتاب ، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبى قتيرة فأقعده ، وقال فأقطع ، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى صرع عن المنبر مغشيا عليه فاحتمل فأدخل داره »[1] .

صار الخليفة فى موقف بالغ الصعوبة بعد هذا التجرؤ الذى كان من الثوار عليه فطفق يفكر فى ما عساه أن يفعل ، بعد ما شدد الثوار قبضتهم على المدينة وضربوا حصاراً جزئياً على بيت عثمان فوجد أن أهل المدينة فتر معظمهم عن الدفاع عنه لاعتقادهم أن الثوار على حق فى كثير من المآخذ أخذوها على عثمان ومن ثم رد الحسن والحسين وابن الزبير وغيرهم حين قدموا الى داره للذب عنها ، فالرواة ذكروا أن مائة من أهل المدينة تطوعوا للدفاع عن الخليفة فأقسم عليهم بالانصراف وراح يمالىء الثوار حتى يكتب

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

إلى عماله فى الأمصار طالبا النجدة منهم[1] .

موقف العمال من عثمان عند الحصار :

أستقر رأى الخليفة على طلب النجدة من عماله حين وجد أنه لا مناص من طلب ذلك فقد كان — رضوان الله عليه — لا يريد التضييق على أهل المدينة أو نشوب معركة على ثراها بين جماعات المسلمين .

وإزاء اضطرار هذه الظروف له كتب إلى عماله كتابا بصفة عامة ولمعاوية كتابا بصفة خاصة « فالطبرى » يذكر نص الكتاب الأول وفيه بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى وقد قضى الذى عليه ، وخلف فينا كتابه ، فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التى قدر ، فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه ، ثم أدخلت فى الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة ، ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على ، على غير طلب منى ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون تابعا غير مستتبع ، متبعا غير مبتدع ، مقتديا غير متكلف . فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر فعابوا على أشياء مما كان يرضون ، وأشياء عن ملإ من أهل المدينة لا يصلح غيرها فصبرت لهم نفسى وكففتها

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٥٠ .
محمود شاكر ، التاريخ الإسلامى ، ج ٣ ص ٢٤٦ .
أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣١٠ .

عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على الله عز وجل جرأة، حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق »(١).

وأما ابن قتيبة فإنه ذكر أن عثمان أرسل إلى معاوية كتابا خاصا خلافا لكتابه إلى عمال الأمصار وقد جاء فيه « أما بعد فإنى فى قوم طال فيهم مقامى، واستعجلوا القدر فى، وقد خيرونى بين أن يحملونى على شارف من الإبل وبين أن أنزع لهم رداء الله الذى كسانى وبين أن أقيدهم ممن قتلت. ومن كان على سلطان يخطىء ويصيب، فياغوثاه، يا غوثاه، ولا أمير عليكم دونى، فالعجل العجل يا معاوية، وأدرك ثم أدرك، وما أراك تدركنى »(٢).

ولم يكتف عثمان بهذا بل بعث إلى المسلمين الذين وافوا موسم الحج بمكة كتابا يستحثهم فيه على نجدته فما قاله « أما بعد: فإنى كتبت إليكم كتابى هذا وأنا محصور، أشرب من بئر القصر، ولا آكل من الطعام ما يكفينى، خيفة أن تنفد ذخيرتى، فأموت جوعا أنا ومن معى، لا أدعى إلى توبة أقبلها، ولا تسمع منى حجة أقولها، فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتابى إلا قدم على، فأخذ الحق فى ومنعنى من الظلم والباطل »(٣).

أما عن مواقف العمال فى الأمصار بعد وصول الكتاب إليهم فإن المؤرخين إختلفوا حول موقف والى الشام دون غيره فقد كانت الآمال معلقة

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٣٥١، ٣٥٢.
(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٨.
(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسية، ج ١ ص ٣٨.

على معاوية حيث كان أقوى عمال الخليفة وباستطاعته وضع حد سريع لهذه الفتنة .

فتطالعنا فى هذا روايتين أولهما عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس « قالوا : بعث عثمان المسور ابن مخرمة إلى معاوية يعلمه أنه محصور ويأمره أن يجهز إليه جيشاً سريعاً . فلما قدم على معاوية ركب لوقته هو ومسلم ابن عقبة وابن حديج فساروا من دمشق إلى عثمان عشرا .

فدخل معاوية نصف الليل وقبل رأس عثمان فقال : أين الجيش ؟ قال ما جئت إلا فى ثلاثة رهط ، فقال عثمان : لا وصل الله رحمك ولا عز نصرك ولا جزاك خيرا فوالله لا أقتل إلا فيك ولا ينقم على إلا من أجلك فقال بأبى أنت وأمى لو بعثت إليك جيشا فسمعوا به عاجلوك فقتلوك ولكن معى نجائب فاخرج معى فما يشعر بى أحد ، فوالله ما هى إلا ثلاث حتى نرى معالم الشام ، فقال : بئس ما أشرت به ، وأبى أن يجيبه ، فأسرع معاوية راجعا ، وورد المسور يريد المدينة فلقى معاوية بذى المروة راجعا . وقدم على عثمان وهو ذام لمعاوية غير عاذر له .

فلما كان فى حصره الآخر بعث المسور ثانيا إلى معاوية لينجده فقال : إن عثمان أحسن فأحسن الله به ثم غير فغير الله به، فشددت عليه فقال : تركتم عثمان حتى إذا كانت نفسه فى حنجرته قلتم اذهب فادفع عنه الموت : وليس ذلك بيدى ، ثم أنزلنى فى مشربة على رأسه فما دخل على داخل حتى قتل عثمان » .

وثانيها ما روى من سيف بن عمر أنه قال « لما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهرى[1] فقال : أشر على برجل منفذ لأمرى ولا يقصر ،

(١) أبو عبدالرحمن ، قائد من كبار الفاتحين ، ولد بمكة ورأى رسول الله =

قال ما أعرف لذلك غيرى ، قال أنت لها ، وجعل على مقدمته يزيد بن شجرة في ألف وقال : إن قدمت ياحبيب وقد قتل فلا تدعن أحداً أشار إليه ولا أعان عليه إلا قتلته وإن أتاك الخبر قبل أن تصل فأقم حتى أنظر ، وبعث يزيد بن شجرة في ألف على البغال يقودون الخيل معهم الإبل عليها الروايا فأغذ السير فأتاه قتله بقرب خيبر »[1].

والذى نراه أن الرواية الأولى أقرب إلى القبول من الثانية لأنها تتفق مع ما عليه معاوية من طموحات مذ عرف حلاوة المناصب ويؤيد الأخذ بها ما أجمعت عليه المصادر بأن عثمان كتب إلى عماله في وقت مبكر من الحصار وأنه قد مضت مدة ليست بالقليلة بين إرساله الكتب إليهم وقتله ، وأن معاوية لو كان جاداً في انفاذ الجيوش لنجدة الخليفة . لبعثها الي المدينة قبل مقتله ولعله تلكأ في ارسالها ليشتد الأمر على الخليفة كي يقبل العرض الذى عرضه عليـــه معاوية لاستبدال الشام بالمدينة لتكون حاضرة الدولة الإسلامية .

وعلى أية حال فإن أهل البصرة لما وصلهم كتاب عثمان لبوا نداءه ، فخرجوا في حشد كبير لنجدته بقيادة مجاشع بن مسعود ، فما كادوا يصلوا إلى الربذة حتى أتاهم نعي عثمان .

= صلى الله عليه وسلم ، لما تولى عثمان الخلافة بعثه هو وسلمان بن أبي ربيعة لإخضاع جماعة انتقضوا في أذربيجان فأخضعاهم ، وكان معاوية يستشيره في أمور كثيرة كان يقال له حبيب الروم لكثرة دخوله إلى هم ونيله منهم .

حارب مع معاوية في صفين .

ولما صفا الملك لمعاوية ولاه أرمينية فتوفى بها .

ابن حجر « الاصابة » ج ١ ص ٣٠٨ .

(١) الذهبى « تاريخ الاسلام » ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

فإذا ما انتقلنا إلى الكوفة وجدنا العديد من أهلها يخرجون لنجدة أهل المدينة ومنهم القعقاع بن عمرو وبقى منهم عدد آخر يحضون الناس بها لنجدة أهل المدينة .

أما مصر فإن معاوية بن حديج[1] خرج منها لنجدة الخليفة ولم تكن الحالة بها تسمح أن يقوم عبد الله بن سعد بن أبى السرح بتجييش الجيوش منها لنجدة الخليفة ذلك أن عثمان أذن لعبد الله بن سعد بالخروج من عمله فى أثر المصريين .

فلما كان بأيلة[2] بلغه أن المصريين رجعوه إلى عثمان فحصروه للمرة الثانية ، وأن محمد بن أبى حذيفة غلب المصريين واستجابوا له وحاول عبد الله العودة إلى ولايته لاستنقاذها من محمد فحال المصريون بينه وبين ذلك ومن ثم

---

(١) ابن حديج بن قتير الكندى السكونى ، أبو نعيم ، الأمير الصحابى كان ممن أبلى فى وقعة اليرموك . له أحاديث عن النبى ﷺ شهد صفين مع معاوية إلى مصر فقتل محمد بن أبى بكر الذى عينه على واليا عليها ، غزا المغرب واستولى على صقلية وفتح بنزرت أعيد إلى ولاية مصر وعزل منها وتوفى بها .

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٣٠٨ .

الزركلى ، الأعلام ، ج ٨ ص ١٧١ .

عبد السلام الرياتينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، ج ٣ ص ٨٧٨ .

(٢) ميناء صغيره على رأس خليج العقبة ، كانت منذ القدم مركزا تجاريا متوسطا بين مصر وفلسطين والجزيرة العربية ، ازدهرت تجارتها أبان العصر الإسلامى عامة ، وفى القرن الثالث الهجرى بنى أحمد بن طولون بها طريقا محصنا عرف بعقبة أيلة ثم أطلق على المكان اسم العقبة مجازا ، وهى اليوم ميناء عربية بالأردن .

أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامى ، ج ١ ص ٢٢٨ .

أتى عبد الله فلسطين فأقام بها حتى قتل عثمان [١] .

مما تقدم يتبين لنا ، أن الظروف لم تكن فى صالح عثمان مما هيأ الأسباب أمام الثوار فى وضع حد لحياة الخليفة .

خاتمة عثمان :

أخذت الأحوال فى المدينة تزداد صعوبة يوما بعد آخر فضرب الثوار حصاراً كاملا على بيت عثمان ، استغرق ذهاء أربعين يوما وصار الدخول إلى الخليفة أمر محفوف بالمخاطر والذى زاد من ألم الحصار على أمير المؤمنين أن أن القوم منعوه الماء فقد روى طلحة أن عثمان بعث لعلى وطلحة والزبير وإلى عائشة وأزواج النبى ﷺ ، وهو محاصر أن القوم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئا منه فافعلوا فكان أولهم إنجاداً له على وأم حبيبة ، فلما كان الغلس جاء على وأنكر على الثوار ما يفعلونه بأمير المؤمنين فقال لهم : « إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، ولا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله قالوا : لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

أما أم حبيبة فقد جاءت على بغلة لها برحالة فقيل :أم المؤمنين أم حبيبة فضرب الثوار وجه بغلتها فقالت : إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل ، قالوا : كاذبة ، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس ، وقد مالت

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٦٢ .
محمود شاكر ، الخلفاء الراشدون ، ج ٣ ص ١٦٢ .

رحالها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها[1] .

وهكذا نجد أن الثوار قد بلغ بهم التطرف مبلغا بحيث تجرءوا على أم المؤمنين بهذا الشكل الذى يأباه الدين والمروءة .

وعلى الرغم من هذا فإن بعض الصحابة كان يؤم دار عثمان أثناء حصارها ويجلس مع أمير المؤمنين ليتجاذب معه أطراف الحديث بحثا عن مخرج يخرج المدينة عمن هى فيه من هؤلاء المغيرة بن شعبة ، فقد روى محمد بن عبد الملك ابن مروان ، أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان وهو محصور فقال : إنك إمام العامة وقد نزل بك ما ترى وإنى أعرض عليك خصالا .

إما أن تخرج تقاتلهم فإن معك عدداً وقوة . وإما أن تخرق لك بابا سوى الباب الذى هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها .

وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال أنى لن أفارق دار هجرتى ولن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء .

ومنهم كذلك عبد الله بن عمر الذى دخل على عثمان وهو محصور ، فقال له . ما ترى ؟ قال أرى أن تعطيهم ماسألوك من وراء عتبة بابك غير أن لاتخلع نفسك ، فقال دونك عطاءك ، فقال ليس هذا يوم ذاك . ثم خرج ابن عمر إليهم فقال : إياكم وقتل هذا الشيخ والله لئن قتلتموه لم تحجوا البيت جميعاً أبداً ، ولم تجاهدوا عدوكم جميعا أبدا ، ولم تقتسموا فيئكم جميعا أبدا ، إلا أن تجتمع

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

الأجناد والأهواء مختلفة ، ولقد رأيتنا وأصحاب رسول الله ﷺ متوفرون نقول : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[١].

أما مروان بن الحكم - أمين سر الخليفة - فإنه أشار عليه بما زاد الأمور سوءا فإن عثمان كان قد أعلن للثوار فى خطبة له أنه يتوب إلى ربه من خطأ يكون قد وقع فيه فلما جاء مروان ووقف على الخبر من عثمان أنكر عليه ذلك على الرغم من أن ما قاله عثمان يزيد من طمع الثوار فيه ، فقبل عثمان رأى مروان وسأله عن ما يجب فعله ، فقال له مروان أخرج إليهم فتبرأ مما قلت ، فأبى عثمان قبول ذلك ، فقال له مروان أخرج إليهم فقال له عثمان افعل فحين خرج إليهم قال « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه إلا من أريد ؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا اخرجوا عنا ، والله لئن رميتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم . إرجعوا إلى منازلكم فإن والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا »[٢].

وهكذا نجد مروان قد وضع ثقابا فى برميل من بارود فقد هاج الثوار وماجوا ولاذوا إلى على فتثبت من الخبر وأنكر على عثمان ومروان ما فعلا .

ويلوح لنا أن نائلة زوج عثمان كانت ترتاب فى إخلاص مروان له يدلنا على هذا تأييدها لعلى لما قال لعثمان ، أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به ؟ .

والله ما مروان بذي رأى فى دينه ولا نفسه ، وأيم الله إنى لأراه سيوردك ولا يصدرك وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك . أذهبت شرفك وغابت

---

(١) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ص ٢٦٠ ، ٢٦٤ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ صـ

على رأيك ، فلما خرج علي ، جاءت نائلة لتؤيد رأياً في مروان وقالت لأمير المؤمنين ، قد سمعت قول علي لك وليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء ، قال : فما أصنع ، قالت تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وإنما تركك الناس لمكانه ، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة وهو لا يعصى[1] .

مما تقدم يتبين لنا أن الخليفة كان في حيرة من أمره وأن الأخطاء التي أوقعه فيها مروان لا يمكنه النجاة من عواقبها إلا إذا جاءته نجدات عماله في الأمصار . لما أحس الثوار أن طلائع المدد الذي جاء لعثمان من بعض الأمصار على مقربة من المدينة تشاوروا فيما بينهم ورأوا أنه لا نجاة لهم من موقفهم هذا إلا بقتل عثمان[2] .

وقد اختلفت الروايات حول من تولى قتل عثمان فبعضها يلمح بنسبة هذا الإثم الكبير إلى محمد بن أبي بكر وأخرى تنفي عنه ذلك وتثبت القتل لغيره وحتى نكون على جلية من أمرنا في هذه القضية الخطيرة نعرض لعدد من الروايات تمثل الإتجاهين المتعارضين :

أولا : الروايات التي تلمح بمشاركة محمد بن أبي بكر :

ذكر محمد بن عمر من عبد الرحمن بن محمد ، أن محمد بن أبي بكر تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتاب ، وسودان ابن حمران وعمرو بن الحمق فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٣٨٧ .

المصحف فى سورة البقرة فتقدم محمد بن أبى بكر ، فأخذ بلحية عثمان فقال : قد أخزاك الله يا نعثل[١] .

فقال عثمان : لست بنعثل ، ولكنى عبد الله وأمير المؤمنين قال محمد : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان : يا ابن أخى ، دع عنك لحيتى فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه . فقال لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك وما أريد بك أشد من قبضى على لحيتك ، قال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به ثم طعن جبينه بمشقص فى يده ورفع كنانه بن بشر مشاقص كانت فى يده فوجأ بها فى أصل إذن عثمان ، فمضت حتى دخلت فى حلقه ، ثم علاه بالسيف حتى قتله[٢] .

وروى خليفة بن خياط عن الحسن قال أنبأنى رباب ، أن محمد بن أبى بكر جاء فى ثلاثة عشر رجلا فأخذ بلحيته فعال بها حتى سمعت وقع أضراسه فقال ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابن عامر وما أغنت عنك كتبك ، قال أرسل لحيتى يا ابن أخى ، قال : فأنا رأيته استعدى رجل من القوم بعينه — يعنى أشار إليه — فقام إليه بمشقص فوجأ به رأسه ، ثم تعاوروا عليه حتى قتلوه[٣] .

ثانياً : الروايات التى تنفى عن محمد المشاركة فى القتل :

تطالعنا أكثر من رواية تذكر أن محمد نأى بنفسه عن المشاركة فى إراقة

(١) تشبيها له برجل مصرى قبطى اسمه نعثل كان طويل اللحية والتعثيل الذكر من الضباع .

الذهبى ، تاريخ الإسلام ، جـ ٣ صـ ٢٥٧ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ صـ ٣٠٣ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ صـ ١٨٤ .

دم عثمان فيروى سليمان التيمى عن أبى سعيد مولى أبى أسيد قال (فتح عثمان الباب ووضع المصحف بين يديه فدخل عليه رجل فقال بينى وبينك كتاب الله فأهوى إليه بالسيف فاتقاه بيده فقطعها ، فقال : أما والله أنها لأول كف خطت المفصل ودخل عليه رجل يقال له الموت الأسود فخنقه قبل أن يضرب بالسيف . قال فوالله ما رأيت شيئا ألين من حلقه ، لقد خنقته حتى رأيت نفسه مثل الجان تردد فى حلقه »[1] .

ويروى سيف بن التميمى عن خنساء مولاة أسامة بن زيد - وكانت مع نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان « أنها كانت فى الدار ودخل محمد بن أبى بكر فأخذ بلحيته وأهوى بمشاقص معه فيجأ بها فى حلقه ، فقال مهلا يا ابن أخى ، فوالله لقد أخذت مأخذا ما كان أبوك ليأخذ به ، فتركه وانصرف مستحييا نادما ، فاستقبله القوم على باب الصفة فردهم طويلا حتى غلبوه ، فدخلوا وخرج محمد راجعا فأتاه رجل بيده جريدة يقدمهم حتى قام على عثمان فضرب بها رأسه فشجه ، فقطر دمه على المصحف حتى لطخه ثم تعاوروا عليه فأتاه رجل فضربه على الثدى بالسيف ، ووثبت نائلة بنت الفرافصة فصاحت وألقت نفسها عليه وقالت : يا بنت شيبة أيقتل أمير المؤمنين ؟ وأخذت السيف ، فقطع الرجل يدها ، وانتهبوا متاع الدار[2] .

وأما ابن قتيبة فإنه وافق الروايتين السابقتين وزاد أن عثمان حين خرج عند محمد بن أبى بكر دعا بوضوء فتوضأ وأخذ مصحفا فوضعه فى حجره ليتحرم به[3] .

---

(١) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ص ٣٦٨ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٣) ، الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ٤٤ .

ومن المؤرخين القدامى من أدلى برأيه فى هـذه القضية فقال « الصحيح أن الذى فعل ذلك غيره وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان : لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها . فتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع وحاجز دونه فلم يفد وكان أمر الله قدراً مقدورا »[1] .

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن كثير لأن محمد بن أبى بكر حين جاء مع المصريين إلى المدينـة ما كان يتصور أن الأمر سينتهى بقتل الخليفة ، وتذكر أكثر من رواية أنه حاول إثنـاء الثوار عن قتل عثمان ، ولعـل الروايات التى نسبت إليه المشاركة قد دست عليه من قبل أعداء العلويين لمـا بين محمـد وعلى من أواصر لا تخفى على كل ذى لب من دارس التاريخ وما ذلك إلا لإثبـات أن لعلى دوراً فى تأليب الناس على عثمان وهذا مالم يكن حيث أن الحسن والحسين كانا من بين الذين حملوا السلاح للذب عن دار عثمان .

وعلى أية حال فإن الخليفة قد قتل عند صلاة العصر[2] يوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، وأن زوجه نائلة بادرت بالـكتابة إلى معاوية كتابا تصف فيه ما كان من أمر قتل الثوار لعثمان وبعثت بصحبته القميص الذي قتل فيه أمير المؤمنين مضرجا بالدم ممـزقا عاقدة الشعر الذى نزع من لحية الخليفة فى زر القميص ثم دعت النعمان بن بشير الأنصارى[3] .

---

(١) ابن كثير « البداية والنهاية » جـ ٧ صـ ١٨٥ .

(٢) الذهبى « تاريخ الإسلام » جـ ٢ صـ ٣٦٨

(٣) ابن سعد بن ثعلبة الخزرجى ، أبو عبـد الله . ولى القضـاء بدمشق ، ثم ولاه معاوية اليمن ، ثم استعمله على الكوفة ، ثم ولاه حمص ، ثم مات معاوية بايع لابن الزبير وتمرد أهل حمص فقتله خالد الكلاعى بالشام وبعث برأسه إلى مروان بن الحكم ابن قتيبة المعارف صـ ٢٧ ؛ عبد السلام الترمانيني « أزمنة التاريخ الإسلامي » ق ٣ صـ ٩٠٨ .

فبعثه إلى معاوية ومضى بالقميص حتى آتى على يزيد بن أسيد الذى كان معاويه قد أرسله نجدة إلى عثمان فرحل الجميع إلى الشام[1].

أما أعلام الصحابة فى المدينة فإن وقع خبر القتل كان شديدا عليهم ذلك أنه لما بلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعدا فدخلوا عليه وأكبوا على جثته يبكونه ويعولون حتى غشى على على الذى ما إن أفاق حتى عنف ولديه لتفريطهما فى الدفاع عن عثمان[2].

وقد اختلف الرواة فى المدة التى مكثها عثمان مقتولا حتى وارى القبر بحش كوكب فيذكر البعض منهم أنه ظل ثلاثه أيام فى داره وقد أغلقت عليه والبعض الآخر يقول إنه دفن يوم قتل بين المغرب والعشاء فى خلسة من الثوار وآخرون يقولون أنه ظل يومين بعد قتله ثم دفن .

من العجب أن نجد بعض هذه الروايات السالفة تذكر لنا أن عثمان دفن دون تغسيل وتكفين وهذا ما نأبى قبوله ، والراجح لدينا أن عددا من أعلام الصحابة منها على والزبير وطلحة قاموا بتشييع الخليفة بعد تغسيله وتكفينه والصلاة عليه[3] .

ومهما يكن من أمر فإن كثيرا من الباحثين انبروا لتحليل الظرف التى هيأت الجو أمام الثوار بالمدينة حتى قضوا على حياة الخليفة .

فيروى « الأستاذ الخضرى » أن حاشية بنى أمية بتوجيهها التهم إلى على

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، حـ١ ص ٤٠ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، حـ٢ ص ٣٠١ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٣ ص ١٨٠

الذهبى ، تاريخ الاسلام ، حـ٣ ص ٢٧٠

أفقدت المسلمين بالمدينة ظاهرة الاتحاد التى كانت تكفل وضع حد لغلواء الثوار، ومنعهم من قتل الخليفة فقال «كانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما فى القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك على المدينة رأسا، فى هذه الفتنة التى تظن أنه لم يكن قمها إلا أنه كان هناك شيء واحد فى هذا الوقت الحرج وهو تناس كل مافى النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه، ولا يغيب عن الفكر أن رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماما لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر مافعلوا، لو كانت هناك نظر بعيد لرؤوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التى فرقت كلمة المسلمين .

ومن الباحثين من يذكر أن نجاح الثور فى قتل عثمان بالمدينة كان نتيجة عوامل عدة أحاطت بالخليفة أثناء حصار الثوار له .

١ ـ الشاغبون وهم لا يتركون ما فى رؤوسهم دون إنفاذه لأن فشلهم خطر عليهم .

٢ ـ أهل المدينة وهم بين خاذل وساكت راض وقليل منهم يؤلبون ويعاونون عليه .

٣ ـ بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة إلى أن يصل العينون ويحملونه على نقض ما أبرم، وكلما رأى طريقا للتفريج لا يحبونها حالوه على سدها .

٤ ـ عثمان بمطاوعة بطانته وإحجامه عن إعداء القوم ما أرادوا وإباته

---

(١) « محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية » ص ٣٥٤ .

عن النزول عن الخلافة وإلقاء الأمر يدبرونه كما يشاءون[1] .

وقد عقب نيكلسون على هذه الفتنة التى بدأت بقتل عثمان فقال « لقد مزقت الحروب الأهلية التى تلت هذه الفتنة وحدة الاسلام شر ممزق ولم يندمل بعد الجرح الذى أحدثته هذه الحروب »[2] .

وهـذا صحيح لحسبك أن من نتائج هـذه الفتنة قيام الدولة الأموية ثم انهيارها لتحل محلها الدولة العباسية ناهيك عن هلاك الألوف من الرجال بسبب النزاع على الحـكم نتيجة فتح الفتنة الباب على مصراعيه ليدخل منه كل متزى بذى الإسلام خاقيا وراءه الحقد على هذا الدين وحتى يحقق مأربه ، يدعى أنه يدافع عن أحقية فريق ما فى حكم الدولة الإسلامية دون بقية الفرق التى تنازعه ، فيبث دعوته فى جماعات العامة التى سرعان ما تنضم إليه فتجد الدولة نفسها ملجأة إلى تسيير الجيوش لإخماد هذه الحركات الأمر الذى حال بينهما وبين كثير من الفتوحات فى كثير من الأحايين ، فـكان من نتائج الفتنة تعثر بعض الفتوحات أو تأجيل إتمامها لزمن .

على أن من أعظم النتائج التى تمخضت عنها هذه الفتنة استشهاد العديد من أعلام الصحابة وأحفادهم نتيجة الدخول فى النزاعات التى كثرت عقب هـذه الفتنة وحق للخضرى أن يقول أن قتل عثمان كان بداية لتاريخ الشؤم[3] .

---

(١) سيد الوهاب النجار « الخلفاء الراشدون » ص ٢٥٢ .

(٢) أبو زيد شلبى « الخلفاء الراشدون » ص ١٩٠ .

(٣) محاضرات فى تاريخ الدولة الأموية ص ٢٥٥

الفصل الخامس

خلافة علي كرم الله وجهه

اختلفت الظروف التي واكبت خلافة علي عن تلك التي أحاطت بخلافة أسلافه ذلك أن خلافة الصديق جاءت نتيجة إجماع من المهاجرين والأنصار ـ كما أسلفنا ـ وأن خلافة عمر قد كانت بعهد من الصديق سبق بمشورة وتلاه إجماع كما أومأنا إلى هذا عند حديثنا عن خلافة عمر .

وعلى الرغم من أن خلافة عثمان جاءت في ظل ظرف بالغ الصعوبة على جماعة المسلمين بالمدينة فإن استخلافه رضوان الله عليه قد كان عن رضى من الجميع وفي ظل جو يسوده الأمن لم تروع فيه أفئدة أهل المدينة كما روعت أثناء تحلق الثوار بعثمان فاذا ما ولينا وجوهنا شطر الظروف التي بويع فيها علي بن أبي طالب وجدنا الأمر قد بلغ مداه في الصعوبة فالثوار يأبون الإنصراف عن المدينة إلا بعد تولية خليفة من المسلمين يرضون عنه والخليفة الذي يتولى عليه الأخذ بثأر عثمان من قاتليه ناهيك من كون الذي يقبل تولية الأمر سيجابه بأمر هام أحدثته الثورة على عثمان وهو تجرؤ الحاقدين الطامعين على انتقاد الخليفة لنيل مأرب أو تحقيق نفع ما .

ومن ثم لا نجد غرابة في قبول ما ذكرته المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي من أن الثوار لاحقوا الأعلام الثلاثة علي وطلحة والزبير لمبايعة أحدهم وكلهم كان يأبى قبول المنصب .

وقد أحسن أحد الباحثين صنعا حين ذكر لنا احتمالين كان على علي أن

أن يختار أحدهما بعد أن ركز الثوار الأنظار عليه فقال .

كان على بن أبي طالب رضى الله عنه أمام موقفين لا ثالث لهما ، الأول: أن يصر علي رفض الأمر وعدم الموافقة علي البيعة ، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون ، ويتصرف فى المدينة الأعراب والمنحرفون ، بل ربما ازداد الوضع سوءا وهو المحتمل فيعبث هؤلاء العابثون فى الأرض فسادا ، ويزداد قتلهم للناس ، وقد ارتكبوا أكبر جريمة بقتلهم الإمام ظلما وعدوانا ، ومتى أقدم الإنسان علي جريمته الأولى سهلت عليه الجرائم وأسوأ الأعمال بعد ذلك وبالفعل فقد هددوا أصحاب الثورة وصحابة رسول الله ﷺ . وإذا ما حدث أن جاءت جند من الأمصار أو طلبت لإبعاد المتمردين عن المدينة وإقامة الحدود عليهم وإعادة نظام الأمن ، فانه يقع القتال داخل دار الهجرة ويذهب ضحيته أعداد من الصحابة هذا بالإضافة إلى انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم ، وهذا ما يخافه العقلاء وأهل الإيمان ، هذا بالإضافة إلى أن تدخل الجند فى شئون المدنيين ، وتدخلهم فى أعمال الناس ، وبحثهم فى أمر الخلافة لموضوع يجب الابتعاد عنه تمام الإبتعاد وهذا ما كان ينظر إليه الإمام علي كرم الله وجهه ويحرص ألا يحدث وهو الأمر الذى جعله يقبل الخلافة .

أما الموقف الثانى : وهو قبول الخلافة والرضا بالأمر الواقع وذلك من أجل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض والخوف من تفرقة الكلمة وإعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة وإبعاد المتمردين والإعراب والمنحرفين عن المدينة وإقرار الأمن ، وإعطاء الهيبة للخلافة وتطبيق منهج الله فى الأرض[1] .

---

(١) محمود شاكر الخلفاء الراشدون جـ ٣ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

ولما كان على رضوان الله عليه من أوائل الحريصين على رأب الصدع والتئام شمل الأمة بعد ما حدث من قتل عثمان فإنه آثر الأخذ بالإحتمال الثانى لأن الله وحده يعلم ما الذى كان سيحدث للأمة إن لم يقبل على الخلافة .

ومن ثم بيعة المسلمين له .

البيعـــة لعلى : ـ

اختلفت الروايات في ما إذا كانت البيعة لعلى قد تمت بعد عرضها عليه مرات عدة فى بضعة أيام متتالية مضت على قتل عثمان أم أن عليا قبلها إثر عرضها عليه لأول مرة ، ليس هذا فحسب بل أن بعض الروايات ألحت أن عليا لم يقبل البيعة إلا بعد رفض العديد من رجالات الشورى قبولها وحتى يتسنى لنا ترجيح رواية على أخرى لابد لنا من ذكر هذه الروايات المتباينة ومقارنة بعضها ببعض لنرى الراجح منها من المرجوح فمن الأول ما رواه أبو بشير العابدى « قال : كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضى الله عنه واجتمع المهاجرون والأنصار فيهم طلحة والزبير ، فأتوا عليا عليا فقالوا : أبا الحسن ، هلم نبايعك ، فقال : لا حاجه لى فى أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به ، فاختاروا والله فقالوا : ما نختار غيرك ، قال : فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضى الله عنه مرارا ثم أتوه فى آخر ذلك ، فقالوا له : إنه لا يصلح الناس إلا بأمره وقد طال الأمر فقال لهم : إنكم قد اختلفتم إلى وأتيتم وإنى قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم وإلا فلا حاجة لى فيه ، قالوا ما قلت من شىء قبلناه إن شاء الله فجاء فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال : إنى قد كنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، إلا وأنه ليس لى

أمر دونكم ، ألا إن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهما دونكم ، رضيتم ؟ قالوا : نعم ، قال اللهم أشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك [١].

أما ابن قتيبة فانه روى رواية عن البيعة لعلى فيها زيادة على ما تقدم فى رواية أبو بشير العابدى مع خلوها من حوار على وخطبته فى المبايعين فأما عن الذى تفردت به رواية ابن قتيبة فهو ما قاله إنه لما كان صبيحة اليوم التالى لدفن عثمان « اجتمع الناس فى المسجد ، وكثر الندم والتأسف على عثمان رحمه الله ، وسقط فى أيديهم وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتل عثمان ، فقال الناس لهما أيها الرجلان ، قد وقعتما فى أمر عثمان ، فخليا عن أنفسكما ، فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس ، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة ! حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله ، ثم قام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى ، فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا عليا فبايعوه ، وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه أن أمره إلى الله وقد أحدث أحداثا والله وليه فيما كان .

ومما زاد ابن قتيبة أيضا أن الثوار بعد ترددهم على على عدة مرات لعرض الخلافة عليه فلا يجدون منه إلا إباءا قال بعضهم لبعض « يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ، ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده ،

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

فيثور كل رجل منهم فى ناحية فلا نأمن أن يكون فى ذلك الفساد فارجعوا إلى على، فلا تتركوه حتى يبايع، فيثير مع قتل عثمان بيعة على، فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى على وترددوا إلى الأشتر النخعي [1]، فقال لعلى : أبسط يدك نبايعك، أو لنعصرن عينيك عليها ثالثة ولم يزل به يكلمه ويخوفه الفتنة، ويذكر أنه ليس أحد يشبهه، فمد يده فبايعه الأشتر ومن معه [2].

ومن الثانى ما روى عن محمد بن الحنفية أنه قال « كنت مع أبى حين قتل عثمان رضى الله عنه فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحد أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله ﷺ فقال : لا تفعلوا فإنى أكون وزيرا خير من أكون أميرا، فقالوا : لا، والله ما نحن مفاعلين حتى نبايعك، قال : ففى المسجد، فإن بيعتى لا تكون خفيا ولا إلا عن رضا المسلمين [3].

ومن الثالث ما رواه طلحة بن الأعلم وأبو حارثة وأبو عثمان قالوا : « بقيت المدينة بعد قتل عثمان رضى الله عنه خمسة أيام وأميرها الغافقى

---

(١) مالك بن الحارث بن يغوث .
بعثه على مصر فتوفى بها سنة ثمان وثلاثين من الهجرة أثر تناوله شربه عسل مسمومة .
ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب » جـ ١ صـ ٤٨ .
عبد السلام الترمانينى « أزمنة التاريخ الإسلامى » ٣ صـ ٥٢٧ .
(٢) الإمامة والسياسة ج ١ صـ ٤٦، ٤٧ .
(٣) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » جـ ٤ صـ ٤٢٧ .

بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه يلقى المصريون عليا فيختبيء منهم ويلوذ بحيطان المدينة فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه فأرسلوا إليه حيث هو رسلا ، فباعدهم وتبرأ من مقالتهم ، ويطلب البصريون طلحة فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة ، وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يهوون ، فلما لم يجدوا ممالئا ولا مجيبا جمعهم الشر على أول من أجابهم وقالوا : لا نولي أحدا من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد ابن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك فبعث إليهم إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال ثم إنهم أتوا ابن عمر فقالوا ، أنت ابن عمر فقم بهذا الأمر ، فقال : إن لهذا الأمر انتقاما والله لا أتعرض له ، فالتمسوا غيري فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم »[(1)] .

وقد انبرى أحد الباحثين للتوفيق بين هذه الروايات المتباينة فذكر أنه يمكن التوفيق بينها حين نقول « بأن جمهور أهل المدينة قد جاءوا عليا يعرضون عليه الخلافة في يوم مقتل عثمان وأن الجوار قد طال بينهما حتى نفد صبر الثوار فأنذروا أهل المدينة وأمهلوهم يومي الثلاثاء والأربعاء الرابع والخامس من إمرة الغافقي ، وأن أهل المدينة قد اجتمعوا يوم الخميس حيث وافق على قبول الخلافة وتواعدوا يوم الجمعة حيث تمت البيعة لعلي »[(2)] .

ونحن إذا أمعنى النظر في هذه الروايات نجد أن رواية محمد بن الحنفية

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٣١
(٢) يوسف علي يوسف ، الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص ١٦٩ .

أقربها إلى القبول فوق أن راويها كان يعلم حقيقة الأحداث بشكل ربما لا يتوفر لغيره فإن الذى تضمنته الرواية يتفق تمام الإتفاق مع ما عليه على بن أبى طالب من استقراء جيد للأمور والنأى بنفسه عن كل ما يجعل التهمة قريبة منه ولا سيما فى أمر عصيب. كهذا ويضاف إلى هـذا أن الرواية المذكورة لا تتعارض مع رواية أبى بشير العابدى فى المضمون وإن كان لنا من شك فيما أسلفناه من الروايات فإنه ينسحب على ما ذكره « ابن قتيبة » من أن الزبير وقف فى الناس خطيبا وعرض عليهم التوجه إلى على لمبايعته ، لأن هذا يتعارض مع مجريات الأحداث التى أعقبت بيعة على فى المدينة ، ناهيك عن كون الثوار الذين أزهقوا روح الخليفة عثمان رضوان الله عليه كان منهم من يريد الزبير خليفة على المسلمين وهذا يجعل الزبير رضوان الله عليه لا يبادر إلى ترشيح على للخلافة إلا أن يكون هـذا على سبيل نفى ما نسبه إليه الأمويون وغيرهم من التقصير فى الدفاع عن عثمان رضوان الله عليه ودفع الجميع إلى عرض الخلافة على علي حتى تلقى المسئولية على كاهله وحده وهذا ما نرجحه فى حالة صحة هذه الرواية .

ومما يدعم ما ذهبنا إليه أن العديد من مصادر التاريخ الإسلامى ذكرت روايات تنفى عن الزبير وطلحة أنهما بايعا على طواعية إنما كان ذلك منهما على سبيل إكراه الثوار لهما .

موقف طلحة والزبير من بيعة على :

لما كان الرجلان خرجا على على بالبصرة فى موقعة الجمل - كما سنبينه - فإن الإخباريين ذكروا روايات متباينة فى مصادر التاريخ الإسلامى عن

موقف طلحة والزبير من على نلمح فى بعضها محاولات تبرئة ذمة الرجلين من بيعة على وفى البعض الآخر نجد تصريحا بأن طلحة والزبير نقضا بيعتهما لعلى من أجل أنهما نفسا عليه انفراده بالخلافة ومن ثم عملا على تأليب الناس عليه .

فمن الأول ما رواه الزهرى فى إحدى روايتيه عن هـذا الأمر قال : « بايع الناس على بن أبى طالب ، فأرسل إلى الزبير وطلحة فدعاهما إلى البيعة ، فتلكأ طلحة ، فقام مالك الأشتر وسل سيفه وقال : والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك ، فقال طلحة : وأين المهرب عنه ، فبايعه الزبير والناس وسأل طلحة والزبير أن يؤمرهما على الكوفة والبصرة فقال تكونان عندى فأتجمل بكما فإنى وحش لفراقكما » .

وروى سعد ابن أبى وقاص وقال « قال طلحة : بايعت والسيف فوق رأسى ـ فقال سعد لا أدرى والسيف على رأسه أم لا ، إلا أنى أعلم أنه بايع كارها[1] .

ويذكر ابن الأثير خبر إكراه طلحة والزبير على البيعة دون إسناده إلى راو بعينه فيقول وقيل ... إن الناس (يريد الثوار بالمدينة) تشاوروا فيما بينهم وقالوا : « إن طلحة والزبير فقد استقامت فبعث البصريون إلى الزبير حكيم بن جبلة وقالوا أحذر لا تحابه ، ومعه نفر ، فجاءوا به يحدونه بالسيف فبايع ، وبعثوا إلى طلحة الأشتر ومعه نفر ، فأتى طلحة ، فقال : دعنى أنظر ما يصنع الناس ، فلم يدعه ، فجاءه يتله تلا عنيفا ، وصعد المنبر فبايع وكان الزبير يقول : جاءنى لص من لصوص عبد القيس فبايعت والسيف على عنقى وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة وقد خشع

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٣١ .

أهل الكوفة والبصرة إن صاروا أتباعا لأهل مصر وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظا »[1] .

ومن الثاني ما رواه الزهري[2] وابن قتيبة في روايتين لها تنبئان أن طلحة والزبير بايعا عليا دون إكراه وسوف نجتزىء من رواية الزهري بما ننقله عن ابن قتيبة الذي قال « ذكروا أن الزبير وطلحة أتيا عليا بعد فراغ البيعة ، فقالا : هل تدري على ما بايعناك يا أمير ؟ قال علي : نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان فقالا : لا ولكنا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر ، قال : لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد ، قال : وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق ، وطلحة في اليمن ، فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا ، أظهر الشكاة فتكلم الزبير في ملأ من قريش ، فقال : هذا جزاؤنا من علي ، قمنا له في أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسببنا له القتل ، وهو جالس في بيته وكفي الأمر ، فلما نال بنا ما أراد ، جعل دوننا غيرنا ، فقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى ، كرهه أحدنا ، وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا[3] .

على أن بعض الباحثين المحدثين لم يرتض ما ذكره الزهري في روايته من أن طلحة والزبير طلبا صراحة من علي ولاية البصرة والكوفة وأنه رضوان الله عليه قد قابل طلبهما هذا بالرفض فكان ما كان من أمر خروجهما

---

(١) الكامل ج ٣ ص ١٨٣ .

(٢) راجع الطبري « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٤٣١ .

(٣) الامامة والسياسة ج ١ ص ٥١ .

عليه ورفضهما لبيعته فذكر أن عودة على السياسة العمرية مع الصحابة رضوان الله عليهم كان السبب الذى جعل طلحة والزبير يخرجان على على ذلك أن عليا قال لطلحة والزبير حين طلبا منه السماح لهما بالخروج عن المدينة إلى مصر من الأمصار .

أحب أن تكونا معى أتجمل بكما فإنى أستوحش لفراقكما هنالك عرف الشيخان أن عليا سيستأنف سيرة عمر من حيث انقطعت يوم طعنة ذلك الغلام ، وأن أمرهما فى المدينة سيكون كأمرهما وكأمر غيرهما من أعلام المهاجرين مع عمر سيقيمان فى المدينة وسيأخذان عطاءهما كل عام ، ولن يلقيا من على بعض ما كان يمنحهما عثمان من الرفق والتسامح واللين ، فلم يطالبا بالكوفة ولا بالبصرة وإنما سكتا على مضض ودبرا أمرهما فى روية وأناة[1] .

أن من يجيل النظر فى الروايات السابقة يجد أن الرواية الأولى المنقولة عن الزهرى ورواية سعد بن أبى وقاص ترجحان الروايتان التاليتين لهما ذلك أن قبضة الثوار كانت ماتزال ممسكة بالمدينة وبأيديهم بويع على بعد ما هددوه فمن المعقول إذن أن يعملوا على جعل طلحة والزبير يبايعان على ولو تحت إكراه السيف حيث كان لكل منهما جماعة من جماعات الثوار تؤيده وتؤازره ولما كانت الغلبة لحزب المصريين الموالى لعلى فإن مصلحته جعل طلحة والزبير يبايعان على مع جل سكان المدينة الذين أقبلوا على مبايعة على طواعية دون إكراه فإن مصادر التاريخ الإسلامى ومراجعه أجمعت أو كادت على

---

(١) طه حسين على وبنوه ص ٢٠ .

أحمد إبراهيم الشريف دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

أن الثوار لم يكرهوا أهل المدينة على بيعة على بيد أن الذى نجزم به إكراه الثوار لطلحة والزبير على البيعة إن حدث فإنه لم يكن أمام على رضوان الله عليه لأن هـذا يتعارض مع ما أراده رضوان الله عليه من جعل بيعته مرضى عليها من قبل الجميع ولا سيما أهل الشورى فشرط على الثوار كما أسلفت — أن تـكون البيعة فى المسجد علانية ليقف بنفسه على قبول الناس مبايعته بالخلافة والذى يؤيد ما ذكرناه من أن عليا لم يكن يقبل إكراه أحد على بيعته سواء أكان من أهل الشورى أو من غيرهم ما رواه الزهرى أن عليا قال لطلحة والزبير « إن أحببتما أن تبايعا لى وان أحببتما بايعتكما ، فقالا : بل نبايعك ، وقالا بعد ذلك : إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا »[1] .

ولست أرتاب فى شىء قدر ارتيابى فيما ذكره ابن قتيبة على لسان طلحة والزبير من أقوال تشير إلى أن الرجلين ألبا الناس على عثمان بالإتفاق مع على من أجل مقاسمتهما له الحـكم إن آل إليه إليه بعد مقتل الخليفة لأن هذا الامر لا يتفق مع ماضى الثلاثة فى الإسلام ولعل هـذه الرواية دست على ابن قتيبة من قبل أعداء على بقصد تحميله هو وطلحة والزبير إثم قتل عثمان أو لإظهار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم طلاب دنيا لا يريدون وهم فى هذا العصر الأول من عصور الإسلام إلا الاستئثار بالملك ولو سلمنا جدلا بصحة ما نقله « ابن قتيبة » على لسان طلحة والزبير من أقوال لما قبل الناس منهما أثناء وجودهما بمـكة مطالبتهما بدم عثمان إذ كيف يقولان ما قالا ثم يطالبان عليا القصاص من قتلة عثمان .

---

(١) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٥ ص ٤٢٩ .

وعلى أية حال فإن بيعة على قد تمت بالأغلبية وأن الذين لم يبايعوا كانوا من القلة بحيث لا يؤثروا على صحة البيعة وحتى هؤلاء فإنهم وقفوا موقفهم هذا من أجل أمور سلبت منهم إثر قتل عثمان فيروى عبد الله بن الحسن : لما قتل عثمان رضى الله عنه بايعت الأنصار عليا إلا نفيرا يسيرا ، منهم حسان بن ثابت[1] وكعب بن مالك[2] ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة ابن عبيد[3] وكعب بن عجرة[4] كانوا عثمانية ، فقال الرجل لعبد الله بن حسن:

---

(١) هو بن المنذر الخزرجى أبو الوليد أحد المخضرمين الذين شهدوا الجاهلية والإسلام .

شاعر مشهور ، صحب النبي ﷺ ودافع عنه وهجا من كان يهجوه ، لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً لعله أصابته ، وقيل لجبنه ، توفى بالمدينة سنة ٥٤ هـ .

ابن حجر الاصابة جـ ١ ص ٣٢٦ .

ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) ابن عمرو الخزرجى الأنصارى السلمى ، أبو عبد الله أحد شعراء الرسول ﷺ الذين كانوا يردون عنه الأذى ، أسلم وشهد العقبة وشهد المشاهد كلها ما عدا بدرا وتبوك وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا . توفى سنة ٥٠ هـ .

ابن حجر ، الاصابة ، جـ ٣ ص ٢٨٥ .

ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ١ ص ٥٦ .

(٣) هو بن نافذ قيس الأوسى الأنصارى ، من الصحابة ، شهد المشاهد كلها وكان ممن بايع تحت الشجرة يوم بيعة الرضوان شهد فتح الشام ومصر ، انتقل إلى الشام وعينه معاوية قاضياً بمشورة أبي الدرداء ، أمره معاوية على الجيش ، توفى سنة ٥٣ هـ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ١ ص ٥٩ .

عبد السلام الترمانيني ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، ق ٢ ص ٨٠٣ .

(٤) الأنصارى المدني توفى سنة ٥٢ هـ .

ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ١ ص ٥٨ .

كيف أبى هؤلاء بيعة على وكانوا عثمانية قال : أما حسان فكان شاعراً لا يبالى ما يصنع وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال ، فلما حضر عثمان ، قال : يا معشر الأنصار ، كونوا أنصاراً لله . . . مرتين ، فقال أبو أيوب : ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العضدان . فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له »[1] .

وقد أبى أحد الباحثين المحدثين قبول ما جاء فى هذه الرواية وغيرها فى شأن عدم حدوث البيعة لعلى بالإجماع فقال « وعندى أن مبعث هذا الرأى القائل بأن بيعة على لم يتوفر لها الإجماع التام من الأمة ، هو : هذا التوتر الذى ساد المدينة قبيل مقتل عثمان وبعده حتى اختلطت الأمور على الناس واختلفت تفسيراتهم للحوادث وللمواقف التى كانت يومئذ حتى رأينا سيلا من الروايات المختلفة والمتناقضة حول الموقف الواحد .

وعلى أية حال فنحن لا نستطيع الاقتناع بأن الجمهور الأعظم من أهل المدينة يتفق على اختيار على ، ويقف فى مواجهتهم كمعارضين : طلحة والزبير وسعد وابن عمر وغيرهم من كبار الصحابة ، وهم العارفين بفضل على والعالمون بحقيقة شخصية ودرجة أهليته لتولى قيادة سفينة الإسلام فى تلك الظروف العصيبة التى لا يقدر على مواجهتها ومعالجتها بالحزم والحكمة المناسبتين إلا شخص مثل على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

إذن فنحن نطمئن تماماً إلى القول بأن بيعة على لا تكاد تختلف عن بيعة الثلاثة الراشدون من قبله وأن جمهور أهل الحل والعقد وفى مقدمتهم المهاجرون والأنصار قد أجمعوا على اختياره بمحض إرادتهم ، وأن رائدهم

---

(١) الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

فى هذا الاختيار إنما هو مصلحة الأمة وهم لاشك أخبر الناس بهذه المصلحة لأنهم أهل العقد والحل الذين تنعقد بهم الأمور[1] .

وعلى كل حال فإن الذى لا سبيل إلى الشك فيه أن البيعة لعلى قد استكملت كافة شروطها على غرار بيعة أسلافه الثلاث وأن ما ذكره الباحث من تبريرات تنفى خروج البعض عن البيعة يقبلها العقل لموافقتها واقع هؤلاء الأعلام ، وأن ما وجد منافيا لذلك فى مصادر التاريخ الإسلامى لعل الواضعين وضعوه ونسبوه إلى صحابة شهدوا الحدث لهوى أبطنوه وما أكثر ذلك فى دنيا الساسة .

ولما تمت البيعة لعلى فى يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة رقى على مراق المنبر وخطب خطبة البيعة شأنه فى ذلك مراق المنبر وخطب خطبة البيعة شأنه فى ذلك شأن أسلافه الثلاث وقد رويت هذه الخطبة فى مصادر التاريخ الإسلامى بروايات مختلفة نجتزىء عنها بذكر رواية الطبرى لها حيث إن معظم المصادر أخذت بها ناهيك عن الباحثين الكبار فى التاريخ الإسلامى فى عصرنا .

وقد جاء فيها بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله « إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم وإن ما من خلفكم

---

(١) يوسف على يوسف الخلافة والخلفاء الراشدين ص ١٧٧ .

الساعة تحدوكم . تخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عز وجل ولا تعصوه. وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه.
(واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) [١] ، [٢] .

وقد عقب أحد الباحثين على هذه الخطبة تعقيبا نقف من خلاله على أن عليا أراد من خطبته هذه جعل الناس ينصرفون إلى العمل فيما يصلح لهم دينهم ونبذ التنافس على الدنيا وهو بهذا يريد أن يعود بالأمة الإسلامية سيرتها الأولى فى زمن الرسول والصديق ثم عمر [٣] .

ومن البدهى ألا يرق هذا لأولئك الذين أثروا ثراءا كبيرا فى زمن عثمان فباد بعض الصحابة إلى بذل النصح لعلى للتريث فيما ينتويه من إصلاح للأمور ومن هؤلاء الناصحين المغيرة بن شعبة .

موقف على من عمال عثمان :

واجهت على أثر بيعته عقبات كثيرة منها موقفه من عمال عثمان وأخذ الثأر للخليفة المقتول على يد ثوار الأمصار ليس هذا فحسب بل إن الخليفة ألزم نفسه العودة بالمجتمع الإسلامى إلى ما كان عليه أيام الصديق وعمر فإن عليا لم يكن يرضى السير بالأمر إلا على نهج الخليفتين المذكورين .

وإذا كنا قد ألزمنا أنفسنا فى هذا السفر بعدم ذكر أحوال عمال الأقاليم أثناء عهد كل خليفة من الخلفاء فإن ما نذكره هنا عن موقف على من عمال

---

(١) قرآن كريم سورة الأنفال آية ٤١
(٢) الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٤٩٤ ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ١٩٤
(٣) عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٧٨ .

عثمان لا يعدو عن كونه إظهاراً لسبب من أسباب الفتن التى قامت فى وجه الخليفة الرابع رضوان الله عليه .

لم يمض على استخلاف على إلا اليسير من الوقت حتى أم داره المغيرة بن شعبة لبذل النصح للخيلفة فى هذا الوقت العصيب كى يستطيع الخروج بالأمة من هذا الأمر الخطير الذى ألم بها من جراء قتل عثمان رضوان الله عليه .

فلما دخل المغيرة على على قال له : « إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله وإقرار العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعه الجنود استبدلت أو تركت . قال : حتى أنظر . فخرج من عنده وعاد إليه من الغد ، فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى ، وأن الرأى أن تعاجلهم بالنزوع ، فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك ثم خرج .

فلما عرض على ما قاله المغيرة على ابن عباس قال له (أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك) وقد نقل عن المغيرة أنه قال (نصحته والله ، فلما لم يقبل خششته)[1] .

وعلى كل حال فإن علياً مضى فيما أراد من استبدال آخرين بعمال عثمان على الأمصار ويرجع ذلك كما يقول بعض الباحثين إلى سببين :

الأول : خاص بذاته هو ، فإنه كان يلوم عثمان دائما على توليته هؤلاء الولاة ، وكان ينكر عليهم سياستهم فى الأقاليم وسيرتهم فى الناس ،

الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٤ ص ٤٢٨ — ٤٣٩ .
ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

فلو أبقاهم لتناقض مع ذات نفسه ، ولتعرض لاتهامه بالحرص على الخلافة ولو على حساب دينه وشرفه .

والسبب الثاني : أن الثوار إنما كانوا يسخطون فيما يسخطون على هؤلاء العمال ، وهم لم يكونوا يريدون تغيير الخليفة فحسب بل كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شيء ، فإذا أقر علي هؤلاء العمال فكأنما أقر السياسة وأبقى أسباب السخط فتعارض مع أهداف الثورة وتعرض لما تعرض له عثمان من النقمة [1] .

لذلك كله أصدر علي أمره بتعيين عمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر وعثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام ، وقد استطاعوا جميعا الوصول إلى أعمالهم خلا سهل بن حنيف الذي ردته خيول معاوية من على تخوم الشام إلى علي [2] ، فكان ذلك بمثابة بداية لمواجهة عنيفة بين معاوية المتحصن بالشام وعلي بن أبي طالب ، وعبثاً حاول الخليفة استمالة ابن أبي سفيان عن طريق رسائل بعث بها علي إليه ذلك أن معاوية التزم الصمت فلم يرد عليها إلا بعد ثلاثة أشهر مضت على قتل عثمان ثم بعث برجل عبسي إلى علي برسالة كتب عليها من الخارج من معاوية إلى علي وأمره بإظهارها للناس عند دخوله المدينة ، فلما مثل رسول معاوية بين يدي علي دفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم يجد في جوفه كتابة فقال للرسول : ما وراءك ؟ قال : آمن أنا ؟

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف (دور الحجاز في الحياة السياسية العامة) ص٣٤٢ .

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٤٤٢ .

ابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ٢٠١ ،

طه حسين (علي وبنوه) ص ٢٢ ، ٣٢ .

قال نعم ، إن الرسل آمنة لا تقتل ، قال : وراءى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالوقود ، قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق ، قال : منى يطلبون دم عثمان ، ألست موتورا كترة عثمان اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ونجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً أصابه ، أخرج قال . وأنا آمن ؟ قال : وأنت آمن)[1] .

ويبرر أحد الباحثين إباء معاوية مبايعه على فيذكر أسباب ثلاثة يعزى هذا الموقف .

أولها : أنه يتهم عليا بشيء من أمر عثمان .

ثانيها : أوى قتلته فى جيشه .

ثالثها : أنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة ، نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً فى بيعة نتيجتها إذلاله والاستهانة به ، وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للإمارة عليهم ، ولم ير لعلى بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطرارا[2] .

تأهب على لقتال معاوية بالشام ورده إلى الطاعة بيد أنه حدث ما حال بينه وبين ماعزم عليه ، ذلك أن طلحة والزبير وعائشة رضوان الله عليهم ، أعلنوا الخروج على بيعته والمطالبة بدم عثمان فكانت موقعة الجمل .

موقعة الجمل

بادىء ذى بدىء نقول إن هذه الموقعة هى إحدى النتائج التى ترتبت على مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه .

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ج ٤ ص ٤٤٤ .

(٢) الخضرى (محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية) ٣٦٧ .

وعلى الرغم من أن كثيراً من الباحثين ذكروا أسبابا عدة يرون بها خروج كل واحد من الثلاثة — عائشة وطلحة والزبير على على — فإننا نقول إنه وإن اختلفت دوافع الخروج عند هذا أو ذاك فإنهم جميعاً اتفقوا فى جعل سبب المطالبة بدم عثمان السبب الأوحد الذى يظهرون به على الناس وأبطن كل واحد منهم دوافعه الأخرى .

هذا إذا سلمنا بوجود دوافع خفية عند بعض الخارجين على على .

فأما عن موقف على من أخذ الثأر لعثمان رضوان الله عليه ، فإن الإمام لم يكن يستطيع مبادأة الثوار بالقصاص لعثمان وهم ما يزالون بالمدينة ومعهم العديد من المنافقين الذين يريدون لنار الشر أن تظل مشتعلة لتقضى على أعلام الأمة فى المدينة المنورة ، فمن الحكمة والحالة هذه أن يتريث الخليفة فى الأمر حتى يضمن رحيل الثوار من المدينة وإذعان بقية أقاليم الدولة له ، ثم يلجأ بقوة سلطانه الذى يكون قد تدعم إلى تنفيذ حد الله فى قتلة عثمان .

ولما كان الخارجون عليه لا يريدون فى حقيقة أمرهم نيل وتر عثمان بقدر ما يودون تحقيقه من أمور أخرى أبطنوها فإنهم لم يمهلوا على لبعض الوقت ليروا منه كيف يتصرف مع أولئك الذين أراقوا دم الخليفة على غير وجه حق ولم يقبلوا منه ما اعتذر به إليهم من كون الظرف غير ملائم لأخذ الثأر العثمانى [1] .

فقد روى أن محمد وطلحة اجتمعا إلى على بعد ما دخل طلحة والزبير فى عدة من الصحابة فقالوا : يا على ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم ، فقال لهم : يا أخوتاه ،

---

(١) أحمد الحفناوى (حركات ومؤامرات) ص ٣٥ .

إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسمونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا ، إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا [١] .

لم تكد تمضى إلا عشية أو ضحاها على حديث على مع هؤلاء المطالبين بثأر عثمان حتى بدأوا فى كشف النقاب عن خروجهم على خلافته فإن عائشة رضوان الله عليها حين فصلت من مكة قاصدة المدينة إثر فراغها من العمرة لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث يقال له عبيد بن أبى سلمة وهو ابن كلاب فقالت له ، مهيم ؟ قال : قتلوا عثمان وبقوا ثمانيا . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعة على ، فقالت : ليست هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ردونى ردونى ، فانصرفت إلى مكة وهى تقول : قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه ، فقال لها : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر . قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه ، فأجمع الناس حولها فقالت : أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٤ ص ٤٢٧ .

الرجل المقتول ظلما بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعها ونزع لهم عنها . فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)[1] .

وقد ذكر عدد من الكتاب المحدثين أسباباً عزوا إليها موقف عائشة من علي فقالوا كان معروفا أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب عليا ولا تهواه ، بل كان معروفا أنها كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك حين أراد علي أن يواسي النبي ﷺ فأشار عليه بأن يطلقها وقال له : « إن النساء غيرها كثير » ولو سألت بريرة لصدقتك عنها فكان قول علي هذا مما غير قلب عائشة عليه وجعلها تذكر اسمه حتى أنها لما ذكرت أن رسول الله ﷺ خرج وهو مريض إلى المسجد قالت لقد خرج يتهادى بين العباس ورجل آخر تعني علياً . وكانت تنكر على علي أمرين آخرين : أحدهما لم يكن لعلي فيه خيرة فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ورزق منها الحسن والحسين فكان أبا الذرية الباقية للنبي لم يتح لها هي الولد من رسول الله ، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية[2] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) هي بنت شمعون القبطية . مصرية الأصل ، أهداها المقوقس القبطي صاحب مصر والاسكندرية سنة ٧ هـ إلى النبي ، تسرى بها النبي ﷺ فولدت له ابراهيم . فقال : أعتقها ولدها . لما توفى النبي ﷺ تولى أبو بكر الإنفاق عليها ثم عمر ، وماتت في خلافة عمر بالمدينة ، أعني معاوية بن أبي سفيان أهل قرية (حفن) =

أم ابراهيم في أواخر أيام النبي فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء ولا سيما وهي كانت أحب نساء النبي إلى النبي .

أما الأمر الآخر فهو أن عليا قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله وهي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ في حجر علي فكانت عائشة تجد على علي لهذا كله[١] .

ومن هؤلاء الكتاب من ذكر أن عائشة أرادت أن تكيل لعلي بنفس الكيل الذي كاله لأبيها الصديق حين اتفق المهاجرون والأنصار على استخلافه فامتنع عن بيعته على حد قول بعض الروايات - كما أسلفت - فطفق يتساءل لماذا تسرع عائشة لمبايعة علي ؟ ولماذا تتركه يهنأ بهذه الخلافة من أول يوم ؟ وهو الذي نفس على أبي بكر الخلافة وامتنع عن مبايعته زمنا .

وقال أن العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير فهو ابن أختها أسماء ولم يكن لعائشة أولاد وأخذته من أختها وربته في بيتها وصار كأنه ابن لها حتى كانت تسمى أم عبد الله ، وكان عبد الله طموحا يطمع في الخلافة ولكن وجود علي كان يحول بينه وبين تحقيق هذه الأمنية ، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد علي ، لعل عليا يسقط فيها فيخلو له الجو ، وكثيراً ما ترددت خالته عائشة عن مواصلة العمل لهذه المعركة ، ولكن عبد الله كان

= وهي قرية مارة بمصر من أجود أراضيهم إكراما لها بناء على طلب الحسن ابن علي . ابن حجر الإصابة ج ٤ ص ٣٩١ .
عمر رضا كحالة أعلام النساء ج ٥ ص ١٠ .

(١) طه حسين ، علي وبنوه ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٩١ .

يحاول دائماً أن يزيل ترددها ويحملها هذا الحمل الصعب ، فمن الممكن أن نقول إن عائشة دفعت لهذا العمل وإن الذى دفعها هو عبد الله والمرأة هى المرأة على كل حال ، تضعف أمام حيل الرجال ولا تقوى أمام وسائلهم[1] .

وإن النفس لا تسكن الأخذ بجل الأسباب التى ذكرها الباحثون المحدثون وبرروا بها موقف عائشة من على ، فإن الذى لا يداخلنا شك فيه أن زوج النبى رضوان الله عليها لم تصل إلى هذا المستوى من التفكير الذى حلا للبعض نسبته إليها فما قيل من حنقها على على بسبب موقفه منها أثناء فرية الإفك أمر لا يستقيم لأنى أعتقد أن براءة السماء التى نزلت فى حق عائشة كفيلة بتطييب فوائدها وجعلها تأخذ بمبدأ العفو والتسامح اللذان غرسهما فيها النبى محمد ﷺ ، وعلى فرض أنه كان ما يزال فى نفسها شيئاً من على نتيجة موقفه منها ، فإنى لا أتصور أن يدفعها هذا إلى خوض معركة كوقعة الجمل فى هذا الوقت العصيب على الأمة الإسلامية ، ولا سيما أنها تدرك أن النتيجة ربما لا تكون فى صالح أتباعها ، أو أن على قد ينجو منها فتخفق فى مأربها الذى زعم الرواة أنها تمنته . وأوهى من هذا أن يقال أنها حنقت على على لإنجاب الولد من فاطمة مع حرمانها منه على الرغم من إنجاب النبى ابراهيم من مارية القبطية لأن ترويج مثل هذه مثل هذه الآراء المقصود منه الطعن ولو بطريقة خفية فى إيمان السيدة عائشة رضوان الله عليها ، فالذى لا سبيل إلى الشك فيه أنها مؤمنة بأن الله يجعل من يشاء عقيماً ويهب لمن يشاء ذكوراً أو إناثاً . فلا مجال إذن لجعل هذا الأمر الذى ينم عن ضعف الإيمان بقدرة الله سبباً لخروج عائشة على على رضوان الله عليهما وحسبك فى التدليل على أما عليه السيدة عائشة رضوان الله

---

(١) أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، جـ ١ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

عليها من إيمان قوى فاقت به الكثيرين أن رسول الله ﷺ فى حديث له فيما معناه ، خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء يعنى عائشة إذا كانت محمرة الوجه ، فكيف والحالة هذه يجوز لأحد الكتاب المتفرنجين نسبة ما نسبه إلى عائشة من الحقد على علي .

وعلى غرار ما أسلفناه من رفض للسببين المذكورين فإننا نأبى كذلك الأخذ بما قيل من حقد عائشة على علي نتيجة زواجه بأسماء بنت عميس وتربيته لمحمد بن أبى بكر ولعمري كيف يظن بعائشة الغضب لزواج علي من امرأة أبيها وتربيته لأخيها ، إنه بفعله هذا لم يقترف إثماً ولم يلحق بها ضررا إن هذا إن جاز قبوله من النسوة الأخريات لضعف إيمان عندهن قد يسمح للشيطان بالتسلل إلى أفئدتهن فيجعلهن يبذلن المكايد للرجال حين يقدموا على عمل كهذا فهيهات هيهات أن تكون عائشة رضوان الله عليها من هاتيك النسوة إذ هى أم المؤمنين وأحب أزواج سيد المرسلين إليه .

والذى أكاد أميل للأخذ به من بين الأسباب السالفة ما قيل عن الدور الذى قام به عبد الله بن الزبير فى جعل خالته تسير مع الثائرين إلى البصرة وذلك لأنها شغفته حبا وهو — إن زاد — يجعل الإنسان فى كثير من الأحايين يقدم على فعل أشياء لا يقبلها وذكر رسول الله ﷺ ما يدعم رأينا هذا فقال « حبك الشيء يعمى ويصم » ، وأمر آخر يؤكد ما ذهبنا إليه أنها رضوان الله عليها أظهرت الندم على ما فعلت عقيب انتهاء المعركة كما سنذكره .

وقد قوى ذهابها مع الثائرين اعتقادها أن عثمان حين قتل بعد ما أظهره من توبة يكون قد قتل ظلما ، ومن ثم سارت مع الثائرين لتعضيدهم فى نيل وتر عثمان .

وعلى كل حال فإن عليا قد وقف على خبر الخارجين عليه بمكة من كتاب بعث به إليه أخوه عقيل[1] أطلعه فيه على حقيقة الأحوال بمكة وما كان من أمر الخارجين عليه وأعرب فيه عن استعداده هو وبنية الإتيان إليه لتعضيده والشد من أزره ، فأجابه على بكتاب جاء فيه (قدم على عبدالرحمن الأزدى بكتابك ، تذكر فيه أنك لقيت ابن أبى سرح ، فى أربعين من أبناء الطلقاء من بنى أمية ، متوجهين إلى المغرب وابن أبى سرح يا أخى طال ما كاد رسول الله ﷺ . وصد عن كتابه وسنته وبغاها عوجا ، فدع ابن سرح وقريشا وتركاضهم فى الضلال ، فإن قريشا قد اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعها على رسول الله ﷺ قبل اليوم ، وجهلوا حقى وجحدوا فضلى ، ونصبوا إلى الحرب ، وجدوا فى إطفاء نور الله ، اللهم فاجز قريشا عنى بفعلها ، فقد قطعت رحمى ، وظاهرت على وسلبتنى سلطان ابن عمى وسلمت ذلك لمن ليس فى قرابتى ، وحقى فى الإسلام ، وسابقتى التى لا يدعى مثلها مدع ، إلا أن يدعى ما لا أعرف ، ولا أظن الله يعرفه ، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وأما ما سألت أن أكتب إليك برأيى فإن رأيى جهاد المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة

---

(١) هو بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، أبو يزيد ، أعلم قريش بأيامها ومآثرها هو أخو على بن أبى طالب لأبيه ، بقى على الشرك إلى موقعة بدر ، فأخرجته قريش كرها فشهدها معهم وأسره المسلمون ففداه العباس بن عبد المطلب فرجع إلى مكة ، ثم أسلم بعد الحديبية ، فارق أخاه عليا فى خلافته فوفد إلى معاوية فى دين لحقه فأعطاه وأكرمه ، توفى فى أواخر أيام معاوية .

ابن سعد « الطبقات » ج ٤ ص ٢٨ .

لأنى محق ، والله مع المحق ، وما أكره الموت على الحق لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق وأما ماعرضت به مسيرك إلى بنيك وبنى أبيك فلا حاجة لى فى ذلك ، فقدرهم راشدا مهديا ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معى إن هلكت[١]) .

وكان الخارجون على الخليفة قد أجمعوا للتشاور فى الوجهة التى يقصدونها ليجعلوا منها قاعدة تنطلق منها ثورتهم على الخلافة على فطرح العديد من أعلام الحضور أماكن يمكن للخارجين أن يأووا إليها بينما رأى مروان البقاء فى مكة وأخذ البيعة فيها لمن يرتضيه الخارجون .

وأما أصحاب الرأى الأول فإنهم اختلفوا فيما بينهم حول تحديد المكان فمنهم من قال بأتيان الشام للإنضمام إلى معاوية فيشكلون بذلك قوة تستطيع مواجهة على وضع حد حاسم لخلافته .

بيد أن هذا الرأى وجد صدودا من الخارجين وذلك لأمرين : أولهما ما قاله يعلى بن أمية[٢] من أن معاوية مستقر بالشام وأهلها مجتمعون عليه وبينما هم مقدمون عليه وهم فى فرقة ، ثم إنه ابن عم عثمان فإما يردهم عن الشام أو يقول بجعلها شورى وهو واثق من أن أهل الشام سيؤيدونه

---

(١) ابن قتيبة ، الإمة والسياسة ، جـ١ صـ٥٤ .

(٢) هو بن أبى عبيدة بن همام التميمى الحنظلى ، أبو صفوان ، أسلم بعد الفتح استعمله أبو بكر على « حلوان » ثم استعمله عمر على « نجران » ، واستعمله عثمان على اليمن . لما قتل عثمان انضم إلى الزبير وعائشة ثم صار من أصحاب على ، أول من أرخ الكتب قتل فى صفين سنة ٣٧ هـ ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب جـ١ صـ٤٥ الذركلى الاعلام جـ٩ صـ٢٦٩ .

فيما يريد[1] .

وثانيها ما قاله ابن عامر (قد كفاكم الشام معاوية فأتوا البصرة فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى قالوا : قبحك الله فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكفى بك ثم نأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ فلم يجدوا عندهم جوابا مقبولا ، فاستقام الرأي على البصرة[2]) .

وقام بتجهيز الرجل بالعدد والعتاد كل من (يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وابن عامر بمال كثير ، ونادى منادى عائشة : إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا في ألف ، وقيل في تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل[3]) .

وحينما حاولت عائشة رضوان الله عليها اقناع أم سلمة[4] وحفصة بالسير

(١) أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ٣٤٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٠٨ .
ابن كثير ، بداية ونهاية ، ج ٧ ص ٢٣٠ .
طه حسين ، علي وبنوه ، ص ٢٨ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٥١ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٤) هي هند بنت أبي أمية المعروف بزاد الراكب ابن المغيرة المخزومي هاجرت مع زوجها الأول عبد الله بن الأسد المخزومي إلى الحبشة وولدت له ابنة وسلمة ، ورجعا إلى مكة ثم هاجرا إلى المدينة ، قتل زوجها في وقعة بدر =

معها إلى البصرة من أجل شحذ همة الثائرين وحفز الناس للإنضمام إليهم . وأما أم سلمة فكتبت لعائشة كتابا ذكرتها فيه بأن النساء ينبغي عليهن النأى بأنفسهن عن الدخول فى مثل هذه الفتن على أساس أنهن منعن من الجهاد وأنه ينبغى على أمهات المؤمنين المحافظة على الحجاب المضروب عليهن . (وأقسم لو قيل لى : يا أم سلمة ، ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجابا ضربه على فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك فإنه أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم[1]).

وأما حفصة فإنها أرادت الخروج مع عائشة رضوان الله عنهما ، فنعها عبد الله بن عمر من ذلك ، فنزلت على رأيه وأرسلت إلى عائشة تقول إن عبد الله حال بينى وبين الخروج فقالت : يغفر الله لعبد الله[2] .

خرجت أمهات المسلمين لتوديع عائشة ومن معها والكل يبكى بكاءا شديدا على ما أصاب المسلمين من انشقاق بعد وفاة النبى محمد ﷺ . وقد عرف هذا اليوم فى التاريخ الإسلامى بيوم النحيب[3] .

= فتزوجها الرسول ، كانت تكتب ، عمرت طويلا وروت كثيرا من الأحاديث ، توفيت سنة ٥٧ وقيل ٦١١ ودفنت بالبقيع ابن حجر (الاصابة) جـ٤ ص ٤٣٩ .

(١) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص ١٥٧ .
ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ١ ص ٥٥ .
أحمد الحفناوى ، حركات ومؤمرات ، ص ٢٢٦ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٤٥١ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٤٦٠ .
أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٣٢ .

ولما وصلت جموع الثائرين إلى ماء الحوأب[1] نبحتهم كلابه فسألت عائشة عن اسم هذا الماء الذى كثر عنده هذا النبيح فقيل لها أنه ماء الحوأب فقالت إنى إذن لراجعة فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول كأنى بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب[2] وفى رواية أخرى (ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج فتنبحها كلاب الحوأب ، يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة ، تنجو بعد ما كادت تقتل[3])

ولم يثنها عن الرجوع إلا شهادة خمسين من الرجال جاء بهم عبد الله بن الزبير لإقناعها بأن هذا ليس ماء الحوأب .

وعلى الرغم من ضعف هذا الحديث فإنه يوقفنا فى جلاء على أن أم المؤمنين لم تكن قد خرجت إلى الحرب إلا تحت تأثير عبد الله بن الزبير كما أسلفنا .

ومن البديهى أن يحدث صدام بين جماعة الثائرين بقيادة طلحة والزبير وبين عامل على بن أبى طالب على البصرة عثمان بن حنيف لأن المصر الذى أجمعوا على قصده بايع أهله عليا .

وحين وصلت جموعهم على مقربة من البصرة أرسل إليهم عثمان بن

---

(١) بالفتح ثم السكون وهمزة مفتوحة ، وباء موحدة : موضع فى طريق البصرة . ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٥٧ .
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢١٠ .
أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٣٢ .
طه حسين ، على وبنوه ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) محمد كاظم القزوينى ، على من المهد إلى اللحد ، ص ٤٤٠ .

حنيف رجلين ليقفا على السبب الذى دفعهم للمجىء إلى البصرة فسأل السيدة عائشة عن هذا فقالت لها « والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ولا يغطى لبنيه الخبر . إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل أمام المسلمين بلا ترة ولا عذر » . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، واحتلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وفرقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا وقرأت (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)[1] ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ، ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره)[2] .

وقد أجاب طلحة والزبير الرسولين على نحو ما أجابت عائشة لهما ولم يكن هنا من بد من نشوب معركة بين الثائرين وأتباع عثمان بن حنيفة الذى صمم على الذب عن مصره ، لما للعلى من بيعة فى عنقه فالتقى الفريقان فى معركة حامية الوطيس لم تتوقف إلا بعد إتفاق الفريقين على أن يبعثا إلى المدينة رسولا لينظر هل بايع طلحة والزبير مكرهين أم لا ؟ فإن كان ذلك أخلى عثمان ابن حنيف لهما البصرة وإن كانا قد بايعا عن رضى خرجا من البصرة وأن يبقى

(١) قرآن كريم سورة النساء آية .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٤٦٢ .

كل فريق على ما تحت يده ريثما يعود الرسول ، وينزل طلحة والزبير ومن معهما حيث شاؤوا وأن يصلي عثمان بن حنيف بالناس ، ويبقى بيت المال تحت يده وله أمر البصرة[1] .

بيد أن هذا الاتفاق لم يكد يرى النور حتى تحلل منه الثائرين الذين رأووا أن انتظار مجيء الرسل من المدينة بالإجابة عن صحة بيعة طلحة والزبير لعلى من عدمه ربما يضيع عليهم فرصة الظفر على أتباع على ومن ثم فإنهم باغتوا عثمان بن حنيف فقتلوا عدداً من حراسه وألقوا القبض عليه وصبوا عليه صنوفا شتى من العذاب وأزالوا شعر لحيته وأشفار عينيه ورأسه وحاجبيه وهموا بقتله لولا أن ذكرهم بأن أخاه سهل بن حنيف يدبر أمر المدينة من قبل على وبأنه خليق أن يضع السيف في بني أبيهم إن أصابوه بمكروه فخلوا سبيله[2] .

عاد عثمان بن حنيف بعد إطلاق صراحه إلى على فالتقى به عند الربذة وهو في طريقه لقتال الخارجين عليه في موقعة الجمل فيروى محمد بن الحنفية أنه لما التقى بالإمام قال له : بعثتنى ذات لحية وجئتك أمرد ، قال : أصبت أجرا وخيرا إن الناس وليهم قبلى رجلان فعملا بالكتاب ثم وليهم ثالث ، فقالوا وفعلوا ، ثم بايعونى . وبايعنى طلحة والزبير ، ثم نكثا بيعتى وألبا الناس على ومن العجب انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما على والله ليعلمان أنى لست بدون رجل ممن قد مضى اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم قد أحكما فى أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا[3] .

---

(١) ابن كثير (بداية ونهاية) ج ٧ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .
محمود شاكر (الخلفاء الراشدون) ص ٢٦٨ .
(٢) ابن قتيبة « الإمامة والسياسة » ج ١ ص ٦٦ .
طه حسين (على وبنوه) ص ٣٧ .
(٣) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٤٨٠ .

وقد عقب أحد الباحثين المحدثين على موقف عثمان بن حنيف من طلحة والزبير عند مجيئهما ومن معهما إلى البصرة وإبرامه اتفاق الهدنة معهم فقال « إن عثمان بن حنيف لم يول على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التى تفضى إلى ضياع الأمصار وقد كان الرجل على غير ما يجب فى أمثاله من الأرب وقوة الحجة. ولو كان على شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة على ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هى للامام ولاينبغى النهوض إلا فى طاعة إمام وهم قوم نزاع لا إمام لهم ومن كانت فى عنقه بيعة فإنه خارج على إمامة وكان فى وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يسوء أمر عليا . . . وأن الإمساك كان أحسن فى العاقبة وأرجى فى العافية »[1] .

وعلى كل حال فإن تحلل طلحة والزبير من اتفاقهما لعثمان بن حنيف « أظهرهما بمظهر الظلمة الناكثين للعهود » فى نظر أهل البصرة ، فهم لم يكتفوا بنكث البيعة التى أعطوها عليا ، وإنما أضافوا إليها نكث الهدنة التى عقدوها مع الوالى وقتلوا من قتلوا عدوانا وحبسوا الأمير وغصبوا بيت المال »[2] مما كان له أكبر الأثر فى تخلى معظم البصريين عن إتباع عائشة عند نشوب معركة الجمل .

وفى إطار استعدادات الفريقين للمعركة طفق كلاهما يشخص ببصره نحو الكوفة لعله يسبق الآخر فى استمالة أهلها إليه .

---

(١) عبد الوهاب النجار (الخلفاء الراشدون) ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة) ص ٣٥٤ .

فأما على فحين علم وهو بالربذة أن الخارجين عليه غدوا على تخوم البصرة حمد الله على تركهم الكوفة حيث إن الكوفيين أحب إليه من البصريين فأرسل إليهم محمد بن أبى بكر ومحمد بن عون وزودهما بكتاب يقرأ على أهل المصر فيه بعد حمد الله (أما بعد ، فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق وقضى الذى عليه)[١] .

وقد حاول غير واحد من أعلام الصحابة إثناء على كرم الله وجهه عن السير إلى قتال الخارجين عند البصرة ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[٢] الذى قال لعلى (لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان للمسلمين أبدا)[٣] .

وقد كان الحسن هو الآخر يود ألا يخرج أبيه للقاء الثائرين فقال له (لقد نهيتك فعصيتنى تقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك فقال له على : إنك لا تزال

---

(١) الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٤ صـ ٤٧٧ .

(٢) هو ابن الحارث الاسرائيلى ثم الأنصارى ، أبو يوسف ، كان أحد أحبار اليهود وأسلم عند قدوم النبى ﷺ إلى المدينة وحسن إسلامه ، أسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ، شهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية ، اعتزل الفتنة بين على ومعاوية واتخذ سيفا من خشب ، أقام بالمدينة إلى أن مات .

ابن حجر ، الاصابة ، جـ ٢ صـ ٣١٢ .

الزركلى ، الاعلام ، جـ ٤ صـ ٢٢٣ .

(٣) ابن كثير ، بداية ونهاية ، جـ ٧ صـ ٢٣٣ .

يحن على حنين الجارية[1].

لم يأخذ على بنصيحة الرجلين وغيرهما وصمم على السير لقتال الخارجين في الوقت الذى أبدى فيه أبو موسى عدم رغبته الدخول فى مثل هـذه الفتن بين المسلمين فإنه قال حين وقف على كتاب على (أيهـا الناس : إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ، وإن لكم حقا على أؤديه إليكم ، إن هـذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم فيها خير من الساعى والساعى خير من الراكب ، فاغمدوا سيوفكم حتى تنجلى هذه الفتنة)[2] .

حمل على بن أبي طالب الأشتر بن مالك مسئولية موقف أبى موسى فى الكوفة حيث إنه قد أشار على علي باستمرار ولايته على المصر[3] ومن ثم تصدى الأشتر لإخراج أبى موسى من ولايته فأخرج غلمان الوالى من القصر ، فخرجوا يعدون وينادون : (يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا . فنزل أبو موسى فدخل القصر فصاح به الأشتر أخرج ، أخرج الله نفسك فقال أجلنى هذه العشية فقال : هى لك ولا تبيتين فى القصر الليلة ودخل الناس ينهبون متاع أبى موسى فمنعهم الأشتر)[4] .

---

(١) ابن كثير ، بداية ونهاية ، جـ ٧ ص ٢٣٤ .
الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٣ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٢) ابن قتيبة ، الإمامه والسياسة ، جـ ١ ص ٦٢ .
الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٤٨٢ .
الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الأمم الدولة الأموية ، ص ٣٧٣ .
(٣) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ٣٥١ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٣ ص ٢٣١ .

وبهذا يكون الأشتر قد أزال عقبة هامة كادت تحول بين على ومؤازرة أهل الكوفة له .

وأما معسكر ~~الثائرين فإنهم~~ أرسلوا من البصرة رسولا إلى أهل الكوفة بكتاب من أم المؤمنين أظهرت فيه الدوافع التى جاءت بها ومن معها إلى البصرة وأبانت عن موقف عثمان بن حنيف منها ودحضت ما قيل من نقض طلحة والزبير بيعتهما لعلى حيث ثبت إكراههما وعهدت إلى أناس من ذوى الرأى بالكوفة تثبط الناس عن الخروج مع على ورجاله(١) .

والذى لا مراء فيه أن كتاب عائشة رضوان الله عليهما لأهل الكوفة أسهم فى تخذيل عدد من رجالات الكوفة عن نصرة على بيد أن هذا لم يكن ليحول بين على والاستفادة من رجالات الكوفة فقد ذكرت المصادر القديمة للتاريخ الاسلامى أن إثنى عشر ألف رجل من أهل الكوفة خرجوا منها للانضمام لمعسكر على وأنه حين التقاهم خطب فيهم خطبة جاء فيها (يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الذى نريده ، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤنا بالظلم ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى)(٢) .

وإن حاولنا التماس الأسباب التى يعزى إليها نجاح على فى الكوفة وإخفاق معسكر طلحة والزبير فيها وجدنا أن هذا النجاح الذى تحقق لمعسكر

---

(١) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » جـ ٤ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

(٢) ابن كثير « بداية ونهاية » جـ ٧ ص ٢٣٦ .

الخليفة يعزى إلى التواجد القوى لمعسكر على فى المصر ، فإنه بعد إخفاق رسوليه فى إقناع أبى موسى الأشعرى ، عززهما بالحسن والأشتر فكان ما كان من أمر إزالة أبى موسى عن ولايته وإن ننسى فلا ننسى أن ننوه بما للأشتر من مكانة فى قومه ، كان لها الأثر البين فى جعل الأمور لصالح على .

أما السيدة عائشة فانها لم تكرر محاولتها إستمالة أهل الكوفة بعد إرسالها برسالتها إليهم مما أتاح المجال لأتباع على لاحراز نجاح كبير فى هذا المصر .

نشوب المعركة : —

فكان للكوفيين هذا العدد الكبير فى معسكر على عند نشوب المعركة .

وضع على بن أبى طالب رضوان الله عليه نصب عينيه استنفاد جميع المساعى لابرام صلح يحفظ للمسلمين دماءهم وللأمة وحدتها والذى يتأمل خطب الامام علي يجده جعل الحرب آخر الدواء الذى لا مناص منه إن ألجأته الظروف إليها .

ومن ثم فانه لم يتردد لحظة واحدة فى لقاء الزبير وطلحة رضوان الله عليهما حين التقى الفريقان وهما على أهبة الدخول فى المعركة لعله يتدارك باللسان مالم يدرك إلا بالحسام فى ظل هذا الجو الملبد بالغيوم .

فيذكر غير واحد من المؤرخين أن عليا قال الزبير وطلحة (لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا إن كنتما أعددتما عند الله عــذراً فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ألم أكن أخا كما فى دينكما ، تحرمان دمى وأحرم دماءكما فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ قال طلحة : ألبت الناس على عثمان رضى الله عنه ، قال علي : (يومئذ يوفيهم

الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين)[١] ، يا طلحة ، تطالب بدم عثمان رضى الله عنه فلعن الله قتلة عثمان يا زبير ، أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ فى بنى غنم ، فنظر إلى فضحك وضحكت إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ، فقال لك رسول الله ﷺ : « صه إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم » ؟ فقال : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبدا . فانصرف على إلى أصحابه ، فقال : أما الزبير فقد أعطى الله عهدا ألا يقاتلكم ، ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا قالت : فما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب فقال له ابنه عبد الله جمعت بين هذين الغارين ، حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ، أحسست رايات ابن أبى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، قال (إنى قد حلفت ألا أقاتله وأحفظه ما قال له ، فقال كفر عن يمينك وقاتله ، فدعا بغلام له يقال له مكحول ، فأعتقه)[٢] .

ولم يغفل على رضوان الله عليه الكتابة إلى أم المؤمنين عائشة لحثها على الصلح والحيلولة دون إزهاق أرواح المسلمين فقال لها (إنك خرجت غاضبة لله ولرسوله تطلبين أمرا كان عنك موضوعا ، ما بال النساء والحرب والاصلاح بين الناس ؟ تطالبين بدم عثمان ، ولعمرى لمن عرضك للبلاء وحملك على

---

(١) قرآن كريم سورة النور آية ٢٥ .
(٢) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .
ابن كثير بداية ونهاية ج ٧ ص ٢٤٠ .
أحمد الشامى « الخلفاء الراشدون » ص ٢٣٩ ، ٣٤٠ .

للمعصية ، أعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان وما غضبت حتى أغضبت وما هيجت حتى هجت فاتقي الله وارجعي إلى بيتك (فأجابته بقولها : جل الأمر عن العتاب والسلام)[1] .

وجد علي أن من الخير بذل محاولة جديدة مع القوم لإبرام صلح بين الفريقين حتى يبرىء ساحته من إثم نشوب هذه المعركة فاختار القعقاع بن عمرو أحد أعلام الكوفيين لهذه السفارة بينه وبين الثائرين عليه فالتقى القعقاع بأم المؤمنين في حضور طلحة والزبير (فقال : إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان قال : فأخبراني ما وجه الإصلاح . . . قالا قتلة عثمان رضي الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم الذي أفلت — يعني حرقوص ابن زهير فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم .

ثم قال القعقاع : هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كان علامة شر ، وذهاب هذا الثأر فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير ولا تعرضونا للبلاء وايم الله إني

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ١ ، ٦٦ ، ٦٧ .

لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل . فقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأصبت المقالة)[1] .

قبل على ما استقر عليه القعقاع مع طلحة والزبير وعائشة رضوان الله عليهم وكاد الصلح يتم لولا ما قيل من تحرك أناس من السبئية الذين خشوا من العواقب الوخيمة التى ستحل عليهم إن نشر السلام رايته على القوم .

تداعى أعلام السبئية وغيرهم ممن باء بإثم قتل عثمان انعقدوا اجتماعا لمعرفة ماسيكون من أمرهم إن ظهر هذا الصلح إلى النور وبعد أخذ ورد بين المجتمعين قال أبو السوداء (يا قوم إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فأبصروا الرأى ، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون)[2] .

لما كان الغد والناس فى كلا المعسكرين لا يظنون حدوث ما يحول دون ابرام الصلح بين على وطلحة والزبير اذا بالمؤتمرين يتمحلون الأسباب الواهية ويستلون السيوف من أغمادها فتصايح الناس فى المعسكرين وعدها كلا الفريقين

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
الخضرى ، محاضرات الدولة الأموية ، ص ٢٧٤ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٠٦ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٠٨ .

خديعة له من الفريق الآخر حتى يحرز الانتصار عليه (١) .

ولم يرض أحد الباحثين المحدثين الأخذ بما ذكر في كثير من المصادر عن اجتماع السبأية وتآمرهم لإفساد الصلح فقال : التكلف في هذه القصة أظهر من أن نحتاج إلى كثير عناء في ردها . فلم يكن على وأصحابه من الغفلة بحيث تدبر الخيانة في معسكرهم ويدبرها قوم من قادتهم وهم لا يشعرون وإنما الوجه الذي يلائم طبيعة الأشياء هو ما رواه المتعدلون من المؤرخين من أن القوم قد التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض وتناظروا ولم تغن المناظرة عنهم شيئا ، فكان ما لم يكن بد من أن يكون (٢) .

وعلى كل حال فإن معركة حامية الوطيس نشبت بين الفريقين في أواخر جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، سالت فيها ألوف الأرواح على ظبي السيوف ولف الجميع صمت ، بحيث لم يسمع معه إلا قعقعة السيوف وأنين الجرحى وصهيل الخيول ولم تضع الحرب أوزارها حتى زاغت شمس يوم وقوعها لتشرق في يومها التالي على معسكر على وتغيب للأبد عن معسكر الحلفاء الثلاثة ، حيث استشهد كلا الرجلين طلحة والزبير وذب العشرات عن جمل أم المؤمنين ولم يفت في عضد المدافعين عنه تعاقب سلة من الأحياء سلتا من الأموات الذين رحلوا عن الدنيا وهم يدافعون عن أم المؤمنين (٣) .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ص ٤٩٤ .
الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم ، ص ٢٧٥ .
أحمد الشامي ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٢) طه حسين ، على وبنوه ، ص ٤٣ .
(٣) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ١ ص ٧٠ ، ٧١ .

وظلوا هكذا أمام الجمل حتى عقر وقد تضاربت الأقوال حول كيفية عقره، فمنها من يذكر أنه ضرب بسهم فسقط على الأرض من توه.

ومنها من يقول أن القعقاع قال لبجير بن دلجة : يا بجير صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن تصابوا وتصاب أم المؤمنين، فقال : نعم فاجتث ساق البعير وحمل الهودج فوضع على الأرض وأنه كالقنفذ لما فيه من السهام، وأمر علي محمداً بن أبي بكر لينظر ما إذا قد أصاب عائشة ضررا [1].

فلما طمأنه عليها أمر بها فوضعت في منزل لكبار البصريين ولما حان وقت رحيلها إلى المدينة جهزها علي وأتباعه وبعث برفقتها العديد من النسوة ليذهبن وحشتها أثناء الطريق فلما رأت أم المؤمنين من علي ما رأت من الخير قالت لجموع المودعين لها : يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وأنه على معتبتي لمن الأخيار.

فأجابها علي بقوله « صدقت » والله ما كان بيني وبينها إلا ذلك وأنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة [2].

ومهما يكن من أمر فإن صفحة سوداء طويت بانتهاء هذه الموقعة التي راح ضحيتها عشرة آلاف من المسلمين مما نتج عنه ترميل العديد من النساء [3].

= الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٥٠٥، ٥٢٣.
السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٣١٣.
(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٢٥٢.
(٢) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١ ص ٧٣.
الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٥٤٤.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٥٣٩.

=

زعماء الجمل في الميزان ما لهم وما عليهم :

وقد اختلف المحدثون من الكتاب في تحديد مسئولية حدوث معركة الجمل فطفقوا يتساءلون أتقع على علي أم على الحلفاء الثلاثة .

والذى لاسبيل إلى الشك فيه أن تحديد هذه المسئولية أمر يحتاج منا إلى الوقوف وقفة متأنية أمام دور كل واحد من زعماء الحرب فى المعسكرين ، والذى ما له وما عليه بالنسبة لإشعال نار الحرب وذلك من خلال ما عبر عنه بعض الكتاب المحدثين ثم نزيل ذلك بالرأى الذى نرتضيه لأنفسنا .

فذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار تحليلا دقيقا لدور زعماء الجمل فقال :

أما عائشة أم المؤمنين فما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان فإن أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عدهم الإحصاء وقد علمت أن معاوية بالشام غير وأن فى أمره ولا متخاذل فيه وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان وأمس به رحما وأقرب قرابة وليست رحمها الله ممن جعل الله لهم سلطان هذا الأمر ولولا وجودها فى هذا الجيش لماتت الفتنة فى هذه الناحية ولم يكن لهم نظام ولا حمية فكانت سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ومثاراً لأمور أنتجت الحزن والأسى .

أما طلحة والزبير ، فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان فى شىء وقد كانا بين قائم فى الفتنة مثير حريقها وبين خاذل مثير إشارته أنفذ من صول لايعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره ويباشرها سواه حتى تساق إليه الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل ، فلما وقعت الواقعة

= الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الدولة الأموية ص ٣٧٦ .
طه حسين ، على وبنوه ، ص ٤٢ .

وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغيره ويحطب فى حبل سواه رجا أن ينال فى سلطانه بعض ما يكون له عزاء ، فلما رأى الفائز قد قبض يده عنه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعة مندم وخرج كل منهما ليغسل الدم بالدم ويكفر عن السيئة .

أما على فهو وإن كان فى أمر عثمان أقل تأريثا للشر وأدب عنه قبل اشتداد الأمر إلا أنه لم يكن عنده من الأناة وحسن التأنى للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح ولو أنه أرضى الرجلين ببعض ما فى يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً فى العاقبة وأرجى للسلامة [1] .

ومن الباحثين المحدثين من يضيف على ذلك فيقول : أن علياً ينحصر خطؤه فى أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه ، فكان هو يسعى للصلح ، وبين أتباعه من يعد المؤامرات لإشعال النار ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم حرب [2].

على أن بعض المؤرخين المحدثين يلقى بالمسئولية على طلحة والزبير حيث أنهما سمحا لعبد الله بن الزبير أن يلعب دوراً كبيراً فى نشوب هذه المعركة ليحقق طموحات طالما راودته للجلوس على أريكة الخلافة ودلل على ذلك الرأى بما أومأنا إليه من موقف عبد الله من أم المؤمنين عند مرورها بماء الحوأب فإن ما قام به عبد الله من إحضار الرجال ليشهدوا أمام عائشة بما يطمئنها ليس له ما يبرره إلا ما ذكرنا [3] .

---

(١) الخلفاء الراشدون ص ٤١٢ .

(٢) أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، جـ ١ ص ٤٥٢ .

(٣) أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، صـ ٢٤٥ .

ويرى الأستاذ الخضرى أن تبعة نشوب هـذه المعركة أمر يشترك فيه الفريقان فقال . إن إعطاء الحق الأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام فى إقامته أو أتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لايرون الإمام على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحـل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولـكنهم بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولـكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت .

ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمـكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع .

والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفى لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعـله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفى الرئيس بتقوية مركزه أن يكون عنـده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليـه إلى حظيرته والـكى لا يكون إلا آخر الدواء[1] .

والذى نراه أن مسئولية نشوب هذه المعركة تقع على الخلفاء وحدهم دون تحميل على بن أبى طالب رضوان الله عليه شيئاً من هذه المسئولية ، ذلك أن الزبير وهو الذى دعا الناس مع طلحة عائشة إلى الخروج وكان ينبغى عليه أن يجاهر بدعوتهم إلى العودة حين ذكره بحديث رسول الله ﷺ دون لجوئه إلى

(١) « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » الدولة الأموية ص ٣٧٦ ٣٧٧ .

اعتزال المعركة على حد قول بعض الروايات أو اشتراكه فيها نزولا على رأى ابنه كما ذكرت روايات أخرى ، ولا ننسى أن نحمل الأمويين مثل مروان وغيره مسئولية تزيين الاستمرار فى المعركة للحلفاء لأن ذلك سيمكنهم من استعادة حقوقهم التى اكتسبوها فى زمن عثمان بن عفان .

وها هى تتعرض للإسترداد كلها أو بعضها فى خلافة على ناهيك من كون العمال الذين عزلهم الإمام ما فتئوا ينفخون فى نار الحرب حتى أضرموها لعلهم يجنوا من ورائها ما يمكنهم من العودة إلى أعمالهم التى عزلوا عنها .

ولا عبرة عندى لما ذكره بعض الباحثين من أن عليا يتحمل شيئا من المسئولية لكونه لم يحكم سيطرته على معسكره حيث قام بعض السبئية بما قاموا لإفساد الصلح الذى تم بين الفريقين ـ كما أسلفنا ـ لأن هذا الأمر الذى رواه العديد من المؤرخين لم يقو على مناقشة بعض الباحثين المحدثين له ـ كما أسلفنا ـ إذ كيف يغيب عن على أن هذا الصلح إن تم يتعارض مع مصلحة أولئك الذين شاركوا فى دم عثمان من أفراد معسكره ؟ ولو سلمنا جدلا بحدوث هذا من السبئية فى معسكر على فلما لم يلجأ أثر فراغه من المعركة لمحاكمتهم ؟ .

ولا يقال أنه لم يكن يستطيع فعل للكثرة العددية لهؤلاء فى جيش الخليفة لأن هذا لا يستقيم مع كونه خليفة يملك ما يملك من الأمر والنهى فى جنده الذين بايعه وليس على من أولئك الذين يصبرون على الضيم من أجل الاحتفاظ بهذا المنصب فلو كان يود المالأة من أجل استمراره فى الحكم لفاوض طلحة والزبير رضوان الله عليهم .

وأضعف من هذا أن يقال إن عدم تحلى على بالصبر والأناة على خروج الحلفاء عليه يجعله يتحمل مسئولية نشوب هذه المعركة لأن أعلام الخارجين

عليه قاموا بما قاموا فى وقت أسفر فيه معاوية عن موقفه من على فلو أمهل الخارجين فى البصرة بعض الوقت لاستطاعوا التحالف مع معاوية ضد على ولجعل ذلك مهمة القضاء عليهم أمراً بالغ الصعوبة مما يترتب عليه انشطار الأمة إلى فريقين فريق مع الخليفة وآخر مع المعارضين ولعلنى لا أجافى الحقيقة حين أقول إن عليا أدرك بحسه هذه العواقب الوخيمة التى ستحل بالأمة إن تحالف زعماء الجمل مع معاوية ومن ثم غير وجهة جنده من الشام إلى البصرة حين علم بخروج زعماء الجمل فبدأ بهم ليستطيع مقابلة معاوية فى موقف قوى يضمن له إحراز انتصار على معاوية .

ولسوف نرى من خلال الصفحات التالية ما كان بين على ومعاوية فى ميدان الحرب فى صفين وما تلاها من أمر التحكيم .

موقعة صفين

لم يكد على بن أبى طالب يفرغ من معركة الجمل حتى وجد نفسه أمام معركة جديدة فرضها عليه استمرار خروج معاوية وأهل الشام على بيعته .

وحاول على بن أبى طالب تجنيب الأمة ويلات حرب جديدة تقوم من أجل جعل معاوية وأهل الشام يؤوبون إلى الجماعة وتجتمع كلمة الأمة على خليفتها على بن أبى طالب الذى أرسل إلى جرير بن عبد الله البجلى [١] عامل عثمان على همذان [٢] وإلى الأشعث بن قيس [٣] ..

---

(١) هو سيد بجيله ، أسلم فى العام الذى توفى فيه رسول الله ﷺ وقيل أنه أسلم قبل وفاته بأربعين يوما ، فيه قال الرسول ﷺ حين أقبل وافداً عليه يطلع عليكم خير ذى يمن وكان على وجهه مسحة ملك فطلع جرير ، بعثه رسول الله ﷺ إلى ذى الكلاع وذى رعين باليمن ، نزل بالكوفة ثم تحول إلى قرقسيا ومات قبل سنة ٥١ ه وقيل سنة ٥٤ ه .

ابن الأثير « أسد الغابة » ج ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٧٧ ، ٣٩٣ .

(٢) أكبر مدينة بالجبال ، فتحها جرير بن عبد الله البجلى سنة ٣٢ ه وقبل فتحها المغيرة بن شعبه عام ٢٤ ه ينسب إليها جمع من العلماء والأدباء .

عبد السلام الترمانينى « أزمنة التاريخ الإسلامى ج ٢ ق ٣ .

(٣) بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة بن عدى بن ربيعة بن معاوية بن ثور الكندى يكن أبا محمد ، وفد النبى ﷺ سنة عشر فى سبعين راكبا من كندة وكان من ملوكها وهو صاحب ميرباع حضرموت لقب بالأشعث لأنه كان أشعث الرأس ، ارتد فيمن ارتد من الكنديين ، قدم بالأشعث أسيرا على أبى بكر فأطلق وثاقه وزوجه أخته فاخترط سيفه ودخل سوق الإبل فجعل لا يرى جملا ولا ناقة إلا عرقبه فصاح الناس كفر الأشعث . فقال والله ما كفرت ولكن زوجنى هذا الرجل أخته ولو كنا فى بلادنا كانت وليمة غير هذه يا أهل المدينة كلوا =

عامل عثمان على أذربيجان[1] بأمرها بأخذ البيعة من الرعية فى ولايتهما والحضور إليه ، فلما حضر الرجلان عرض على على صحابته إشخاص واحداً منهم إلى معاوية لتسليمه رسالة كتبها على إليه عله يستطيع رأب هذا الصدع الذى أحدثه معاوية بن أبى سفيان ، فقال جرير ابعثنى إليه فإنه لى ود حتى آتيه فأدعوه إلى الدخول فى طاعتك ، فقال الأشتر لعلى : لا تبعثه فوالله إنى لأظن هواه معه ، فقال على : دعه حتى ننظر ما الذى يرجع به إلينا[2] .

فزوده بكتاب جاء فيه : « أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعنى الذين بايعوا أبو بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا ، فإن خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين ، وأولاه الله ما تولى وأصلوه جهنم وساءت مصيرا وإن طلحة والزبير بايعانى

= ويا أصحاب الإبل تعالوا خذوا شرواها شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسية وغيرها بالعراق وسكن الكوفة وشهد مع على صفين مات بعد قتل على بأربعين ليلة وقيل مات سنة اثنتين وأربعين هـ .

ابن حجر « الإصابة » ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

(١) إقليم يقع فى جنوب بحر قزوين بين أرمينية وفارس ويقع الآن الشمال الغربى من إيران وهو كثير الجبال والمرتفعات ، استولى عليها المسلمون فى خلافة عمر بقيادة بكير بن عبد الله الذى صالحهم على الجزية ، وأصبحت لأذربيجان أهمية خاصة إبان الفتوح الإسلامية فى المشرق على يد الخلفاء العباسيين .

المرجع أحمد عطية الله « القاموس الإسلامى » ج ١ ص ٥٨ .

(٢) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٥٦١ .

ابن الأثير « الكامل » ج ٣ ص ٢٧٦ .

بالمدينة ثم نقضا بعضهما ، فكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب أمورك إلى العافية ، فإن تعرض للبلاء قاتلتك ، واستعنت بالله عليك وقد أكثرت الكلام فى قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله .... وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة فبايع ، ولا قوة إلا بالله [١] .

لجأ معاوية إلى مماطلة جرير فأرجأه بعض الوقت دون إعطائه رداً على ما جاء به من عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعمد إلى استثارة أهل الشام على علي فقام بتعليق قميص عثمان على المنبر وبأردانه أصابع زوجه نائلة وطفق يحدث أهل الشام حديثا ألزم فيه عليا بدم عثمان .

ولما يئس جرير من إحراز نجاح فى سفارته تلك عاد إلى على وأطلعه على ما رآه من الشاميين من تعضيد لمعاوية فى المطالبة بدم عثمان [٢] .

ومهما يكون من أمر فإن عليا أيقن بإخفاق المساعى السلمية بينه وبين معاوية .

بعد الذى جاءه به أبو مسلم الخولانى [٣] من شروط شرطها معاوية على

---

(١) ابن قتيبة ، الإمة والسياسة ، ج ١ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٧٨ .

ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ٨٥ .

(١) العابد أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبى ﷺ ولم يره وقدم المدينة حين قبض النبى ﷺ واستخلفه أبو بكر وهو معدود فى كبار التابعين ، كان

على حتى يبايعه[1] ، ومن ثم فإنه تأهب لخوض معركة ضد معاوية يضع بها حداً لخروجه عليه كتلك التى خاضها فى وجه أصحاب الجمل .

ويحسن بنا قبل الحديث عن الحرب الإلماع إلى حالة الرجلين ومعسكرهما قبل دخولهما المعركة حتى نكون على جلية من أمر التوازن الحربى بين القوتين المتحاربين فى ميدان المعركة .

فأما معاوية فإنه قد مكن لنفسه فى الشام عن طريق بذل الرغائب لرؤساء الشاميين الذين كانوا يدينون لأميرهم معاوية بالطاعة فهم ليسوا أصحاب فضل عليه فى ولايته حتى يعدوا إغداقه العطايا عليهم من قبيل رد الجميل حيث إن إمارته عليهم جاءت من قبل الخلافة ، ومن ثم فإنهم أبدوا حماسة فى تأييد دعوته إلزام على بدم عثمان .

يضاف إلى هذا كله أن معاوية جمع حوله آلهة الدهاء فى الجزيرة العربية

فاضلا ناسكا عابداً ، أو ذاكراً ، روى أن الأسود بن قيس بن ذى الخمار لما تنبأ باليمن بعث إلى أبى مسلم فلما جاءه قال أتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمداً رسول الله قال نعم فرد ذلك عليه وفى كله مثل قوله الأول قال فأمر به فألقى فى نار عظيمة فلم تحرقه ، دخل على أبو بكر فى زمن خلافته فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلى إلى سارية وبعث إليه عمر بن الخطاب فقام إليه وقال ممن الرجل قال من أهل اليمن قال ما فعل الرجل الذى أحرقه الكذاب بالنار قال ذاك عبد الله بن ثوب قال أنشدك الله أنت هو قال اللهم فاعتنقه عمر فبكى ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر وقال الحمد لله الذى أرانى فى أمة محمد من فعل ما فعل بإبراهيم عليه السلام .

ابن الأثير « أسد الغابة » جـ ٥ صـ ٢٩٧ ، صـ ٢٩٨ .

(١) الذهبى « تاريخ الإسلام » جـ ٣ صـ ٣٢٣ .

بعد أن منَّاهم البعض ووعدهم بأمور طالما منوا أنفسهم بتحقيقها على غرار عمرو بن العاص الذي وقف إلى جوار معاوية مقابل ولاية مصر حين يؤول الأمر إليه[١] .

فإذا نظرنا إلى حالة على وجدنا معسكره يضم عربانا جبلوا على الفوضى والمعارضة لم يألفوا النظام كالشاميين ولم يكن رضوان الله عليه على غرار معاوية يعطى بغير حساب وإنما كان يتوخى الدقة فى العطاء متبعاً سياسة الصديق وعمر .

وعلاوة على ذلك فإن قوات على بن أبى طالب قد أنهكتها الحروب فى موقعة الجمل فإن عليا فقد فيها بضعة آلاف ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات الشاميين على حالها[٢] .

ومهما يكن من أمر فإن عليا ومعاوية أخذا يستعدان لخوض معركة تضع حداً لهذه الخلافات التى أخذت تزداد يوما بعد آخر فسار على فى زهاء تسعين ألف رجل قاصداً الشام ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصارى[٣]

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) طه حسين ، على وبنوه ، ص ٥٩ ، أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ١ ص ٥٥ ؛ أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ أبو زيد شلبى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٢٠٢ .

محمود عبد الرازق جدل حول الخوارج وقضية التحكيم ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٠ ص ٦٠ ، ٦١ .

(٣) عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة ويقال يسيرة وهو المعروف بالبدرى لأنه سكن ونزل ماء بدر وشهد العقبة ولم يشهد بدر عند أكثر أهل السير وقيل شهد بدر ، اختلف فى وقت وفاته قيل توفى سنة إحدى واثنتى وأربعين ومنهم من يقول مات بعد سنة ستون هـ .

ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٥ ص ٢٩٦ .

ثم خرج إلى النخيلة فأقام معسكراً وبعث زياد بن النضر الحارثي ، في طليعة من ثمانية آلاف مقاتل ، وبعث معه شريح بن هاني[1] في أربعة آلاف ثم رحل في ثمانين ألف رجل حتى وافى المدائن فسير من هناك معقل بن قيس[2] في ثلاثة آلاف من الرجال لموافاته عند الرقة[3] .

أما معاوية فإنه استشار عمرو بن العاص فيما يفعله بعد أن نما إلى علمه تجييش الجيوش للزحف عليه في الشام فأشار عليه عمرو بضرورة الخروج إليه على رأس رجال الشام إن خرج علي على رأس جند العراق وغيرهم من رجالات

---

(١) بن يزيد بن الحارث بن كعب وقيل شريح بن هانيء بن يزيد بن نهيك بن دريد بن سفيان بن الضباب واسمه سلمة بن الحارث أدرك النبي ﷺ ودعا له وبه كنى النبي ﷺ أبا أبا شريح وكان يكنى أبا المقدام روى عن علي وسعد بن أبي وقاص أنه كان من أعيان أصحاب علي وشهد معه حروبه وشهد الحكمين بدومة الجندل وبقى دهراً طويلا وسار إلى سجستان غازيا فقتل بها سنة ٧٨ هـ وكان قد أخذ الكفار على المسلمين الطريق وحفظوا عليهم الدروب التي في الجبال فقتل عامة ذلك الجيش قيل إنه عاش مائة وعشرين سنة .

ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ ٢ صـ ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٢) أوفده عمار بن ياسر على عمر لفتح (تستر) ، ووجهه على بني ناجية حين ارتدوا ، وذكره يعقوب بن سفيان في أمراء علي يوم الجمل وقال الهيثم بن عدي : كان صاحب شرطه علي ، ذكر خليفة بن خياط أن المستورد بن علقة اليربوعي بارزه فقتل كلا منهما الآخر وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين في خلافة معاوية ، قال الطبري أنه توفي سنة ٣٩ هـ في خلافة علي ابن حجر ، الإصابة ، جـ ٦ ص ٣٠٦ .

(٣) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٦٦ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، صـ ٣١٦ .

عسكره ومن ثم عين معاوية على مقدمته أبا الأعور السلمى وعلى الخيل عبيدالله ابن عمر وعلى ساقته بسر بن أرطأة (١)، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد(٢) ، وعلى الميمنة يزيد العبسى وعلى الميسرة بن عبد الله بن عمرو ابن العاص(٣) .

ثم وقف معاوية فى أهل الشام خطيباً فقال: « يا أهل الشام إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق ، ولعمرى ما للشام رجال العراق وأموالها ، ولا لأهل العراق بعد أهل الشام ولا بصائرهم ، مع أن القوم بعدهم غيرهم

---

(١) بن العامرى القرشى ، أبو عبد الرحمن ، وجهه معاوية سنة ٣٩ إلى المدينة فى ثلاثة آلاف رجل وأخضعها ثم توجه إلى مكة فاحتلها واحتل اليمن ، أمره معاوية أن يوقع بمن يراه من جماعة على فقتل منهم جمعا ، ومن قتل ولدى عبيد الله بن عباس الصغيرين بين يدى أمهما . عاد إلى الشام فولاه معاوية البصرة سنة ٤١ ﻫ بعد مقتل على وصالح الحسن فمكث مدة يسيرة ، مات فى دمشق وقيل فى المدينة . بن عبد الحكيم « فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٦٠ ، ابن حجر « الإصابة ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) القرشى المخزومى ، أدرك النبى ﷺ ولم يحفظ عنه شيئا ولا سمع منه ، كان من فرسان قريش وشجعانهم ، وكان له فضل وهدى حسن وكرم ، كان منحرفا عن على وبنى هاشم كان مخالفا لأخيه المهاجر بن خالد الذى كان محبا لعلى وشهد معه الجمل وصفين ، شهد عبد الرحمن صفين مع معاوية ، يقال إن معاوية أراد أن يتخلص منه حين رأى أهل الشام يميلون إليه ويرغبون فى اختيار خليفة بعد معاوية ، فأوعز إلى طبيبه اليهودى ابن أثال أن يسمه ، فسقاه سما فمات .

ابن عبد البر « الاستيعاب ، ج ٢ ص ٨٢٩ .

(٣) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ص ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ابن الأثير « الكامل ج ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مثلهم ، وليس بعدكم غيركم ، فإن غلبتموهم لم تغلبوا إلا من قد أتاكم ، وإن غلبوكم عاقبوا من بعدكم والقوم لا قومكم ببصائر أهل الحجاز ، ورقة أهل اليمن ، وقسوة أهل مصر ، وكيد أهل العراق ، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم ، فاستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين(١) .

أسرع معاوية في سيره فوصل إلى صفين(٢) قبل علي وعسكر برجاله في مكان يجعل له السيطرة على الماء فحال بينه وبين جنود علي الذين تراشقوا بالنبال ساعة مع جند معاوية وكدأب أمير المؤمنين في سائر أحواله قدم المساعي السلمية على المعارك الحربية فاختار صعصعة بن صوحان في رواية والأشعث بن قيس على رواية أخرى رسولا إلى معاوية وحمله رسالة بعث بها إليه جاء فيها « إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالقتال ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها قد حلتم بين الناس وبين الماء والناس غير منتهين أو يشربوا ، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ، ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم له ، وإن كان أعجب إليك أن نترك ما جئنا له ،

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ١ صـ ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) بكسر الصاد وكسر وتشديد الفاء موضع على الجانب الغربي لنهر الفرات بين العراق الأعلى وبادية الشام ، يقع في شمال بلدة الرقة وجنوب بالس ولكنه أقرب إلى الثانية من الأولى .

أحمد عطية الله (القاموس الإسلامي) جـ ٤ صـ ٢٩٥ .

عبد السلام الترمانيني (أزمنة التاريخ الإسلامي) ق ٤ صـ ٢٦٠ .

ونترك النـاس يقتتـلون على المـاء حتى يكون الغـالب هو الشـارب فعلنا »(١).

لجأ معاوية إلى استشارة أصحابه فى الأمر فنهم من رأى منع أصحاب على الماء على غرار ما فعله الثوار فى المدينة بعثمان بن عفان رضوان الله عليه ومنهم من رأى إباحته لهم فال معاوية إلى الأخـذ بالرأى الأول ، ومن ثم دارت معركة حاميـة الوطيس بين جند الشـام وقوات أمير المؤمنين دارت فيها الدائرة على الشاميين وسيطر الإمام على على الماء فجعله مباحا لكلا الفريقين(٢) .

أمهل على معاوية يومين بعد معركة الماء أشخص بعدهما بشير بن عمرو ابن محصن الأنصارى(٣) وسعيد بن قيس الهمدانى .

---

(١) ابن قتيبة (الإمامة والسياسة) ج ١ ص ٩٤ ، الطبرى « تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٧١ ، ٥٧٢ .

(٢) ابن الأثير (الـكامل) ج ٣ ص ٢٨٤ السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) بشير بن عمر بن محصن أبو عمره الأنصارى وقد اختلف فى اسمه فقيل بشير وقيل بشير ، شوهد يوم صفين وكان عقبيا بدريا أحديا وهو صائم يتلوى من العطش وهو يقول لغلام له : نترسف فترسه الغلام حتى نذع بسهم نزعا خفيفا حتى رمى ثلاثة أسهم ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من رمى بسهم فى سبيل الله فبلغ أو قصر كان ذلك نورا له يوم القيامة فقتل وقبل غروب الشمس .

ابن الأثير (أسد الغابة) ج ١ ص ١٩٧ . ابن (الإصابة) ج ٧ ص ٢٨٩ .

وشبث بن ربعى التميمى(١) إلى معاوية لمفاوضته حتى يجنب الأمة إراقة مزيد من الدماء وقد عاد الرجال إلى على يجرون ذيول إخفاقهم ، ومن ثم فإن عليا أدرك أنه لا مناص من نشوب معركة بين القوتين(٢) لوضع حد لهذا الأمر .

وعلى كل حال فإن شهر المحرم سنة سبع وثلاثين من الهجرة ما كاد ينتهى حتى بدأت مناوشات الفريقين تحولت بعد ذلك إلى معركة رهيبة التحمت فيها صفوف كلا الفريقين وكثرت المقولات الحماسية فى المعسكرين وكان فى كل يوم من أيامها العشرة يسقط مئات الرجال على أرض صفين ومالت كفة الحرب إلى صالح على فإن قواته اجتاحت ميمنة معاوية وأوشكت أن تصل اليه حتى أنه فكر فى الفرار بنفسه من ميدان الحرب لولا تذكره قول ابن الإطنابة(٣) .

أبت لى عفتى وأبى بلائى وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

---

(١) التميمى اليربوعى ـ أحد الأشراف والفرسان كان ممن خرج على على وأنكر عليه التحكيم ثم تاب وأناب قال الأعمش شهدت جنازة شبث فأقاموا العبيد على حدة والجوارى على حده والجمال على حدة وقال رأيتهم ينوحون عليه ويلتدمون ، كان سيد تميم هو الأحنف .
الذهبى (سير أعلام النبلاء) ج ٤ ص ١٥٠ .

(٢) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٤ ص ٥٧٣ ، وابن الأثير « الكامل » ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٣) عرف بهذا نسبة إلى أمه وهو إسمه عمرو بن عامر ، ابن قتيبة المعارف ص ٥٩٨ .

وقولى ، كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى[1]

أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص ليجد له مخرجا مما هو فيه فكان ما كان من أمر التحكيم.

قصة التحكيم

اختلف المؤرخون القدامى والباحثون المحدثون حول ما إذا كان أهل الشام قد رفعوا المصاحف جميعا أم أنهم رفعوا مصحفا واحدا ، وكذلك حول ما إذا كانت فكرة التحكيم قد أعد لها سلفا قبل دخول الفريقين المعركة فى صفين أم أنها جاءت لعمرو بن العاص حين رأى الإنتصار قاب قوسين أو أدنى لجند على.

وحتى يمكننا الإدلاء برأينا لابد من الوقوف على ماقاله المؤرخون القدامى والباحثون المحدثون فى هذين الأمرين.

فيذكر « ابن الأثير النويرى » وغيرهما من المؤرخين أن « عمراً لما رأى أن أمر أهل العراق قد أشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولايزيدهم إلا فرقه ؟ قال : نعم ، قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها

---

(١) ابن الأثير (الكامل) جـ ٣ ص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، الخضرى (محاضرات فى تاريخ الأمم) ص ٢٨٢ .
طه حسين (على وبنوه) ص ٧٤ ، محمود شاكر (الخلفاء الراشدون) ص ٢٧٥ .
السيد عبد العزيز سالم (تاريخ الدولة العربية) ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

وجدت فيهم من يقول : ينبغى لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل »[1] .

راقت هذه الفكرة معاوية بن أبى سفيان فأمر برفع المصاحف على الرماح وقال « هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله ؟ » فلما رأى أهل العراق المصاحف دب الخلاف فيهم فغدوا بين قائل بقبول دعوة أهل الشام التى ظاهرها حقن دماء المسلمين وبين من يراها خديعة لجأ إليها معاوية للحيلولة بين جند على وبين قطف ثمرة النصر التى تكاد تدنو لهم .

وكان على بن أبى طالب من أنصار الفريق الثانى حيث قال لأهل العراق (عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرو وابن أبى معيط وحبيبا وابن أبى سرح والضحاك[2] ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا فكانوا شر أطفال

---

(١) « الكامل فى التاريخ » ج ٣ ص ٢١٦ ، عبد الوهاب النجار « الخلفاء الراشدون » ص ٤٣٦ .

(٢) بن قيس بن خالد الفهرى القرشى سيد بنى فهر فى عصره ، شهد فتح دمشق وآزر معاوية فى صفين ولى الكوفة من قبل معاوية سنة ٥٢ هـ ، حفظ الملك ليزيد حتى جاء إلى دمشق بعد وفاة أبيه ، قلب ظهر المجن للأمويين وبايع ابن الزبير بعد تنازل لمعاوية الثانى عن الحكم . قتل الضحاك على يد جيش مروان سنة ٦٤ هـ فى موقعة مرج راهط .

ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب » ج ١ ص ٧٢ ، الزركلى « الأعلام » ج ٣ ص ٣٠٩ .

وشر رجال ويحكم والله ما رفعوه إلا خديعة ومكيدة)[١] .

بيد أن الفريق الأول الذى كان على رأسه مسعر بن فدك التميمى وجماعة من القراء كان له الغلبة[٢] فهددوا عليا بقولهم : (يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان) فاضطر على إلى بذل موافقته لهم وهو يقول : (احفظوا عنى نهيى إياكم واحفظوا مقالتكم لى فإن تطيعونى فقاتلوا وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم)[٣] .

مما تقدم نرى أن أهل الشام رفعوا أكثر من مصحف واحد على الرماح وهذا ما لم يقل به ابن قتيبة الذى زاد على ما تقدم فقال دعا معاوية رجلا من أصحابه يقال له ابن هند فنشر المصحف بين الصفين .

ثم نادى الله الله فى دمائنا ودمائكم الباقية ، بيننا وبينكم كتاب الله فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى على فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف ثم تلا : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)[٤] ثم نادى من

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) محمود عبد الرازق ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٢ ص ٥٨ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، تاريخ الدولة العربية ، يوليوس فلهوزن ، ص ٣٤ العدد ٣٤ العدد ٢٠ ص ٥٨ .
طه حسين ، على وبنوه ، ٧٤ .

(٤) قرآن كريم سورة آل عمران : آية ٢٣ .

لفارس الروم ؟ فقال الأشعث : والله لا نأتى هـ[illegible] أبداً ، ونرض معك ، أو نقاتل معك وتابعه أشراف أهل اليمن وركنوا إلى الصلح وكرهوا القتال)[1] .

هـذا بالنسبة للأمر الأول فإذا ما انتقلنا إلى الأمر الثانى وجدنا أحد الباحثين يخالف السواد الأعظم من المؤرخين القدامى والمحدثين فى أن فكرة التحكيم جاءت وقتية لعمرو بن العاص فقال (والظاهر أن عمراً ومعاوية دبرا ذلك مقدما ، فأمرا أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة ، لعلمها بأن جيش على كان يضم فريقا من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم داع إلى ذلك) .

واستدل على صحة ما ذهب إليه بما قاله عمرو لمعاوية (إنى قد أعددت بحيلتى أمراً أخرته إلى هذا اليوم وإن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه تفرقوا قال معاوية : وما هو ؟ قال عمرو : تدعوهم إلى كتاب الله حكما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك)[2] .

والذى نراه أن أهل الشام رفعوا عـدداً من المصاحف وليس مصحف واحد حيث أن المنطق يقوى هـذا الترجيح ذلك أن المعركة بين الفئتين ضمت أكثر من مئة ألف رجل فكيف يتصور والحالة هذه أن يبرز للجميع رجل واحد واضعاً المصحف على رمحه وينادى بما أمر به فيحدث أثرا فى معظم جند على الذين كانوا نيفاً وثمانين ألف رجل أضف إلى هذا كله ، أن

---

(١) الإمامة والسياسة ، جـ ١ ص ١٠٢

(٢) الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٨٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٣٨ .

المسعودى ذكر أن المصاحف التى رفعت فى صفين من قبل الشاميين كانت خمسمائة مصحف)[1] .

كما أنى لا أميل إلى الأخذ بما ذكره أحد الباحثين المحدثين من أن عمراً قد دبر ذلك سلفا فإن الرواية التى ذكرها (الدينورى) لا تنهض دليلا على جعل المرء يميل إلى هذا الرأى إذا لا يستبعد أن يكون معاوية وعمر بن العاص قد أمرا أهل الشام بحمل المصاحف معهم على سبيل التبرك ويقوى هذا أيضا أن فكرة حمل المصاحف فى المعارك ورفعها فيها لم تكن لأول مرة فى صفين بل حدث ذلك فى موقعة الجمل حين رفع البصريون المصاحف)[2] .

وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين ذكروا أن عمرو بن العاص قد لجأ إلى فكرة التحكيم على سبيل خداع أهل العراق الذين قبلوا الخديعة رغم تحذيرات على لهم[3] .

فإن أحد المؤرخين المحدثين يرى رفض هذا كله فيدفع عن عمرو وصفه بخداع أهل العراق وعن على رفضه قبول التحكيم فقال : (وما أظن الرواية

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٠ ،
وأيد الدينورى ما ذهبنا إليه من أن أهل الشام رفعوا العديد من المصاحف وقال إن الشاميين أمروا بربط المصاحف على أطراف القنا فكان أول مصحف دمشق الأعظم ربط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال ثم ربطوا سائر المصاحف التى كانت معهم .
، الأخبار الطوال ، ص ١٨٩ .
(٢) أبو عمرو خليفه بن خياط ، تاريخ الخليفة بن خياط ، ص ١٩٤ .
(٣) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٤ ، طه حسين ، على وبنوه ، ص ٧٤ ،

التي تذهب إلى أن عليا كان كارها لها وأنه قال لأصحابه : " وما رفعوهـــا ـــ المصاحف ـــ لكم إلا دهنا وخديعة ومكيدة " ما أظنها إلا محاولة للتأكيد على أن الفكرة كانت خدعة وأنه ليخامرني الشك في صحتها لسببين :

الأول : أن راويها هو أبو مخنف ـــ وهو مؤرخ شيعي معروف ـــ فهو محل شك .

الـثاني : أن أبـــا مخنف يذكر الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد بن أبي سرخ فيها ويعتبرها ممن حضر صفين .

وهذا غير صحيح فالثابت أن الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، اعتزلا بعد مقتل عثمان ، و لم يحضرا صفين ولا الجمل ، فالوليد بن عقبة كما يقول الذهبي " اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان و لم يحارب مع أحد من الفريقين "

ويقـــول عن عبـــد الله بن سعـــد روى ابن لهيعة عن يزيـــد بن أبي حبيب قـــال : أقام عبد الله بن سعد بعسقـــلان [١] بعد قتـــل عثمـــان وكــــــره أن يكـــون مـــع معاويـــة .فذكــــر الوليــــد بن عقبـــة وعبــــد الله بن سعـــد فيمن حضـــر صفين في روايـــــــة أبي مخنف

---

(١) مدينة على ساحل البحر المتوسط في جنوب فلسطين بين غزة وبيت جبريل . كانت على الدوام مركزا زراعيا وتجاريا هاما . وقد احتلها الصليبيون خمسا وثلاثين سنة حتى استردها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣ هـــ بعد معركة حطين ثم استطاع الصليبيون أخذها صلحا بعد تخريب سورها قبل أن يعود المسلمون إلى استردادها نهائيا منهم في القرن السابع الهجري وينسب إليها كثير من العلماء .
عبد السلام الترمانيني " أزمنة التاريخ الإسلامي " م ٢ق ٢ ص ١٠٦٦ .

يقطع بعدم صحتها ، ثم إنه من المستبعد أن يرفض على التحكيم والصلح ويكره حقن الدماء وهو الذى أرسل العديد من الوفود إلى معاوية قبل المعركة وأثناءها سعيا إلى المصالحة لذلك نرجح أن فكرة التحكيم كانت دعوة صادقة لحقن الدماء والمصالحة)[1] .

وتكاد النفس لاتسكن الأخذ بهذا الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ الكبير فواقع الأمر يؤيد كون فكرة التحكيم خديعة من عمرو بن العاص حيث إن المجمع عليه من قبل كتاب التاريخ أن توقيت رفع المصاحف جاء فى ظل ظرف عصيب يمر به جند الشام ونصر قريب كاد يواتى جند على . فأى حقن للدماء يبتغيه عمرو ومعاوية من رفعهما للمصاحف .

المؤكد إذن أنهما لجأ إلى هذه الحيلة لمنع جند على من تحقيق نصر مؤزر عليهم وحتى تنطلى هذه الخديعة على القراء الذين ضمهم معسكر أمير المؤمنين دعوا القوم إلى تحكيم كتاب الله بينهم .

يضاف إلى هذا أن رفع المصاحف جاء عقب أيام عديدة انقضت على نشوب المعركة بين الفريقين فأين كان السعى إذن لحقن دماء المسلمين ؟ ولو كان هـذا الأمر موضع رعاية من قبل الشاميين بقيادة معاوية بن أبى سفيان ـ رضوان الله عليه ـ لوجدت رسل على الذين بعثهم إلى الشام لتحقيق السلام آذانا مصغية .

أما ما ذكره من استدلال لدفع ما قيل عن رفض على للتحكيم فإنه هو

---

(١) أ . د عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، صـ ٨٢ ، ٨٣ .

الآخر فيه مافيه مما يجعل النفس تتردد كثيراً للأخذ به فرفض علي ـ كرم الله وجهه ـ قبول التحكيم لا يقدح في كونه رجل سلام قد استنفد الوسائل من أجل تحقيقه ، فعدم قبوله التحكيم في وقت خروجه إلى النور لا يعني أنه يريد إراقة المزيد من الدماء وإنما القصد منه ألا تضيع الفرصة على جنده للسيطرة على الموقف حتى تضع الحرب أوزارها ومن ثم فإن ماذكر في المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي من تحذير علي جنده قبول التحكيم أمر يتوافق مع المنطق ومع ما جبل عليه أمير المؤمنين من سعي وراء حقن دماء المسلمين فقد جزم بحسه السياسي أن فكرة التحكيم لا تعدو من كونها خديعة لا غير يراد منها إعطاء الشاميين فرصة لالتقاط الأنفاس يعودون بعدها إلى مجابهة جند أمير المؤمنين .

وعلى أية حال فإن جماعة جند علي الذين رأوا قبول التحكيم صمموا على استدعاء الأشتر بن مالك النخعي برجاله من ميدان الحرب ليدخل فيما دخلوا فيه .

بيد أن الأشتر لم يستجيب ليزيد بن هانيء رسول الإمام علي ـ رضوان الله عليه ـ وقال له (ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع يزيد بن هانيء إلى علي فأخبره بذلك فوجه العديد من أفراد جيش علي أصابع الاتهام للامام بأنه وراء امتناع الأشتر من المجيء ولما بلغ الموقف مداه أرسل أمير المؤمنين ثانية إلى الأشتر الذي قال لرسول علي (أرفع المصاحف ، قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافا وفرقة) .

عاد الأشتر على الرغم منه إلى الإمام حرصا على حياته وقال مخاطبا

الفريق الذى ينادى بقبول التحكيم (يا أهل العراق الذل والوهن ، أحين علوتم القوم ظهراً ، وظنوا أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها ، وسنة من أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم فلا تجيبوهم ، أمهلونى عدو الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر قالوا : إذاً ندخل معك فى خطيئتك ، قال : فحدثونى عنكم وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم ، متى كنتم محقين أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن أنتم محقون فقتلاكم الذين لاتنكروا فضلهم فكانوا خيراً منكم فى النار إذاً قالوا : دعنا منك يا أشتر ، قاتلناهم فى الله عز وجل وندع قتالهم لله سبحانه وتعالى إنا لسنا مطيعيك لاوصاحبك فاجتنبنا) وكادت تحدث معركة بين الأشتر والمعارضين له من جند على لولا تدخل أمير المؤمنين فى الأمر وقبل الجميع التحكيم[1] .

وإن ننسى فلا ننسى بعد أن تناولنا موقف الأشتر من التحكيم أن نذكر موقف رجل آخر من جند على يمثل موقفه الفريق الذى رأى قبول التحكيم من الشاميين إنه (الأشعث بن قيس) الذى نسب إليه أكثر من باحث تآمره مع معاوية على أمير المؤمنين — كرم الله وجهه — فقالوا معقبين على موقف أنصار التحكيم من جند علي (كانت الشبهة تحـوم حول نياتهم وبخاصة الأشعث بن قيس الكندى الذى كان بينه وبين عثمان صهر وكان عامله على

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٥ ص ٤٩ ، ٥٠ ، الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص ١١٤ ، ١١٥ .
ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ص ٣١٧ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٣٦ .

أذربيجان وقد أطعمه من خراجها مائة ألف كل سنة ثم كانت له مواقفه المشككة فى إخلاصه من قبل فهو ممن ارتدوا وخرجوا على سلطان المدينة فى عهد أبى بكر ثم هو خان أصحابه الذين قاتلوا معه ولجأوا إلى حصنه النجير بعد أن هزمته جيوش المدينة ثم هو الذى ندم أبو بكر عند وفاته أن لم يقتله حين أتى به أسيراً لأنه لا يرى شراً إلا دخل فيه ولقد كان موقف الأشعث مريبا بالنسبة لعلى فهو كان يرى النصر أوشك أن يتم لعلى فما باله يتحمس لإيقاف القتال مع ما فى ذلك من ضياع النصر الوشيك والدعوة للصلح الذى رفض من قبل ؟)[1] .

والجدير بالذكر أن الأشعث بن قيس ومن دار فى فلكه من أنصار التحكيم لم يكتفوا بجعل على وأتباعه ينزلون على رأيهم ويقبلوا التحكيم فحسب بل إنهم فرضوا عليه أبا موسى الأشعرى ليكون ممثلا له فى التحكيم مع عمرو بن العاص الذى اختاره الشاميون نائباً عنهم فى هذا الأمر .

وعبثا حاول الإمام إقناع معارضيه بأن أبا موسى ليس كفؤ لعمرو بن العاص ذلك أنه لما قال لهم (قد عصيتمونى فى أول الأمر ، فلا تعصونى الآن لا أرى أن أولى أبا موسى) أجابوه بقولهم : لا نرض إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه ، فقال لهم على أنه ليس لى بثقة قد فرقنى وخذل الناس عنى ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك (قالوا والله ما نبالى أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلا رجلا هو منك ومن

---

(١) طه حسين « على وبنوه » ص ٨٠ ، ٨١ .

محمود عبد الرازق « المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٢ ص ٥٩ .

أحمد إبراهيم الشريف « دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة » ص ٣٦٩ .

معاوية سواء قال علي فإني أجعل الأشتر قالوا : وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟ قال : قد أبيتم إلا أبا موسى ، قالوا : نعـم ، قال : فاصنعوا ما أردتم)[1] .

وعلى كل حال فإن أتباع الإمام استقروا على أبي موسى كي يمثلهم في التحكيم ومن ثم أرسلوا إليه من يأتي به إلى علي ذلك أن أبا موسى لم يكن من المشاركين في معركة صفين ويذكر غير واحد من المؤرخين أن عـدداً من أعلام جيش علي تحدثوا مع أبي موسى موصين له ومحذرين إياه من عمرو بن العاص مثل ابن الكواء الذي قال له (اعلم أن معاوية طليق الإسـلام وأن أباه رأس الأحزاب وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة ، فإن صدقك فقد حل خلعه ، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه ، وإن ادعى أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب من المريض ، ثم استعمله عثمان برأي عمر وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة ، واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبراً يسوؤك .

ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأنها بيعة هدى فقال أبو موسى : رحمك الله ، أما والله مالي إمام غير علي وإني لواقف عندما رأى ولرضاء الله تعـالى أحب إلي من رضاء النـاس)[2] .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ص ٥١ ، ٥٢ .
الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص ١١٥ .
النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٤٨ .
(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ١١٣ .

ولما استقر أتباع علي ومعاوية على أبي موسى وعمر ليحكما فيما شجر بينهما من خلاف أعدت صحيفة التحكيم بحضرتهما وفيها « هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم ، إننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى وعمرو بن العاص عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة الجامعة العادلة غير المفرقة »[1].

ثم شفعت صحيفة التحكيم بتعهد شهد عليه بعض أفراد الجيشين المتحاربين فيه أمان على نفسهما وأولادهما وأموالهما .

وقد تناول أكثر من باحث محدث صحيفة التحكيم التي أسلفناها بالنقد على أساس أنها لم تذكر صراحة القضية المتنازع في شأنها والتي بسببها أبى معاوية الدخول في طاعة علي وهي المطالبة بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية بوصفه ولي دمه فتكون بذلك قد جعلت المجال مفتوحاً للحكمين للبحث في أمر الخلافة التي لم تكن محل نزاع قط بين علي ومعاوية قبل دخولهما في معركة صفين[2] .

---

(١) ابن قتيبة « الإمامه والسياسة » ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .
الطبري « تاريخ الرسل والملوك » ج ٥ ص ٥٢ .
النويري « نهاية الأرب » ج ٢٠ ص ١٥٠ .
(٢) طه حسين « علي وبنوه » ص ٨٤ ، ٨٥ .
أحمد ابراهيم الشريف « دور الحجاز في الحياة السياسية العامة » ص ٣٧١ .
عبد الشافي محمد عبد اللطيف « العالم الإسلامي في العصر الأموي » ص ٨٤ .

ونحن نضيف إلى هذا أن الصحيفة التى تضمنت التحكيم ذكر فيها اسم على مجرداً من لقب الخلافة وبهذا يكون قد سوى نفسه بمعاوية الذى لم يبايع بالخلافة من قبل العديد من أمصار الدولة الإسلامية، فتسليم على بتجريد اسمه من لقب الخلافة يعد فى واقع الأمر انتصار لمعاوية وهزيمة للإمام الذي لم يهتم بقول الأحنف بن قيس « لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإنى أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً » وعد الإمام نفسه حين يقبل بالتسوية بينه وبين معاوية فى الصحيفة مقتديا بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية عندما قبل ذكر اسمه مجرداً عن وصف الرسالة »[1] .

اجتماع الحكمين

لما حان الأجل المضروب لاجتماع الحكمين وافا كلا منهما بلدة دومة الجندل[2] بأذرح وبصحبتهما رجال يمثلون الفريقين المتحاربين فى صفين .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٥ صـ ٥٢ .

(٢) دومة الجندل واحة تقع فى الطرف الجنوبى لوادى السرحان فى موضع متوسط بين جبل شمر فى الجنوب وجبل الدروز فى الشام وبين مجرى الفرات و الشرق وميناء العقبة فى الغرب ، تمتد الواحة فى الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى يبلغ طولها نحو ثلاثة أميال وعرضها نحو نصف الميل وهى منخفضة عن سطح الصحراء بنحو ١٥٠ م .

أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامى ، جـ ٢ ص ٤١٢ .

وهى بذلك تختلف عن أذرح التى تقع فى منطقة بين أراضى شرق الأردن والمملكة السعودية فى الأطراف الجنوبية من بادية الشام ، الأمر الذى يبين لنا خطأ المؤرخين الذين قالوا دومة الجندل بأذرح .

ابن عربى ، العواصم من القواصم ، حاشية رقم ٢ صـ ١٧٤ .

معاتبين إياه من جديد على قبوله التحكيم وشرطوا عليه كي ينضموا إلى رجاله أن يقر بخطئه فيما فعل ويتوب من كفره[١] .

وأما ثانيهما فقد قابل ابن عباس فوضع بين يديه رسالة أمير المؤمنين على ابن أبي طالب والتي فيها أمر بالنداء في البصريين حتى ينضموا إلى عسكر أمير المؤمنين لقتال الشاميين لم يستجب لنداء ابن عباس إلا قليل من البصريين فمن ستين ألف كانوا يتقاضون الأعطيات من ديوان أمير المؤمنين لبى نداءه ثلاثة آلاف رجل[٢] .

ولما يئس على من طائفة الخوارج رأى السير بمن معه من الرجال لقتال معاوية إلا أن ذلك أيضا لم يتيسر له حيث إن أتباعه الذين قبلوا مجابهة الشاميين في ميدان الحرب من جديد رأوا أن الخوارج بالنهروان قد سعوا في الأرض فسادا وإنهم ولوهم الأدبار وولوا وجوههم شطر معاوية ورجاله إزداد شرهم واستشرى خطرهم ورأوا الاجهاز على جماعة الخوارج بالنهروان ثم قتال أهل الشام .

والذى قوى أخذ أتباع على بهذا الرأي أن الخوارج بالنهروان إعرضوا لعبد الله بن خباب وزوجه التي كانت حاملا فأوثقوهما بالحبال وسألوا عبد الله

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ص ٧٦ ، ٧٧ .
يوسف على يوسف ، الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص ٢٠١ .
عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٣٣٩ ، ١٤٠ .
النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٧١ ، ١٧٢ .
أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة العامة السياسية ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

عن رأيه فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيراً ، قالوا : ماتقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟ قال : إنه كان محقا فى أولها وفى آخرها . . . . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة فقالوا : إنك تتبع الهوى وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً ، فعمدوا إلى زوجه فبقروا بطنها ثم أضجعوه فذبحوه ليس هذا فحسب بل قتلوا ثلاث نسوة من طيء[1] .

أرسل على إلى الخوارج بالنهروان حرب بن مرة يطلب منهم تسليم قتلة عبد الله بن الخباب وآخرين فلما أنهى إليهم رسالة الإمام قاموا إلى الرسول فقتلوه ولما نفد صبر الإمام من إياب هذه الطائفة إلى الطاعة أمر بإرسال الجيوش إليهم وجعل لأبى أيوب الأنصارى[2] راية وأمره بالنداء فى الخوارج بأنه من جاء منهم إلى هذه الراية ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف منهم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن .

وقال أبو أيوب للخوارج (إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قاتله إخواننا

---

(١) ابن كثير ، بداية ونهاية ، ج ٧ ص ٢٨٧ .
النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) خالد بن زيد ، نزل النبى محمد ﷺ فى داره عند الهجرة إلى المدينة وحولت الدار بعد ذلك إلى مدرسة تسمى الشهابية ، مناقبه تجل عن الحصر استشهد رضوان الله عليه فى سنة ٥١ هـ وقيل فى التى تليها بالقسطنطينية وقبره تحت سورها يستسقى ويتبرك به .
ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٥٧ .

منكم فى سفك دمائكم[١] .

أمر على أتباعه ألا يبدأوا الخوارج بقتال حتى يبدءوهم وماذلك إلا رغبة منه فى حقن دماء المسلمين وعلى الرغم من هذا فإن الخوارج هم الذين بدأوا إشعال نار الحرب حين أقبلوا على جند علي يرشقونهم بالنبال ويرمونهم بالرماح وهم يقولون لا حكم إلا لله ولم تكد تمضى إلا عشية أو ضحاها على نشوب هذه المعركة حتى غدا الخوارج بالنهروان بين قتيل أو جريح ولم ينج منهم إلا سبعة رجال[٢] .

ويعزو (يوليوس فلهوزن) هزيمة الخوارج إلى التباين العددى بينهم وبين جند علي علاوة على تخلى العديد من زعمائهم عنهم قبيل نشوب معركة النهروان على غرار الأشعث بن قيس وشبث بن ربعى .

ناهيك عن خيانة بعض أتباعهم لهم وانسحابهم فى أصعب الأوقات كما حدث من فدوة بن نوفل حين تقهقر أثناء المعركة فى خمسمائة من الخوارج إلى الدسكرة[٣] يضاف ما فى القصاصة .

---

(١) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ١٢٨ .
ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
يوسف على يوسف ، الخلافة والخلفاء الراشدون ، ص ٢٠٢ .
أحمد الشامى ، الخلفاء الراشدون ، ص ٢٥٨ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ص ٨٥ ، ٨٦ .
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
طه حسين ، على وبنوه ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
أحمد الحتنارى ، حركات ومؤامرات ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٣) تاريخ الدولة العربية ص ١٠ .

فان عليا لما تمكن استئصال شأفة الخوارج بالنهروان أراد التفرغ لقتال معاوية .

بيد أن أنصاره أظهروا عدم اكتراثهم برغبته وسأموا القتال وتركوا الإمام يعانى من جروحه التى تعاقبت عليه واحدة إثر أخرى من قبل أتباعه الذين ألجأوه إلى قبول قرارات لم يكن ليرضى بها هذه واحدة ، وأما الثانية فلأنهم انخذلوا عن نصرته بعد أن نجح فى تأمين جبهته الداخلية من خطر الخوارج .

فحين قال على لأتباعه عقب انتصارهم فى النهروان (إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم قالوا : يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا ، فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا »[1] .

أدرك على أن عزيمة أتباعه على المضى قدما لقتال الشاميين هى التى كلت ووهنت وليس سيوفهم فبعد أن وصلوا إلى معسكرهم بالنخيلة طفقوا يتسللوا منه جماعة إثر أخرى دون علم الإمام - كرم الله وجهه - الذى ما إن وقف على هذا الواقع المر حتى نفس عن نفسه فقال مخاطبا البقية الباقية من أتباعه « عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت

---

(١) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » جـ ٥ صـ ٨٩ .
أحمد الشامى « الخلفاء الراشدون » صـ ٣٥٦ .

أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة وكأن قلوبكم مألوسة[1] فأنتم لا تعقلون وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون لله أنتم ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعه ، وثعالب رواغه حين تدعون إلى البأس ما أنتم لى بثقه ، ما أنتم بركب يصال بكم ولاذى عز يعتصم إليه لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون ، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون ، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل وبات لذل من وادع وغلب للمتجادلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب »[2] .

أخذ نجم أمير المؤمنين فى ظل هذه الظروف يسير بسرعة نحو الأفول بينما نجم معاوية يزداد سطوعا فقد أخذ يهدد أطراف البلاد الخاضعة للإمام ومن ثم غدا عمال على يعانون من خروج الدعية عليهم حيث أرهقهم جند معاوية من أمرهم عسرا .

فأعلنت بعض الأقاليم الخروج على الإمام[3] الذى ظل يعمل من أجل رأب الصدع ولم شمث أتباعه حتى أستشهد دون إدراك وتره .

مقتل على كرم الله وجهه : أجمع المؤرخون القدامى على أن قتل على بن

---

(١) من الألس وهو ذهاب العقل .
ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ألس ص .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ص ٩٠ .
النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ص ١٧٩ .
عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٣) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ٣٨٢ .

أبي طالب كان نتيجة مؤامرة دبرتها الخوارج غايتها تخليص الأمة من الثلاثة الذين زعموا أنهم سبب شقائها علي ومعاوية وعمرو بن العاص فعهدوا إلى ثلاثة من رجالهم القيام بهذه المهمة وضربوا لهم ليلة السابع عشر من رمضان موعداً لإنفاذها بيد أن ابن قتيبة يخالف العديد من أعلام المؤرخين مثل الطبري وابن الأثير ومن دار في فلكهما في بعض التفاصيل .

فيذكر الطبري أن عبد الرحمن بن ملجم[1] حين وصل الكوفة إلتقى بقطام من تيم الرباب فبهر بجمالها وسعى إلى زواجها فطلبت منه إمهارها ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينه ورأس علي بن أبي طالب حتى توافق على بنائه بها فوافقها على طلبها وأدفأت ظهره باثنين آخرين شبيب ووردان[2] .

بينما يذكر ابن قتيبة أن ابن ملجم تزوج من المرأة قبل قتل علي وأنها ظلت تستحثه الوفاء بما وعد فاستمهلها حتى يأتي الوقت المتفق عليه مع زميليه الآخرين لقتل عمرو ومعاوية في ليلة واحدة فوافقت على ذلك[3] .

والذي نراه أن رواية الطبري ومن حذوه من المؤرخين راجحه وأن رواية

---

(١) شهد فتح مصر ينتمي إلى بني تدول وهو من أبرز فرسانهم بمصر ، قرأ القرآن على معاذ بن جبل . أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتقريب داره في مصر من المسجد ليستفيد منه في تعليم القرآن لهم ، هو أفضل البشر عند الخوارج ، توفي قصاصاً سنة أربعين من الهجرة .

الذهبي تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٣٨٩ .

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٣٧ .

ابن قتيبة مرجوحة ، ذلك أن العقل لا يستطيع أن تملكه المرأة نفسها ثم تطلب منه الوفاء بشرطها فإن إباءتها الزواج منه حتى يحقق لها طلبها ويزيد من حماسه في انفاذ ما وعدها به .

وعلى كل حال فإن عبد الرحمن ابن ملجم اختبأ مع رفيقيه للإمام وهو خارج لأداء صلاة الفجر بالمسجد فانقضوا عليه بالسيوف فأصابوا رأسه وكتفه إصابات بالغة .

وعندما حاولوا الفرار فقد ألقى القبض على اثنين منهم ونجا ثالثهم شبيب[1] .

وعلى الرغم من الإجماع الذي انعقد أو كاد من قبل المؤرخين على نسبة المشاركة لقطام في التآمر على حياة أمير المؤمنين الذي قتل ذويها في النهروان فإن الأستاذ الكبير . د. عبدالعزيز غنيم يأبى الأخذ بهذا الإحتمال ملتمساً لرأيه أدلة جاء فيها أن الروايات التي سجلت لنا أنباء قطام لا تخلو من التناقض والاضطراب فقد اختلف في قطام أهو اسم المعشوقة أم اسم والدتها ، واختلفت في ابن ملجم أكان قتله لعلي بعد الدخول بها أم قبله واختلفت في مساعديه ، ومن الذي نجا منهما ، ومن الذي قتل .

كما أن الرواة الذين نقلوا لنا أنباء المؤامرة الثلاثية هم أنفسهم الذين نقلوا أنباء قطام .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ص ٣٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٣ ص ٣٢٦ .
الذهبي ، تاريخ الإسلام ، جـ٣ ص ٣١٦ ، ٢٩٧ ، عبد الشافي عبد اللطيف ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص ٩٧ : ٩٩ .
أحمد الشامي ، الخلفاء الراشدون ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

وليس من المعقول ولا من المقبول أن نصدقهم فى أمر ونكذبهم فى آخر ، إلا إذا كان الهوى هو العلة وكان التعصب والانحياز هو الباعث والمبرر[١] .

ولم يرتض المؤرخ الكبير كذلك نسبة قتل على إلى مؤامرة قام بها الخوارج على أساس أن من يستعرض أسماء الرجال الذين ضمتهم هذه الطائفة فى ذاك الوقت لا يجد من بينهم أسماء الثلاثة الذين زعم المؤرخون أن الخوارج عهدوا إليهم قتل على ومعاوية وعمرو .

فلو كان الخوارج قد تآمروا حقا لما أسندوا هذه المهمة لغير فرسانهم الأقوياء وأبطالهم الأتقياء أما أن يسندوها إلى هؤلاء الأغمار فذلك مالا تسكن إليه النفس ولا يطمئن إليه القلب .

وانتهى إلى أن المؤامرة على قتل على ما قام بها إلا معاوية بن أبى سفيان وبرر ذلك بما كان بين الأمويين والهاشميين من تنافس منذ الجاهلية وطلبهم الخلافة فى جرأة منذ قتل عمر وتمكينهم لأنفسهم فى الإدارة أثناء حكم عثمان يضاف إلى هذا إذ كائهم نار الفتنة على على[٢] .

وعلى كل حال فإن أمير المؤمنين حمل إلى بيته بعد الضربات التى وجهها إليه ابن ملجم ومن معه والدماء تسيل من جراحاته .

وعلى الرغم من أن « أثير بن عمر الطبيب قد قال لعلى أعهد عهدك فإنك ميت »[٣] فإنه أصدر توجيهاته إلى أتباعه بأن لا يصيبوا ابن ملجم بأذى لأن النفس بالنفس وحذرهم من التمثيل به إن هم قتلوه قصاصا لأن

(١) الثورات العلوية ص ٤٩ .

(٢) عبد العزيز غنيم « الثورات العلوية » ص ٥٠ .

(٣) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٠ ص ٢١٤ .

النبي محمد ﷺ نهى عن ذلك[1] .

إن هذا الموقف الذي وقفه علي بن أبي طالب من قاتله يعد أبلغ رد على الخوارج الذين زعموا كذبا وبهتانا أن الإمام ما يقاتل معاوية إلا لأجل دنيا يصيبها .

فعلي ليس من أولئك البشر الذين يشفون غليلهم بالتمثيل بعدوهم فكثيرا ما قابل إساءة مناوئيه بالحسنى على غرار ما أسلفنا من موقفه النبيل في معركة الماء ، فقد أباحه للجميع بعد أن بسط سيطرته عليه وقد كان قبلا للشاميين دون أتباع الإمام وليست هذه المواقف السامية بمستغربة على رجل عاش في كنف النبي ﷺ منذ نعومة أظافره .

ومن ثم هان عليه النفيس والرخيص من أجل الذب عن حق يؤمن به فكانت حياته نمنا للسياسة الواضحة التي خلت من دهاء الساسة ومحاباة الزعماء واستدناء الأصدقاء الذين يحققون له المصلحة الشخصية على حساب صالح الأمة .

تلك كانت خاتمة علي وهي أسوأ خاتمة في تاريخ الراشدين فإنه رضوان الله عليه حين وري القبر بعد جراحته بليلتين طويت صفحات وصفحات فيها ما فيها من مآسي وفتحت صفحات غيرها بدت أسوأ مما كان في أيام الإمام وإن كان هذا السوء على فترات متباعدة .

وصدق الأستاذ الخضري حين قال « إن قتل عثمان بن عفان على يد الثوار كان بداية للتاريخ المشؤوم »[2] .

وتم بحمد الله الجزء الأول من كتاب « نور اليقين في تاريخ الراشدين »

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٥ ص ١٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) محاضرات في تاريخ الأمم ص ٣٥٥ .

الفهرس غير مكتمل من أصل المصدر

الموضوع	الصفحة